

أنطونيو مونيوت مولينا

الشتاء في لشبونة

مع تذييل للمؤلف

ترجمة أحمد حسان

El invierno en Lisboa

Antonio Muñoz Molina

Editorial Planeta, S. A., 1987, 1999, 2014

إلى أندريس سوريا أولميدو  
وجوادلوبي رويث

"ثمة، في الانفصالات، لحظة، لا يعود فيها الشخص المحبوب معنا".

فلوير، التربية العاطفية

## الفصل الأول

كان قد انقضي عامان تقريباً منذ أن رأيتُ سانتياجو بيرالبو لآخر مرة، لكن حين التقيتُ به من جديد، في منتصف الليل، على منصّة بار فندق المتروبوليتانو، كان في تحيتنا المتبادلة نفس الافتقار إلى التوكيد كأننا كنا نشرب معاً في الليلة السابقة، ليس في مدريد، بل في سان سباستيان، في بار فلورو بلووم، حيث كان يعزفُ خلال فترةٍ طويلة.

الآن كان يعزف في المتروبوليتانو، مع عازف كونتراباص زنجي وعازف درامز فرنسي بالغ العصبيّة وبالغ الصبا يبدو اسكندنافيا ويسمونه بوبي. كان اسم الفرقة **ثلاثي جياكومو دولفين**: حينها كنت أجهلُ أن بيرالبو قد غيّر اسمه، وأن جياكومو دولفين ليس اسماً مستعاراً رناناً لمهنته كعازف بيانو، بل الاسم المكتوب الآن في جواز سفره. قبل أن أراه، تعرّفتُ عليه تقريباً من طريقة عزفه للبيانو. كان يعزف كأنه يبذلُ في الموسيقى أقلَّ قدرٍ ممكنٍ من الجهد، كأن ما يعزفه لا يمتُّ إليه كثيراً. كنتُ جالسا على منصّة البار، وظهري للعازفين، وحين سمعتُ البيانو يُلمَحُ تلميحا بعيدا بنغمات أغنيةٍ لم أستطع تذكر اسمها، غمرني حدسٌ مباغتٌ بشيءٍ، ربما بذلك الإحساس المجرّد بماضٍ استشعرته أحيانا في الموسيقى، وحين استدرتُ لم أكن أعرفُ بعد أن ما كنتُ أتعرفُ عليه كان ليلةً ضائعة في بار الليدي بيرد، في سان سباستيان، الذي لم أعد إليه منذ زمنٍ طويل. صار البيانو غير مسموعٍ تقريباً، متراجعا خلف صوت الكونتراباص والدرامز، وعندها، وأنا أتفحصُ دون هدفٍ وجوه

السكرارى والموسيقين، الباهتة بين الدخان، رأيتُ جانبياً وجهَ بيرالبو، الذي كان يعزف بعيونٍ مُسبلةٍ وبين شفثيه سيجارة.

عرفته على الفور، لكن لا يمكنني قولُ أنه لم يتغير. ربما فعل لكن في اتجاهٍ متوقعٍ تماماً. كان يرتدي قميصاً داكناً وربطة عنقٍ سوداء، وقد أضاف الزمن إلى وجهه وقاراً رأسياً عابراً. فيما بعد انتبهتُ إلى أنني لاحظت فيه تلك الخاصية التي لا تتغير لمن يحيون، ولو لم يعلموا، وفقاً لمصيرٍ ربما تحدد لهم في مراهقتهم. وبعد سن الثلاثين، حين يستسلم الجميع لتدهورٍ أشد مهانةً من الشيخوخة، يتشبثون هم بصبا غريبٍ حانقٍ وهاديٍّ في آن، بنوعٍ من الجسارة الهادئة والمستريية. كانت نظرةُ بيرالبو هي أكبرُ تغييرٍ مؤكدٍ لحظته فيه تلك الليلة، لكن نظرة اللامبالاة أو التهمك الثابتة تلك كانت نظرة مراهقٍ دعمته المعرفة. وأدركتُ أن هذا هو سببُ الصعوبة البالغة في الحفاظ عليها.

خلال أكثر من نصف ساعة احتسيتُ بيرةً داكنة ومثلجة وظللت أراقبه. كان يعزف دون أن ينحني على لوحة المفاتيح، بل رافعاً رأسه، حتى لا يدخل في عينيه دخان السيجارة. كان يعزف ناظراً إلى الجمهور وموجهاً إشاراتٍ سريعةً سريعةً للموسيقين الآخرين، ويداه تتحركان بسرعةٍ بدا أنها تستبعد كل تفكيرٍ مسبقٍ أو تقنية، كأنهما لا تُطيعان سوى صدفة، بعدها، بثانية واحدة، تنتظم من تلقاء ذاتها في لحنٍ، في الهواء حيث ترنُّ النغمات، مثلاً يكتسب دخانُ سيجارة أشكالٍ دوّاماتٍ زرقاء.

على أية حالٍ، بدا كأن لا شيء من ذلك يشغلُ تفكيرٍ أو اهتمام بيرالبو. لاحظتُ أنه يُطيل النظر إلى نادلةٍ شقراء بزي رسمي تقوم بخدمة الطاولات وأنه ذات لحظةٍ تبادل معها ابتسامة. أشار لها: وبعد قليل، تركت

النادلة كأس ويسكي فوق غطاء البيانو. كذلك تغيّرت طريقة عزفه مع الزمن. لا أفهم كثيراً في الموسيقى، ولم أفرط أبداً في الاهتمام بها، لكنني وأنا أستمع إلى بيرالبو في الليدي بيرد كنت قد لاحظتُ بعض الارتياح أن الموسيقى يمكن أن تكونَ قابلةً للتفسير وتنطوي على حكايات. وتلك الليلة، بينما أستمع إليه في المتروبوليتانو، أدركت بصورة غامضة تماماً أن بيرالبو يعزف أفضل مما قبل عامين، لكن بعد دقائق قليلة من النظر إليه كففتُ عن سماع البيانو لأهتم بالتغيّرات التي طرأت على إيماءاته الصغيرة: أنه يعزف مُنتصباً، مثلاً، ولا ينحني على لوحة المفاتيح مثلاً في زمنٍ آخر، أنه أحياناً يعزفُ باليد اليسرى وحدها ليتناول بالأخرى كأسه أو يترك السيارة في المنفضة. رأيت أيضاً ابتسامته، لا تلك التي يتبادلها من حينٍ لآخر مع النادلة الشقراء. كان يبتسم لعازف الكونترباص أو لنفسه بسعادة مُباغتةٍ يجهلها العالم، مثلاً يمكن لأعمى أن يبتسم، مُوقناً بأن أحداً لن يدقق أو يشارك في سبب ابتهاجه. ناظراً إلى عازف الكونترباص فكرتُ أن هذه الطريقة في الابتسام أكثر شيوعاً بين الزوج، وأنها زاخرةٌ بالتحدي والكبرياء. قاذني الإفراط في الوحدة والبيرة المثلجة إلى استبصاراتٍ تعسّفية: فكرت أيضاً أن عازف الدرامز الاسكندنافي، المنطوي على ذاته وعلى سجيّته، ينتمي إلى سلالةٍ أخرى، وأن ثمة نوعاً من التواطؤ العرقي بين بيرالبو وبين عازف الكونترباص.

حين فرغوا من العزف لم يتوقفوا ليحيّوا التصفيق. ظل عازف الدرامز ساكناً وشارداً بعض الشيء، كمن يدخل مكاناً باهر الإضاءة، لكن بيرالبو وعازف الكونترباص غادرا المنصة بسرعة وهما يتحادثان بالإنجليزية، ويتضحان بارتياح واضح، كأنهما، عند انطلاق صفارة يُغادران عملاً ممتداً

وهيئاً. ومُحيياً بعض المعارف تحيةً خاطفة، أتي بيرالبو نحوي، رغم أنه لم يبدُر عنه في أية لحظة أنه رأي بينما يعزف. ربما من قبل أن أراه كان قد عرف أنني موجودٌ في البار، وأفترض أنه قد تفحصني طويلاً مثلما تفحصته أنا، مُدققاً في إيماءاتي، وحاسبا بدقةٍ ثاقبةٍ أكثر مني ما صنع الزمنُ بي. تذكرت أن بيرالبو في سان سباستيان - رأيته مراتٍ عديدة يمشي وحيدا في الشوارع - كان يتحرك دوماً بطريقةٍ مُراوغة، كأنه يهرب من أحد. كان شيءٌ من ذلك يتخلَّل حينها طريقةً عزفه للبيانو. والآن، بينما أراه قادماً نحوي بين سكارى المتروبوليتانو، فكرتُ أنه أصبح أبطأً أو أكثر تعقلاً، كأنه يحتلُّ موضعاً راسخاً في الفضاء. تبادلنا التحية دون إسراف: هكذا جرى الأمر دائماً. كانت صداقتنا متقطّعةً وليلية، تقوم على تماثل تفضيلاتنا الكحولية - البيرة، النبيذ الأبيض، الـچين الإنجليزي، البوربون - أكثر مما على صراحة البوح، التي لم نكن نقترفها على الإطلاق تقريباً. كسكّيرين محنكين، كنّا كلانا لا نثق في مُبالغاتِ الحماس والصداقة اللذين يجلبهما الشرابُ والليل: مرةً واحدة فقط، عند الفجر تقريباً، وتحت تأثير أربعة كؤوس دراي مارتيني متهوِّرة، حدثني بيرالبو عن حبه لفتاةٍ كنت أعرفها بصورةٍ سطحيةٍ تماماً - لوكريثيا - وعن رحلةٍ معها كان قد عاد لتوّه منها. أفرط كلانا في الشراب تلك الليلة. وفي اليوم التالي، حين استيقظتُ، تبيّنتُ من أنني لا أعاني من صداع السكر، بل مازلت سكراناً، وأنتي نسيت كل ما حكاه لي بيرالبو. لم أتذكر سوى المدينة التي كان لابد أن تنتهي فيها تلك الرحلة التي بدأت وانتهت بسرعةٍ بالغة: لشبونة.

في البداية لم نطرح الكثير من الأسئلة ولم نوصّح الكثير عن حياتنا في مدريد. اقتربت منا النادلة الشقراء. كانت رائحة نِشا خفيفة تفوح من زيها الرسمي الأبيض والأسود، ورائحة شامبو من شعرها. دائماً ما أشكر للنساء تلك الروائح البسيطة. داعبها بيرالبو وربّت على يدها بينما يطلب منها ويسكي، أما أنا فواصلت البيرة. وبعد برهةٍ تحدثنا عن سان سباستيان، فترجّع بيننا الماضي، كضيفٍ وخبّ.

- هل تذكر فلورو بلووم؟ - قال بيرالبو-. إضطر لإغلاق الليدي بيرد، عاد إلى قريته، واستعاد خطيبته كانت له وهو في الخامسة عشرة، وورث أرض أبيه. تلقيت رسالة منه منذ قليل. الآن لديه ابنٌ ويعمل مزارعاً. وأيام السبت يسكر ليلاً في حانة نسيبٍ له.

ثمة ذكرياتٌ سهلة وذكريات صعبة، دون أن يتدخل في ذلك بُعدها في الزمن، وبالنسبة لي، تكاد تُفلت مني ذكرى الليدي بيرد. بالمقارنة بالأضواء الساطعة، والمرايا، والموائد الرخامية، والجدران الملساء للمتروبوليتانو، الذي يُحاكي، فيما أفترض، قاعة طعام فندقٍ ريفي، في الذاكرة بدا لي الليدي بيرد، ذلك البدروم بأقواس الطوب والغبش الوردي، مفارقةً تاريخيةً مبالغاً فيها، مكاناً من غير المرجح أن أكون دخلته ذات مرة. كان قريباً من البحر، وعند الخروج منه تتمحي الموسيقى ويسمع المرء دويّ الأمواج على مشط الريح Peine de los Vientos. عندئذ تذكرت: انتابني الإحساس بالزبد الذي يلمع في الظلام والنسيم المالح وعرفتُ أن ليلة التوبة والدراي ماريتيني تلك قد اختُمت في الليدي بيرد وأنها كانت آخر مرةٍ ألتقي فيها بسانتياجو بيرالبو.

- لكن أيّ موسيقي يعرف أن الماضي غير موجود - قال بسرعة، كأنه ينفي فكرة لم أنطقها أنا - أولئك الذين يرسمون أو يكتبون لا يفعلون سوي مراكمة ماضٍ على اكتافهم، كلماتٍ أو لوحات. أما الموسيقي فيظل دائماً في الفراغ. موسيقاه تكف عن الوجود في نفس اللحظة التي ينتهي فيها من عزفها. إنه الحاضر الخالص.

- لكن تبقى الأسطوانات. - لم أكن متأكداً تماماً من فهمه، وأقل فهماً لما كنت أنا نفسي أقوله، لكن البيرة حمّستني للاختلاف. نظر إلى بفضول وقال، مبتسماً:

- سجّلت بعضها مع بيلى سوان. الأسطوانات هي لاشيء. وإن كانت شيئاً، حين لا تكون ميتة، وكلها تقريباً ميتة، فإنها حاضراً تم إنقاذه. ونفس الشيء يحدث مع الصور الفوتوغرافية. مع مرور الزمن، ما من واحدة منها لا تصبح صورة شخص مجهول. لذا لا أحب الاحتفاظ بها.

بعدها بشهورٍ عرفت أنه يحتفظ ببعضها، لكنني فهمت أن ذلك الاكتشاف لا ينفي رفضه للماضي بل يؤكده بالأحرى، بطريقة منحرفة وربما انتقامية، مثلما يؤكد سوء الحظ أو الألم إرادة البقاء على قيد الحياة، كما يؤكد السكون، كما كان يمكن أن يقول، حقيقة الموسيقى.

ذات مرة سمعته يقول شيئاً مشابهاً في سان سباستيان، لكنه الآن لم يعد مَيَّالاً لهذه التوكيدات الحاسمة. حينها، حين كان يعزف في الليدي بيرد، كان تعامله مع الموسيقى يشبه تعامل عاشقٍ يُسلم نفسه لعاطفة أقوى منه: لامرأة تُغريه تارةً وترفع عنه تارةً دون أن يتمكن أبداً من تبين لماذا تُقدّم أو

تُرفض له السعادة. ببعض التواتر، كنت قد لاحظت حينها في بيرالبو، في نظرتة أو في إيماءاته، في طريقة مشيه، نزوعاً لا إرادياً لما يثيرُ الشجن، أشدَّ كثافةً لأنه الآن، في المتروبوليتانو، يتكشف لي أنه غائبٌ، مُستبعدٌ من موسيقاه، وغير ظاهرٍ في أفعاله. الآن، كان ينظر دائماً في العيون، وفقد عادةً اختلاس النظر إلى الأبواب التي تنفتح. أفترض أن وجهي قد احمرَّ خجلاً حين انتهت النادلة الشقراء أنني أنظر إليها. فكرتُ: بيرالبو ينامُ معها، وتذكرت لوكريثيا، في مرةٍ رأيته فيها وحيدةً في الممشى البحري وسألتني عنه. كانت تمطر رذاذاً، وكان شعر لوكريثيا مضمُوماً ومبتلاً وطلبت مني سيجارة. كان مظهرها مظهر من يتخلي رغماً عن أنفه عن كبرياءٍ مفرط. تبادلنا بضع كلمات، وقالت لي وداعاً ثم طوّحت السيجارة.

- لقد تحرّرتُ من ابتزاز السعادة - قال بيرالبو بعد صمتٍ قصير، ناظراً إلى النادلة، التي تولينا ظهرها. منذ أن بدأنا نشرب على منصة بار المتروبوليتانو كنت أنتظر أن يذكر اسم لوكريثيا. عرفت أنه الآن، يتحدث عنها، دون أن يذكر اسمها. وواصل - : من ابتزاز السعادة وابتزاز الكمال. إنها غيبياتٍ كاثوليكية. تأتي إلينا من التلقين المسيحي ومن أغاني الراديو.

قلت أنني لا أفهمه: رأيته ينظرُ إليّ ويتسم في المرأة الضخمة على الجانب الآخر من منصة البار، بين الصفوف اللامعة للزجاجات التي يخففها الدخان، ونعاس الكحول.

- إذا كنت تفهمني. من المؤكد أنك استيقظت ذات صباح وانتهيت إلى أنك لم تعد بحاجة إلى السعادة ولا الحب لتحيا بصورةٍ معقولة. إنها لراحةٌ، بالغة السهولة مثل مدِّ اليد وإطفاء الراديو.

- أفترض أن المرء يستسلم - انزعجت، وتوقفت عن الشرب. خشيتُ  
أنتي إذا واصلت، سأبدأ في الحديث عن حياتي مع بيرالبو.

- المرء لا يستسلم - قال، بصوتٍ من الحفوت بحيث لا يكاد يُلحظُ  
فيه الحنق - هذه غيبيةٌ كاثولية أخرى. المرء يتعلمُ ويحتقر.

كان هذا ما جرى له، ما غيَّره إلى حدٍ شحذٍ مقلتيه ببريق الشجاعة  
والمعرفة، ببرودةٍ مشابهةٍ لبرودة تلك الأماكن الخاوية التي نتوقع فيها بقوةٍ  
حضوراً خفياً. خلال هذين العامين كان قد تعلم شيئاً، ربما شيئاً واحداً  
حقيقياً ومخيفاً يتضمن حياته وموسيقاه برمتها، كان قد تعلم في نفس الآن أن  
يحتقر وأن يختار وأن يعزف البيانو بسلاسةٍ وتهكمٍ زنجي. لهذا السبب لم  
أعرفه: ما كان لأحدٍ، ولا حتى لوكريثيا، أن يتعرف عليه، لم يكن ضرورياً أن  
يكون قد غيَّر اسمه ويعيش في فندق.

لا بد أنها كانت الثانية فجراً حين خرجنا إلى الشارع، صامتين  
ومتجمدين، نترجح بنوعٍ من تفاهة السكاري المتأخرين. وبينما أصبح به إلى فندقه  
- في الجران بيا<sup>(1)</sup>، غير بعيدٍ عن المتروبوليتانو - كان يشرح لي أنه استطاع  
أخيراً أن يعيش من الموسيقى وحدها. كان يكسب قوته بطريقةٍ غير منتظمةٍ  
وبدويةٍ بعض الشيء، يعزف على الدوام تقريباً في نوادي مدريد الليلية،  
وبعض الأحيان في نوادي برشلونة، مسافراً بين الحين والحين إلى كوبنهاجن أو  
إلى برلين، ليس بنفس التواتر مثلاً حين كان يبلي سوان حياً. "لكن المرء لا  
يستطيع أن يكون سامياً دون مقاطعةٍ ويحيا من الموسيقى وحدها"، قال  
بيرالبو، مستخدماً استشهاداً نابعاً من الأزمنة الغابرة: كذلك كان يعزف  
أحياناً في جلسات استوديو، في أسطواناتٍ لا تُغتفر لا يظهر فيها اسمه

لحسن الحظ. "يدفعون جيداً"، قال لي، "وحين يخرج المرء من هناك ينسي ما عزفه". لو استمعتُ إلى بيانو في واحدةٍ من أغنيات الراديو تلك، فمن المحتمل أن يكون هو من عزفه: عندما قال ذلك ابتسم كأنه يعتذرُ أمام نفسه. لكن ليس ذلك مؤكداً، فكرتُ، فلن يعود للاعتذار أبداً عن شيءٍ، أمام أي شخصٍ. في الجران بيا، بجوار الوميض المتجمد لنوافذ التليفونيكاً<sup>(2)</sup>، ابتعد عني قليلاً ليشتري سجائر من كشكٍ في الشارع. وحين رأته يعود، طويلاً ومترنحاً، ويداه غائرتان في جيبَي معطفه الضخم المفتوح وياقته مرفوعة، فهمتُ أنه ينطوي على الإيحاء المكثف بشخصيةٍ من تلك التي تميّز دوماً مَنْ يحملون حكايةً، وكذلك من يحملون مسدساً. لكنني لا أقوم بمقارنةٍ أدبية فارغة: فقد كان يملكُ حكايةً ويحتفظُ بمسدس.

(1) Gran Vía: يعني اسمه حرفيا "الطريق الكبير". طريق رئيسي واسع وسط مدريد. يشار إليه أحيانا على أنه "برودواي إسبانيا". يمتد على مسافة 1.3 كيلومتر من ميدان اسبانيا إلى شارع ألكالا. يعتبر من أهم مناطق التسوق والنزهة في العاصمة الإسبانية.

(2) Telefónica: مبنى شركة الاتصالات الإسبانية التي تعد إحدى كبرى شركات تشغيل التليفونات والمحمول في العالم. بارتفاع 89 مترا، بني كمنطقة سحاب. افتتح عام 1930 وظل أطول مبنى في أوروبا حتى عام 1940. يقع على الطرف الشرقي للجران بيا. محمل بالرموز لأنه كان مرصدا للجمهوريين في الحرب الأهلية وكان هدفا للقصف. كما كان يضم مكتب الصحافة الأجنبية، ومنه أرسل مشاهير الكتاب تقاريرهم عن الحرب، من أمثال همنجواي، ودوس باسوس، ودو سانت اكسوييري.

## الفصل الثاني

ذات يومٍ من تلك الأيام اشتريتُ اسطوانةً لبيلي سوان يعزفُ فيها بيرالبو. قلتُ أنني أكاد أكون مُصمّتا تجاه الموسيقى. لكن كان في تلك الأغنيات شيءٌ يهمني جدا وأكاد أتوصّل إلى الإمساك به كلما سمعتها، ودائما ما يُقلت مني. قرأت كتابا - وجدته في فندق بيرالبو، بين أوراقه وصوره الفوتوغرافية - يقول أن بيلي سوان كان أحد أعظم عازفي الترومبيت في هذا القرن. وفي تلك الأسطوانة كان يبدو أنه الأوحّد، كأن أحدا غيره لم يعزف الترومبيت في العالم، كأنه وحيدٌ مع صوته وموسيقاه وسط صحراء أو مدينة مهجورة. بين الحين والحين، في زوجٍ من الأغنيات، يُسمع صوته، وكان صوتٌ شبحٍ أو صوت ميّت. وخلفه يرِن متسللا بخفة بيانو بيرالبو، ج. دولفين في شروح الغلاف. كانت اثنتان من الأغنيات من تأليفه، تحملان اسمي مكانين بدا لي في آنٍ واحد اسمي امرأتين: **بورما، لشبونة**. بذلك الوضوح الذي يجلبه الكحول الذي أرتشفه وحيدا تساءلت كيف يمكن أن يكون حب امرأة اسمها بورما، كيف يمكن أن يلتصع شعرها وعيناها في الظلام. أوقفتُ الموسيقى، وأخذتُ سترة المطر والمظلة وذهبت أبحث عن بيرالبو.

كانت قاعة استقبال فندقه تشبه بهو واحدةٍ من تلك السينمات العتيقة التي تبدو معابد مهجورة. سألت عن بيرالبو فأخبروني أنه ليس مسجلا لديهم أحد بهذا الاسم. وصفته، ذكرت رقم غرفته، ثلاثمائة وسبعة، وأكدت أنه

يشغلها منذ حوالي شهر. أشار لي موظف الاستقبال، الذي كانت تلتصق حلقة خفيفة من الشحم حول ياقة زيه الرسمي ذي الشرائط، بإيماءة تشكك أو تواطؤ وقال: "لكنك تحدثني عن السنيور دولفين." وافقت بما يشبه الذنب، اتصلوا بغرفته فلم يكن موجوداً. قال أحد السعاة الذي سيكمل عن قريب جداً أربعين عاماً أنه رآه في الصالون الاجتماعي. أضاف بتوقير أن السنيور دولفين دائماً ما يتناول هناك القهوة والمشروبات الروحية.

وجدت بيرالو مضطجماً على أريكة ذات جلد مشكوك فيه وخياطات فضيحة، يُشاهد برنامجاً تلفزيونياً. أمامه يتصاعد الدخان من سيجارة ومن قدح قهوة. كان يرتدي المعطف: بدا كأنه ينتظر وصول قطار. كانت نوافذ ذلك المكان المهجور تطل على فناء داخلي، وضاعت الستائر المتسخة قليلاً من الغبش. فيها كان يتسارع أصيل ديسمبر، كأن الليل يكسب، في الحفرة المظلمة، انتصارات جزئية. لم يبد أن شيئاً من ذلك يعني بيرالو، الذي استقبلني بابتسامة الضيافة التي لا يستخدمها آخرون إلا في غرفة طعام منزلهم. كان على الحوائط لوحات صيد حمقاء، وفي العمق، تحت واحد من تلك الجداريات التجريدية التي يميل المرء إلى اعتبارها إهانات شخصية، تبينت بيانو رأسياً. عرفت فيما بعد أن بيرالو، كضيف وفي، كان قد حصل على الامتياز المتواضع للتدريب عليه خلال الصباحات. انتشر بين طاقم الخدمة ذلك الشك المثير في أن السنيور دولفين موسيقي مشهور.

أخبرني أنه يروقه العيش في الفنادق ذات الفئة الوسطى. كان يحب، بجب شاذٍ ولا يلين لرجلٍ وحيد، أرضية الموكيت الصفراء في الممرات، الأبواب المغلقة، المبالغة المتتابعة لأرقام الغرف، المصاعد التي لا يكاد يتقاسمها

أحدٌ على الإطلاق ورغم ذلك تحملُ آثارَ ضيوفٍ مجهولين ووحيدين مثله،  
حروقٌ سجايرٍ في الأرضية، خدوشاً أو أحرفاً أولي على ألومنيوم البوابة  
الأوتوماتيكية، تلك الرائحة للهواء المُستنزفِ بتنفس قومٍ خفيين. تعود الرجوع  
من العمل والكؤوس الليلية حين يكون الشروقُ وشيكاً، وربما في وضح  
النهار، لو امتد الليل، كما يحدث أحياناً، بصورة غير معقولة ليتجاوز نفسه:  
قال لي أن أكثر ما يروقه هي تلك الساعة الغريبة من الصباح التي يبدو له  
فيها أنه الساكن الوحيد للممرات والفندق برمته، طنين المكانس الكهربائية  
خلف الأبواب الموارية، العزلة، دوماً، الإحساس كأنه مالكٌ مُجرّدٌ من أملاكه  
يرفع من قدره أن يمضي في التاسعة صباحاً صوب غرفته مُقلِّباً المفتاح الثقيل،  
متحسناً ثقّالته في جيبه كأنها مقبض مسدس. في فندق، كما قال لي، لا  
يخدعك أحد، ولا يكون لدى المرء ذاته أي عذرٍ ليخدع نفسه بشأن حياته.

– لكن لوكرثيا ما كانت لتوافق على أن أعيش في فندقٍ كهذا –

أخبرني، لا أدري إن كان في تلك الليلة؛ ربما كانت أول مرة ينطق فيها أُمامي  
باسم لوكرثيا –. كانت تؤمن بالأماكن. تؤمن بالبيوت القديمة بصوانات السفرة  
واللوحات والمقاهي ذات المرايا. أفترض أن المتروبوليتانو يمكن أن يُحمّسها.  
هل تتذكر بار فيينا، في سان سباستيان؟ كان من نوع الأماكن التي يروق  
لها أن تواعد أصدقاءها فيها. كانت تعتقد أن ثمة أماكن شاعرية مسبقاً وأخرى  
ليست كذلك.

تحدث عن لوكرثيا بتهكمٍ وتباعد، بتلك الطريقة التي يختارها المرء  
أحياناً للحديث عن نفسه، ليصنع لنفسه ماضياً. سألته عنها: قال أنه لا يدري  
أين هي، ونادى النادل ليطلب قهوةً أخرى. أتى النادل وانصرف بتحفظ

أولئك الذين يتحمّلون بحزنٍ موهبةً الاختفاء عن الأبصار. في التلفزيون كانت تجرى بالأبيض والأسود مسابقةً ما. كان بيرالبو ينظر إليها بين الحين والآخر كمن يبدأ في الاعتقاد على مزايا تسامحٍ نهائي. لم يكن أكثر بدانة: كان أضخم أو أطول وضخمه المعطف والسكون.

زرتة مساءاتٍ كثيرة في ذلك الصالون، وتميل ذاكرتي إلى تلخيصها جميعا في مساءٍ واحد، ممتدٍ ومُصمت. لا أدري إن كان المساء الأول حين قال لي أن أصعد معه إلى غرفته. كان يودّ أن يعطيني شيئا، وأن أحافظ له عليه. حين دخلنا أضواء النور، رغم أن الليل لم يحلّ بعد، وفتحتُ أنا ستائر الشرفة. في الأسفل، على الجانب الآخر من الشارع، عند ناصية التلفزيون، بدأ يتجمع رجالٌ ذوو بشرةٍ داكنة وستراتٍ مطر مُزَرَّرَة حتى العنق ونساءٌ وحيدات ومتزينات و يتمشّون ببطءٍ أو يتوقفون كمن ينتظر شخصا كان يجب أن يكون قد وصل، أناسٌ طائشون لا يتقدمون أبدا ولا يكفون أبدا عن الحركة. تفحص بيرالبو الشارع برهة ثم أسدل الستائر. كان بالغرفة ضوءً كابٍ وغير كافٍ. من الصوان الذي تتأرجح فيه شاعاتٌ خاوية جذب حقيبةً ضخمة ووضعها فوق الفراش. خلف الستائر كان يُسمع طنين الحافلات والمطر، الذي بدأ يضرب بعنفٍ على مقربةٍ شديدةٍ منا، فوق مظلة البوابة التي لم تكن لافته الفندق قد أضيئت فوقها بعد. شمتُ رائحة الشتاء ورطوبة الليل الذي يُخيم وتذكرت سان سباستيان دون حنين، لكن الحنين ليس أسوأ ابتزازٍ لبعد المسافة. ذات ليلة كهذه، متأخرا جدا، عند الفجر تقريبا، كنا، بيرالبو وأنا، وقد تسامى بنا أو غفر لنا الجين، قد سرنا دون كبرياءٍ ودون مظلةٍ تحت مطرٍ هاديءٍ كأن به مسٌ من الرحمة، برائحة

الطحالب والملح، مُلاطفٍ كتربته، كتلك الشوارع المعروفة للمدينة التي نطأها. توقف هو، رافعاً وجهه صوب المطر، تحت الأغصان الأفقية والعارية لأشجار التمر الهندي، وقال لي: "كان يجب أن أكون زنجياً، أن أعزف البيانو مثل ثيلونيوس مونك<sup>(1)</sup>، أن أكون ولدْتُ في ممفيس، بولاية تينيسي، وأن أقبَل لوكرثيا في هذه اللحظة، أن أكون ميتاً."

الآن كنت أراه منحنيّاً على الفراش، يبحث عن شيء بين الملابس المطوية والمرتبة في الحقيبة، وفكرْتُ على الفور - وأنا أرى وجهه مُستغرقاً في مرآة الصّوان - أنه حقاً رجلٌ آخر ولستُ متأكداً أنه أفضل. دام هذا مجرد لحظة. وعلى الفور استدار نحوي مُظهرًا حزمةً من الرسائل مربوطة بشريطٍ مطاطي. كانت مظروفاتٍ مستطيلة، حوافُّها بأزرق وأحمر البريد الجوي، بطوابع بالغة الصغر وغرائبية وخطٍ نسائي مائل سطرَ بحبرٍ بنفسجي اسم سانتياجو بيرالبو وعنوانه في سان سباستيان. وعلى الركن الأعلى إلى اليسار حرف واحد: ل. قدّرت أنها عشرون أو خمس وعشرون رسالة. ثم قال لي بيرالبو أن تلك المراسلة دامت عامين وتوقفت بغتةً كأن لوكرثيا قد ماتت أو أنها لم توجد أبداً.

لكن كان هو من غمره في ذلك الوقت شعوراً بأنه غير موجود. كان كأنه يتأكل، كما قال لي، كأنه يتأكلُ من حفيفِ الهواء، من التعاملِ مع الناس، من الغياب. فهم حينها بطء الزمن في الأماكن المغلقة التي لا يدخلها أحد، دأب الأوكسيد التي يستغرقُ قروناً في تشويه لوحةٍ أو جعل تمثالٍ من الصخر تراباً. لكن هذه الأشياء قالها لي بعد شهرٍ أو شهرين من زيارتي الأولى. كنا في غرفته أيضاً، وكان يضع المسدس في متناول يده وينهض كل

بضع دقائق لينظر إلى الشارع من وراء الستائر التي يضيؤها الضوء الأزرق للآفتة المضاءة فوق المظلة. كان قد طلب المتروبوليتانو ليقول أنه مريض. جالسا على الفراش، بجوار أبا جورة الكومودينو، حشا المسدس ورفع ذراع الأمان بإيماءات جافة ومرنة، بينما يدخن، محدّثا إياي لا عن الرجل الساكن الذي ينتظر رؤيته على الجانب الآخر من الشارع، بل عن ديمومة الزمن الذي لا يحدث فيه شيء، حين يُضَيِّع المرء عمره في انتظار رسالة، أو مكالمة تليفونية.

- خذ هذه - قال لي في الليلة الأولى، دون أن ينظر إلى الحزمة وهو يدها لي، ناظرا في عيني -. احتفظ بالرسائل في مكان أمين، رغم أن من المحتمل ألا أطلبها منك.

أطل على الشارع، طويلا وهادئا بين ذيول معطفه الداكن، مزيجا الستائر إزاحة خفيفة. أغرق حلول الليل والالتماع الرطب للمطر فوق الأسفلت وهياكل السيارات المدينة في ضوء موحش. وضعت الرسائل في جيبى وقلت أنني يجب أن أنصرف. بحالة من الانهالك ابتعد بيرالبو عن الشرفة ومضى ليجلس على الفراش، مُتَحَسِّساً معطفه، مُفْتِشاً عن شيء على الكومودينو، سبائره، فلم يجدها. أذكر أنه كان يُدخن سبائره أمريكية قصيرة دون فلتري. قدّمتُ له واحدة من سبائري. قطع الفلتري، ممسكا بالسيجارة بين السبابتين والإبهامين، وتمدّد على الفراش. لم تكن الغرفة فسيحة جدا، ووجدت نفسي غير مرتاح، واقفا جوار الباب، دون أن أعقد العزم على تكرار أنني سأنصرف. فرّما لم يسمعني في المرة الأولى. الآن كان يدخل وعينه مسبلتين. فتحتها ليشير لي بإيماءة إلى الكرسي الوحيد في

الغرفة. تذكرت أغنيته تلك، **لشبونة**: حينما أسمعها كنت أتخيله هكذا بالضبط، ممدداً في غرفة فندق، يدخن ببطء شديد في الغبش الشفاف. سألته إن كان في النهاية قد زار لشبونة. انفجر ضاحكاً، وثنى الوسادة تحت رأسه.

- بالطبع - قال -. في اللحظة المناسبة. يصل المرء إلى الأماكن حين لا تعود تهمة.

- هل رأيت لوكريثيا هناك ؟

- كيف عرفت ؟ - نهض تماماً، سحق السيارة في المنفضة. هزرت كتفي، أشد دهشة منه من تخميني.

- لقد سمعتُ تلك الأغنية، **لشبونة**. جعلتني أتذكر تلك الرحلة التي بدأتماها سوياً.

- تلك الرحلة - كرر -. في ذلك الحين ألفتها.

- لكنك قلت لي أنكما لم تصلا إلى لشبونة.

- بالطبع لا. لهذا صنعتُ تلك الأغنية. ألا تحلم أبداً بأنك تتوه في مدينة لم تزرها قط ؟

أردتُ أن أسأله إن كانت لوكريثيا قد واصلت الرحلة بمفردها، لكنني لم أجرو، كان مما لا شك فيه أنه لا يريد مواصلة الحديث عن ذلك. نظر إلى الساعة وتظاهر بالدهشة من تأخر الوقت، قال أن موسيقييه لا بد أنهم ينتظرونه في المتروبوليتانو.

لم يدعني للذهاب معه. في الشارع توادعنا بتعجلٍ واستدار هو رافعا  
ياقة معطفه وبعد بضع خطوات بدا بعيدا جدا بالفعل. حين وصلت إلى  
منزلي أعددتُ لنفسي كأسا ووضعت أسطوانة بيلى سوان. حين يتعاطى  
المرء الشراب وحيدا يتصرف كخادمٍ خاصٍ لشبح. في صمتٍ يُملِي على نفسه  
أوامر ويطيعها بالدقة الغامضة لخادمٍ مُسرَّم: الكأس، مكعبات الثلج، الجرعة  
المضبوطة من الجين أو الويسكي، وسادة الكأس الرزينة فوق الطاولة  
الزجاجية، حتى لا يأتي أحدٌ بعدها ويكتشف الأثر الدائري المدان الذي لم  
تمحُ الخرقَةُ المندّاة. تمددتُ على الأريكة، مُسندا الكأس العريضة على بطني،  
وأستمعتُ إلى تلك الموسيقى للمرة الرابعة أو الخامسة. كانت لفافة الرسائل  
المُحكّمة فوق المنضدة، بين المنفضة وزجاجة الجين. كانت الأغنية الأولى،  
**بورما**، مفعمة بالظلمة وبتوترٍ شديد الشبه بالخوف ومُتّصلٍ حتى أقصاه.  
بورما، بورما، بورما، ردّد كنذيرٍ ومزمورٍ الصوتُ الداكن لبيلي سوان، ثم  
استطال الصوتُ البطيء والحاد للترومبيت حتى تهاوى إلى نغماتٍ خشنةٍ  
تُطلق في آنٍ واحد عنانَ الرعب والفوضى. كانت الموسيقى تدفعني بشكلٍ  
دائم نحو تكشُّفِ ذكرى، شوارع موحشة في الليل، وميض كشّافاتٍ على  
الجانب الآخر من الناصية، فوق واجهاتٍ ذات أعمدة وسدودٍ من الحطام،  
رجال يهربون ويلاحقون بعضهم تُطيلهم ظلالهم، بمسدساتٍ وقبّعاتٍ غاطسةٍ  
ومعاطف ضخمة مثل معطف بيرالبو.

لكن تلك الذكرى التي فاقمتها الوحدة والموسيقى لا تنتهي لحياتي، أنا  
على يقين، بل لفيلمٍ ربما شاهدته في طفولتي ولن أستطيع أبداً معرفة عنوانه.  
أتت إليّ من جديد لأنّ ثمة في تلك الموسيقى اضطهادٌ وثمة رعبٌ، وكل

الأشياء التي لمحتّها فيها أو في ذاتي مُتضمّنةً في تلك الكلمة الوحيدة، **بورما**، وفي تمهّل النذير الذي ينطقها به بيلى سوان: بورما أو بيرمانيا، ليس البلد الذي ينظر إليه المرء في الخرائط أو في القواميس بل جهازة صوت حادة أو نذير بشيء. كنت أكرر مقطعيها وأجدّ فيهما، تحت ضربات الطبلّة التي تُشدّد عليهما في الموسيقى، كلماتٍ أخرى سابقة من لغةٍ عهد بها بخشونةٍ للنقوش الحجرية وألواح الصلصال: كلمات مفردة الغموض لن يمكن حلّ شفرتها دون تدنيس.

كانت الموسيقى قد توقفت. وحين نهضتُ لأضع الأسطوانة من جديد تنبّهتُ دون دهشةٍ أن لدي القليل من الدوار وأنتي سكران. فوق المنضدة، بجوار زجاجة الجين، كان لحزمة الرسائل مظهرُ الصبر الساكن للأشياء المنسية. فككتُ العقدة التي تربطها وحين ندمتُ كانت الرسائل قد تبعثرت بالفعل بين يديّ. ودون أن أفتحها أخذت أنظرُ إليها، فحصدتُ تواريخ أختام البريد، واسم المدينة، برلين، من حيث أُرسِلت، والتنويعات في لون الحبر وفي كتابة المظروفات. إحداها، الأخيرة، لم تكن قد أُرسِلت بالبريد. كان مكتوباً عليها بتعجّل عنوان بيرالبو والطابع ملصقة، لكنها لم تُمس. كانت رسالة أنحف بكثيرٍ من أيٍّ من الأخريات. وفي منتصف كأس الجين التالية تملّصتُ من وازعٍ عدم النظر داخلها. لم يكن ثمة شيء. كانت رسالة لوكريثيا الأخيرة مظروفاً فارغاً.

هوامش:

- (1) ثيلونيوس مونك:Thelonious Monk: (1917-1982) عازف بيانو ومؤلف موسيقي. أحد أهم وأشهر العازفين وأحد مؤسسي الجاز الحديث.

## الفصل الثالث

لم نكن نلتقي دوماً في المتروبوليتانو أو في فندقه. الواقع أنه، حين سلمني الرسائل، انقضي بعض الوقت قبل أن نعاود الالتقاء. كأننا انتبهنا كلانا إلى أن إيماءته تلك قد أوقعتنا في ثقةٍ متبادلةٍ مُفرطة لا يمكن أن نخففها إلا بأن نمتنع عن رؤية بعضنا لعدة أسابيع. كنت أستمع إلى أسطوانة بيلي سوان وأنظر أحياناً، واحداً واحداً، إلى تلك المظروفات الطويلة التي كرمشها نفاذُ صبرٍ لا شك أن بيرالبو لم يعد يتعرّف على نفسه فيه، ولم تتنبني على الإطلاق غواية قراءة الرسائل، بل ومرت أيامٌ نسيته فيها بين فوضى الكتب والصحف المتأخرة. لكن كان يكفي أن أنظر إلى الخطِ المكتوب بعناية وإلى الحبرِ المطموس البنفسجي أو الأزرق على المظروفات لأتذكر لوكريثيا، ربما لم تكن المرأة التي أحبها بيرالبو وانتظرها طوال ثلاث سنوات، بل الأخرى، التي كنتُ قد رأيته بضع مراتٍ في سان سباستيان، في بار فلورو بلووم، في الممشى البحري أو ممشى أشجار التمر الهندي، بطابع الشرود المحسوب، بابتسامتها المُهمّة التي تجهلُ المرء وفي نفس الوقت تلفّه دون سببٍ في يقينٍ دافئٍ بتفضيله، كأن المرء لا يهتمّها في شيء أو أنه بالضبط الشخص الذي ترغب في رؤيته في تلك اللحظة عينها. فكرت أن ثمة تشابهٌ غير مؤكدٍ بين لوكريثيا وبين المدينة التي عرفناها فيها أنا وبيرالبو، نفس السكينة الباذخة واللامجدية، نفس إرادة الظهور بمظهر المضيافة والأجنبية في آنٍ واحد، تلك

الرقّة المخادعة لابتسامه لوكريثيا، ولوردية الأصائل في الزبد المتمهل للخليج،  
في عناقيد أشجار التمر الهندي.

رأيّتها لأول مرة في بار فلورو بلووم، ربما نفس ليلة أن عزف بيلى  
سوان وبيرالبو معا. كنت حينئذٍ أختتم الليالي بانتظام في الليدي بيرد،  
يدعمني الاقتناع الغائم بأن النساء البعيدات الاحتمال اللاتي ترتدنه يمكن أن  
تقبلن بمضاجعتي مع انطفاء أضواء آخر البارات عند الفجر، حين يحلّ إلحاح  
الرغبة. لكن في تلك الليلة كان هدي أكثر دقة. كنت على موعدٍ مع بروس  
مالكولم، الذي يدعونه الأمريكي في بعض الأماكن. كان مراسلاً لمجلتي فن  
أجنبيّتين، ويكرّس نفسه، كما قيل لي، للتصدير غير المشروع للوحات  
والأشياء القديمة. في تلك الفترة كانت مواردني لا تكادُ تكفيّني. ولديّ في  
منزلي بضع لوحاتٍ بالغة الكآبة، ذات موضوع ديني، وأخبرني صديقٌ مرّ من  
قبل بظروفٍ طارئةٍ مشابهةٍ بأن ذلك الأمريكي، مالكولم، يمكن أن يشتريها  
مني بثمان جيد ويدفع بالدولار. طلبته تليفونيا، فأتي إلى منزلي، وفحص  
اللوحات بعدسة، ونظّف المساحات الأغمق بقطنٍ مُبلل بشيء له رائحة  
الكحول. كان يتحدث إسبانيةً بانعطافاتٍ أمريكيةٍ لاتينية، وكان له صوت  
حادٌّ مُستميل. صوّر صوراً متقنة للوحات، واضعاً إياها مقابل نافذةٍ مفتوحة،  
وبعد بضعة أيام طلبني ليلغني أنه مستعدٌّ لدفع ألف وخمسمائة دولار  
مقابلها، سبعمائة عند التسليم، والباقي حين يكون شركاؤه أو رؤساؤه، في  
برلين، قد تسلّموها.

واعدني ليدفع لي في الليدي بيرد. على طاولةٍ منعزلةٍ أعطاني سبعمائة  
دولار من أوراق العملة المستعملة بعد أن عدّها ببطء صرّاف فيكتوري. أما

الثمانئة الأخرى فلم أرها على الإطلاق. وربما يكون قد خدعني حتى لو أوفى بوعده، لكن لم يعد ذلك يهمني منذ سنوات. الأهم أنه في تلك الليلة لم يأت وحيدا إلى الليدي بيرد. فقد أتت معه فتاة طويلة ونحيلة جدا، تنحني انحناء خفيفة عند السير وتبدي حين تبتسم أسناناً ناصعة البياض ومتباعدة بعض الشيء. كان شعرها ناعما، مقصوصاً عند ارتفاع الكتفين بالضبط، ووجنتها عريضتان وأقرب إلى الطفولية، والأنف يحدده خطٌ غير منتظم. لا أدري إن كنتُ أتذكرها كما رأيته تلك الليلة أم أن ما أراه بينما أصفها هي إحدى تلك الصور التي وجدتُها بين أوراق بيرالبو. كانا واقفين، تجاهي، وظهرهما لمنصة العرض حيث لم يكن العازفون قد ظهوروا بعد، أمسكها مالكولم، الأمريكي، من ذراعها بمظهر ملكية وفخرٍ صارم وقال لي: "أود أن أقدمك إلى زوجتي. لوكريثيا."

حين فرغ الأمريكي من عدّ النقود شربنا في صحة شيءٍ دعاه، بسعادةٍ مشكوكٍ فيها، نجاح أعمالنا. وتملكني الشعورُ المزدوج والمهين بأنني قد خُدت وبأنني أمثل في فيلمٍ لم يمنحوني فيه تعليقاتٍ كافية، لكن ذلك يحدث لي كثيرا حين أشرب بين أغراب. تحدث مالكولم وشرب كثيرا، وأدان سجائري، وقدم لي نصائح للحصول على لوحاتٍ والإقلاع عن التدخين، قال لي أن المفتاح هو التوازن الشخصي، وهو يبتسم كثيرا، ويُزجِج الدخان عن وجهه، ويكتب لي على منديلٍ ورقي ماركة حلوى طبية معينة تعوّض النيكوتين. ظل كأس لوكريثيا سليما ورأسيا أمامها. بدت لي قادرةً على البقاء مَنيعَةً ومُتطابقة مع ذاتها في أي مكانٍ تكون فيه، لكنني صحّحتُ هذا الحكم حين بدأ يرن بيانو بيرالبو. كانا يعزفان منفردين هو وييلي سوان: وأضفي غيابُ الكونترباس

والدرامز على موسيقاهما، على وحدتهما في المشهد الخانق لليدي بيرد، خاصةً صافيةً ومجرّدة، مثل خاصةٍ رسمٍ تكعيبي منقّذٍ بالقلم الرصاص فقط. في الواقع، أتذكر الآن - لكن مرت خمس سنوات - أنني لم أنتبه أن الموسيقى قد بدأت حتى أدارت لوكريثيا لنا ظهرها لتستدير تجاه عمق القاعة، حيث يعزف الرجلان بين العتمة وحلقات الدخان القزحية. كانت إيماءةً واحدة، وميضاً خفياً وموجزاً مثل ضوء برقٍ، مثل تلك النظرة التي تُباغتك في المرأة. مدفوعاً بالويسكي، بتذكّر السبعمئة دولار في جيبِي - في ذلك الزمن كانت تبدو لي أي كمية معقولةٍ من المال لا نهائيةً، فأفرض على نفسي رحلات تاكسي اعتباطية ومشروباتٍ فاخرة - حاولتُ الدخول في حديث مع لوكريثيا أمام الابتسامة الثملة والأريحية للأمريكي، لكن لحظة أن بدأت الموسيقى أصبحنا كأنتي ومالكولم غير موجودين، زمّت شفّتها، شبكت يديها الطويلتين بين ركبتيها، وأزاحت الشعر عن وجهها. قال مالكولم: "زوجتي تروّقها الموسيقى كثيراً"، وصبّ الزجاجاة في كأسِي دون ثلج. ربما لا يكون ذلك مؤكداً على الإطلاق، أننا حين سمعنا بيرالبو لم تكف لوكريثيا عن النظر إليّ، لكنني أعرف أن تبداً طراً عليها في تلك اللحظة وأنتي ومالكولم لاحظناه في نفس الوقت. كان شيءٌ يجري، لا على المنصة حيث يمد بيرالبو يديه نحو لوحة المفاتيح ويرفع بيلى سوان، الذي ما زال صامتا، الترومبيت ببطءٍ احتفالي، بل بينهما، بين لوكريثيا ومالكولم، في فضاء الطاولة حيث تبقى الكؤوس الآن منسية، في الصمت الذي حاولتُ تجاهله مثل قريبٍ صار مزجاً فجأةً.

كان الليدي بيرد يغصّ بالناس وصفقوا جميعا، وحاصر مصوّران  
راكمان بفلاشاتهما بيلي سوان. وأسند فلورو بلووم على منصة البار هيكله  
العريض الذي لحطّاب اسكندنافي - كان بدينا، أشقر، سعيدا، بعينين بالغتي  
الصغر وزرقاوين -، وكنا نحن، لوكريثيا، ومالكولم، وأنا نفسي، منشغلين  
بالموسيقى دون نجاح كبير: فنحن وحدنا لم نصفق. مسح بيلي سوان جبهته  
بمنديل وقال شيئا بالإنجليزية، مختما بقهقهة فاحشة جدّدت التصفيق على  
استحياء. بفهم قريبا جدا من الميكروفون وصوت مُتعب، ترجم بيرالبو كلمات  
الآخر وأعلن عن الأغنية التالية. عندها نظرتُ إليه أنا أيضا. كان مالكولم  
يُعيد باستغراق قراءة الإيصال الذي سلمته له لتوي ومن مبعدة الدخان  
صادفتني عينا بيرالبو، لكن لم أكن أنا من يبحث عنه. كانتا مُثَبَّتَتين على  
لوكريثيا، كأن الليدي بيرد ليس به أحدٌ سواها، كأنهما وحيدين بين حشدٍ  
إجمالي يتجسّس على إيماءاتهما. ناظرا إليها، قال بيرالبو بالإنجليزية ثم  
بالإسبانية عنوان الأغنية التي سيعزفانها. وبعد زمنٍ طويل، في مدريد،  
انتابتنى رجفةٌ لدى تعرّفي عليها: كانت في نفس تلك الأسطوانة لبيلي سوان،  
وكنت أستمع إليها بمفردي، ساكنا في مواجهة حفنةٍ من الرسائل عبرت كلّ  
اتساع أوروبا ولا مبالاة الزمن لتصل إلى يديّ غريب. **كلُّ ما تكونين من**  
**أشياء**، قال بيرالبو، وبين تلك الكلمات وبين أولى نغمات الأغنية وقع صمت  
قصير ولم يجرؤ أحدٌ على التصفيق. ليس مالكولم وحده، بل أنا أيضا انتبهتُ  
للابتسامة التي أضاءت مقلتي لوكريثيا دون أن تبلغ شفيتها.

لاحظتُ أن الأجانب ليس لديهم أدنى وازعٍ يحولُ دون أن يُلغوا دون  
إنذارٍ مسبقٍ صداقتهم أو تودّدهم الغزير. تحت نظرة بيرالبو - لكن فلورو

بلووم أيضا كان يراقبنا، من منصة البار -، قال مالكولم أنه ولوكريشيا يجب أن ينصرفا، ومد لي يده. وبجدية بالغة، دون حتى أن تنهض، ردت عليه بشيء بالإنجليزية، بضع كلمات سريعة، بالغة التهذيب والبرودة. رأيته يمسك كأسه ويضعها من جديد على الطاولة مطوقا إياها بأصابعه الصلبة والقدرة من الألوان، كما لو كان يدرس إمكانية تحطيمها. لم يفعل شيئا: وبينما تخاطبه لوكريشيا لاحظت أن رأس مالكولم مبططة قليلا، كأنه عطاءة. لم تكن مُزعجة: لم يبد أنها يمكن أن تكون مزعجة أبدا. نظرت إلى مالكولم كأن الحس المشترك كافٍ لتجريده من السلاح، وقامت العناية التي توليها لنطق كل واحدة من كلماتها بالتشديد على نعومة صوتها مخفية التهم تقريبا. وحين عاود مالكولم الكلام فعل ذلك بإسبانية مزرية. فقد أفسد الغضبُ النطق، وأعادته إلى طبيعته كأجنبي في بلد وفي لغة أعداء مُتخيلين. قال دون أن ينظر إليّ، دون أن ينظر إلى أحد سوى لوكريشيا: "أنت تعرفين لماذا أردت أن نأتي إلى هنا". لم يهم حضوري أيا منهما.

قررت أن أنشغل بالتبغ والموسيقى. وسلم مالكولم بهدنة. مخرجا من جيب بنطلونه الخلفي حزمة من أوراق النقد اقترب من منصة البار، وظل برهة يحادث فلورو بلووم، ملوحا بالنقود ببعض الخيلاء والغضب بيده اليمنى. اختلس النظر إلى لوكريشيا، التي لم تنهض، وإلى بيرالبو، الغائب على الجانب الآخر من البيانو، بعيدا جداً عنا. أحيانا كان يفتح عينيه: عندها تنتصب لوكريشيا بصورة لا تُلحظ، كأنها تنظر إليه من فوق جدار. ترك مالكولم النقود موجهة خبطة قوية لخشب البار ثم ابتعد صوب ظلمة الخلفية. عندها نهضت لوكريشيا على قدميها، أغفلت وجودي، ماحية إياي بابتسامة،

كما يتبدد الدخان، ومضت لتقول شيئاً لفلورو بلووم. قطعت ترومبيت بيلى  
سوان الهواء كخطوة تنغرس. حركت لوكريثيا يديها أمام الوجه الناعس  
لفلورو، وفي لحظة كان بين يديها ورقة وقلم جاف. وبينما تكتب بسرعة  
راقبت منصة العرض والدهليز المضاء بالأحمر حيث اختفى مالكولم. طوت  
الورقة، ومدّت جسدها لتخفيها في الجانب الآخر من منصة البار، وأعادت  
القلم إلى فلورو. حين عاد مالكولم، بعد دقيقة بالكاد، كانت لوكريثيا تشرح لي  
طريقة الوصول إلى منزلها وتدعوني للطعام معهم في أي يوم. كذبت بسكينة  
وحامس، برقة تقريبا.

لم يصافحني أيّ منهما حين انصرفا. أسدلت خلفها ستارة الليدي بيرد  
وبدا كما لو أن التصفيق الذي دوى حينها كان مكرساً لهما. لم أعاود رؤيتهما معا  
أبداً. ولم أتناقض أبدا الثمانمائة دولار نظير لوحاتي كما لم أعاود رؤية مالكولم.  
وعلى نحوٍ معين، لم أعاود كذلك رؤية لوكريثيا تلك: فالتى رأيتهما فيما بعد كانت  
أخرى، بشعرٍ أطول بكثير، أقل سكينةً وأشد شحوباً، بإرادةٍ مُهانةٍ أو  
ضائعة، بذلك التعبير المتجهّم والمباشر لمن رأى الظلمة الحقيقية ولم يبق نظيفاً  
ولا مُفلتاً من العقاب. وبعد خمسة عشر يوماً من ذلك اللقاء في الليدي بيرد،  
غادرت هي ومالكولم في سفينة شحنٍ حملتهما إلى هامبورج. وقالت لي صاحبة  
منزلهما أنهما لم يدفعاً إيجار ثلاثة أشهر. وحده سانتياجو بيرالبو عرف أنهما  
ذهبا، لكنه لم ير قارب الصيادين الذي صعدا إليه سرا في منتصف الليل  
يبتعد. أخبرته لوكريثيا أن سفينة الشحن كانت تنتظرهما في قلب البحر، ولم  
تشأله أن يقترب من الميناء ليوذعها عن بعد. قالت أنها ستكتب له،  
وأعطته ورقة فيها عنوان برلين. احتفظ بها بيرالبو في جيبه وربما، أثناء سيره

مسرعاً صوب الليدي بيرد، لأن الوقت قد تأخر جداً، تذكر ورقةً أخرى  
ورسالة أخرى كانت تنتظره ذات ليلةٍ قبل أسبوعين، حين انتهى من العزف  
مع بيلى سوان وذهب إلى منصة البار ليطلب من فلورو كأساً من الجين أو  
البوربون.

## الفصل الرابع

أيام الآحاد كنت أنهض متأخراً وأفطر على البيرة، إذ يخجلني أن أطلب قهوة بالحليب في بارٍ عند منتصف النهار. في صباحات الآحاد الشتوية ثمة في أماكن معينة بمدريد ضوء هاديء وباردٌ يُنقي كَأَمَّا في الفضاء شفافية الهواء، وضوحٌ يزيدُ من حِدَّةِ الأقواس البيضاء للمباني وترنٌ فيه الخطوات والأصوات مثلما في مدينةٍ مهجورة. كان يروق لي أن أنهض متأخراً وأقرأ الصحيفة في بارٍ نظيفٍ وخالٍ، وأشرب بالضبط كمية البيرة التي تتيح لي بلوغَ الغداء في هذه الحالة من الخمول اللذيذ الذي يجعلُ المرءَ ينظر إلى كل الأشياء كأنه يراقبُ، مزوّدا بدفتر ملاحظات، قلبَ عِشٍ نحلٍ جدرانهُ من زجاج. وحوالي الثانية والنصف كنت أطوي الصحيفة بعناية وألقيها في سلة مهملات، ويمنحني هذا شعوراً بالحفة يضيفي البهجة على طريقي نحو المطعم، وهو مطعم وجباتٍ نظيفٍ وعتيق، به نُضدُّ من الزنك وقواريرٌ نبِيذٍ مكعبة، يعرفني فيه النُدل، لكن ليس حتى النقطة التي يكتسبون فيها حميةً مزعجة جعلتني أهربُ مراتٍ أخرى من أماكن مماثلة.

في واحدٍ من تلك الآحاد، حين كنت أنتظر الغداء على طاولة في المؤخرة، وصل بيرالبو وامرأةٌ بالغة الجاذبية استغرقتُ برهةً لأتعرّف فيها على النادلة الشقراء للمتروبوليتانو. كان يحيطهما الجوّ المسترخي والبهيج لمن استيقظا سويا لتوهما. إنضمّا إلى المجموعة التي كانت تنتظر دورها قرب منصة البار، وظللتُ أراقبهما برهةً قبل أن أقرّر مناداتهما. فكرت أنني لا يهمني أن

يكون شعرُ النادلة المنكوش الأشقر مصبوغاً. كانت قد صفّفت شعرها دون أن تتوقف كثيراً أمام المرأة، ترتدي تنورة قصيرة وجوارب بلون الدخان، وكان بيرالبو، بينما يتحادثان، وهما يواصلان السجائر وأكواب البيرة، يربّت بلطفٍ على ظهرها وخصرها. لم تكن قد فرغت من تصفيف شعرها، لكنها صبغت شفيتها بلون وردي يكاد يكون بنفسجياً. تخيلتُ أعقاب سجائر ملطخة بهذا اللون في منفضة، فوق كومودينو، فكرت بسوداوية وحنقٍ أنني لم أُمْنَح أبداً امرأة كهذه. ثم نهضت لأنادي بيرالبو.

تناولت النادلة الشقراء - أسمها مونيكا - الطعامَ بسرعة ثم انصرفت على الفور، قالت أن لديها نوبة عملٍ مساءً في المتروبوليتانو. وعندما ودعيتني جعلتني أعدّها بأن نلتقي من جديد وقبّلتني قريباً من شفتي. بقينا وحدنا بيرالبو وأنا، ننظر إلى بعضنا بتوجّسٍ وخجلٍ من فوق دخان القهوة والسجائر، وكلُّ واحدٍ يعرف ما يدور بذهن الآخر، رافضين نطقَ كلماتٍ قد تعيدنا إلى نقطة الانطلاق الوحيدة، إلى ذكرى ليالٍ عديدةٍ مُكرّرةٍ وعبثيةٍ تلخّصت في ليلةٍ واحدةٍ أو اثنتين. حين بقينا وحدنا، ولو لم نتكلم، بدا كأننا لم يوجد في حياتنا سوى الليدي بيرد والليالي البعيدة لسان سباستيان، والوعي بذلك التماثل، بذلك الإصرار المتبادل على زمنٍ عارضٍ أو ضائع، يجبرنا على محادثاتٍ ملتوية، على حذر الصمت.

لم يتبق سوى قلةٍ قليلةٍ من الناس في قاعة الطعام وأسدلت بالفعل المظلة المعدنية إلى منتصفها. بهورٍ تحدثت عن مالكولم، لكن ذلك كان طريقةً لتسمية لوكريثيا، مدخلاً يُتيح لنا ألاّ نتذكرها بعدُ بصوتٍ عالٍ. بملاحظاتٍ

تهكمية قصصُ على بيرالبو حكاية اللوحات والثمانمائة دولار التي لم أرها أبدا.  
تلقت حوله كأنما ليتأكد أن مونيكا ليست معنا وانفجر ضاحكا.

- إذن أنت أيضا خدعك مالكولم العجوز.

- لم يخدعني. أقسم لك أنني تلك الليلة كنت أعرف أنه لن يدفع لي.

- لكن لم يكن يهملك. في أعماقك كان الأمر سواءً ألا يدفع لك. لكن  
ليس بالنسبة له. الأكيد أنه دفع بنقودك ثمن رحلة برلين. كنا يريدان الذهاب  
ولم يقدرنا. وسرعان ما وصل مالكولم قائلا أنه رشى قبطان سفينة الشحن  
تلك ليضعهما في عنبر السفينة. أنت دفعت ثمن تلك الرحلة.

- هل أخبرتك لوكريثيا.

عاود بيرالبو الضحك كأنه هو موضوعُ السخرية وشرب جرعةً من  
القهوة. لا، لم تخبره لوكريثيا شيئا، لم تخبره حتى النهاية، حتى اليوم الأخير. لم  
يتحدثا أبدا عن الأشياء الواقعية، كأن الصمت عما يجري في حياتهما حين لا  
يكونان معا يحميهما بصورة أفضل من الأكاذيب التي كانت تنسجها لتذهب  
للبحث عنه أو من أبواب الفنادق المغلقة حيث يمضيان ليلتهما لنصف ساعة،  
لأنها لم يكن يتوفر لها الوقت دائما للذهاب إلى شقة بيرالبو، وكانت الدقائق  
المستقبلية تتحلل إلى لاشيء بعد العناق الأول. كانت تنظر إلى ساعتها،  
وترتدي ملابسها، وتخفي الآثار الوردية التي تخلّفت على عنقها ببودرة وجه  
اشتراها بيرالبو مرةً بإرشادها من دكان نظروا إليه فيه بحذر. دون أن يرضى  
بوداعها في المصعد، نزل معها إلى الشارع وراها تقول له وداعا من النافذة  
الخلفية لسيارة تاكسي.

فكّر في مالكولم، الذي سيكون وحيداً، منتظراً، مستعداً للتفتيش في ثيابها أو في شعرها عن رائحة جسدٍ آخر. كان يعود إلى منزله أو إلى غرفة الفندق ويستلقي على الفراش ميتاً من الغيرة والوحدة. يتجول بين الأشياء مستغرقاً في المهمة المستحيلة لتعجيل الزمن، لملء فراغ كل ساعة من الساعات وربما من الأيام الكاملة المتبقية قبل أن يرى لوكريثيا من جديد. لم يكن يرى أمام عينيه سوى الساعات المتوقفة وشيئاً داكناً وعميقاً كأنه ورم، ظلاً لا يخفّفه أي ضوءٍ ولا أية هدنة، الحياة التي تحياها هي في تلك اللحظات ذاتها، الحياة مع مالكولم، في منزل مالكولم، حيث دخل هو، بيرالبو، سراً ذات مرة ليحصل على صورٍ لا للرقّة القصيرة والجبانة التي نالها هناك من لوكريثيا - تملكها الخوف من أن يعود مالكولم، رغم كونه خارج المدينة، وكانت كل خشخشةٍ يسمعها هي خشخشة مفتاحه في القفل -، بل لحياتها الأخرى، المستقرة من لحظتها في وعي بيرالبو بدقة الأشياء الواقعية التي كأنها دقة أدواتٍ طبية. ربما لم يكن منزلٌ متخيّلٌ فحسب، لم يزره مطلقاً، ليغذي أمله بكل تلك الكفاءة مثل الذكرى الدقيقة التي يملكها الآن عنه. فرشاة وسكين حلاقة مالكولم على رفٍ زجاجي تحت مرآة الحمام، رداء مالكولم المنزلي، من نسيجٍ مسامي وأزرق، معلقٌ خلف باب غرفة النوم، خفّاً مالكولم من اللباد تحت السرير، صورته على الكومودينو، بجانب المنبّه الذي لا بد أنه يسمعه كل صباح في نفس الوقت مع لوكريثيا. . . رائحة كولونيا مالكولم المبعثرة في الغرفة، الواضحة في منشفاته، البؤس الخفيف للحممية الذكورية التي كانت تلفظُ بيرالبو باعتباره مُغتصباً. استوديو مالكولم، الشديد القدرة، بالأكواب المليئة بأقلام الرصاص وقوارير الترتينا،

بمنسوخات اللوحات المعلقة على الحائط منذ زمن طويل. فجأة، وجدت بيرالبو، الذي كان يحدثني مضطجعا في كرسيه، مبتسما بينما يُلقى رماد سيجارته في فنجان القهوة، ينتصب ويحدّق فيّ، لأنه عثر في ذاكرته للتو على شيء لم يتذكره حتى الآن، مثل تلك الأشياء التي نعثُر عليها أحيانا حيث لا يجب أن تكون وتجعلنا ننظرُ حقاً إلى ما لم نكن نراه.

- رأيتُ تلك اللوحات التي بعثها له - أخبرني؛ الآن أيضا كان يرى اندهاشه منها، وانتابه الخوف من فقدان دقة الذكرى -. في واحدةٍ منها كان ثمة نوعٌ من سيدةٍ مجازية، امرأة ذات عينين معصوبتين تحمل شيئا في يدها..

- كأس. كأس مع صليب.

- ... كان شعرها أسود وطويل، ووجهها مستدير، شاحق البياض، ببعض اللون في الوجنتين.

وددتُ لو سألتُه إن كان يعرف المزيد عن مصير تلك اللوحات، لكن لم يعد يهتم ما يمكن أن أقوله. كان يرى بوضوح شيئا كانت ذاكرته قد أنكرته حتى تلك اللحظة، نبعا للزمن في حالة خالصة، فرؤية لوحةٍ لم يكن قد بذل جهداً أبداً في تذكرها ربما أعادت إليه بضع ساعاتٍ لم تُمس من ماضيه مع لوكريثيا، وبالتدرّج، في أعشار الثانية، مثلما ينتشر ضوءٌ قد انصب على وجه واحدٍ حتى يضيء غرفةً بكاملها، اكتشفت عيناه الأشياء التي رآها ذلك المساء حول اللوحة، قرب لوكريثيا، خطر أن يعود مالكولم، الضوء الخانق

لنهايات سبتمبر الذي كان حينها في كل الغرف التي التقيا فيها دون أن يعرفا  
أنهما كانا يستعجلان عشيّة غيابٍ دام ثلاث سنوات.

- كان مالكولم يتجسّس علينا - قال بيرالبو - . كان يتجسّس عليّ.  
رأيتّه مرّةً يدور حول مدخل منزلي، مثل شرطيّ بليد، كما تعرف، واقفاً  
بصحيفةٍ على الناصية، يتناول كأساً في البار المقابل. هؤلاء الأجانب يؤمنون  
كثيراً بالأفلام. وفي بعض الليالي كان يذهب وحيداً إلى الليدي بيرد ويظل  
ينظر إليّ بينما أعزف، جالسا في عمق منصة البار، متظاهرا بالاهتمام الشديد  
بالموسيقى أو بالحديث مع فلورو بلووم. كان الأمر سواءً بالنسبة لي، بل  
إنّني ضحكت قليلاً، لكن ذات ليلة نظر إليّ فلورو بجديّة بالغة وقال،  
احترس، ذلك الشخص يحمل مسدساً.

- هل هدّدتك؟

- هدّدت لوكريثيا، بطريقةٍ ملتبسة. أحيانا كان يمر ببعض المخاطر في  
أعماله التجارية. أفترض أنهما ما كانا ليذهبا بتلك السرعة ما لم يكن مالكولم  
خائفاً من شيء. كانت له معاملاتٌ مع أناسٍ خطرين، ولم يكن بالشجاعة  
التي يتظاهر بها. بعد قليلٍ من شراء لوحاتك قام برحلةٍ إلى باريس. كان ذلك  
وقت أن كنتُ في منزله. وعندما عاد أخبر لوكريثيا بأن أناساً كثيرين يرغبون  
في خداعه، وأخرج المسدس، وتركه على المائدة، بينما يتناول عشاءه، ثم  
تظاهر بأنه ينظّفه. قال أنه جاهزٌ بخزانةٍ كاملة لمن يريد خداعه.

- تبجّج - قلت - تبجح زوجٍ مخدوع.

- يمكن أن أقسم أنه لم يَقم بتلك الرحلة إلى باريس. كان قد أبلغ  
لوكريثيا بأنه سيرى لا أدري أي لوحاتٍ في متحف، بعض لوحات سيزان،  
أتذكر ذلك. كَذَبَ عليها حتى يتجسَّس علينا. أنا متأكد أنه رآنا ندخل منزله  
وظل منتظرا على مقربة. والأرجح أنه تملكه إغواء أن يصعد ويباعتنا ولم يجرؤ.  
حين قال لي بيرالبو ذلك لاحظتُ ارتجافة. كنا نفرغ من تناول القهوة  
وكان النُدل قد رتبوا الموائد للعشاء وينظرون إلينا دون إخفاءٍ نفاذٍ صبرهم،  
كانت الخامسة مساءً وفي الراديو يتحدث شخصٌ بحماسٍ عن مباراة كرة قدم،  
لكنني على الفور رأيتُ، من أعلى، كما يُشاهد في الأفلام، شارعا عادياً في  
سان سباستيان فيه رجلٌ، واقفٌ على الرصيف، يرفع عينيه صوب نافذةٍ،  
ويده في جيوبه، بمسدس، وبصحيفةٍ تحت إبطه، يطاء الأسفلت المبتلّ بقوةٍ  
حتى يفكّ تميل قدميه. ثم انتبهتُ إلى أن شيئاً كهذا هو ما يخشى بيرالبو أن  
يراه حين يُطلُّ من نافذةٍ فندقه في مدريد. رجلاً ينتظر ويتظاهر، ليس  
كثيراً، بل بما يكفي ليعرف من يراه أنه هناك وأنه لن ينصرف.

نهضنا، ودفع بيرالبو الحساب، وبينما يرفض نقودي قال أنه لم يعد  
موسيقياً فقيراً. خرجنا إلى الشارع ورغم أن الشمس مازالت تسطعُ على  
الأدوار العليا للمباني، على النوافذ الواسعة وعلى ذلك البرج الشبيه بفنارٍ  
لفندق بيكتوريا، كانت تخيم ظلمةٌ نحاسية عند نهايات الشوارع وبردٌ ليليٌّ في  
ردهات المنازل. شعرت بالأسى الشتوي القديم لأيام الآحاد في المساء  
وامتننتُ لبيرالبو أنه اقترح على الفور مكاناً محدداً للكأس القادمة، لا في  
المتروبوليتانو، بل في أحد تلك البارات المحايدة والحاوية ذات المنصة المُجلدة.  
في أمسياتٍ كهذه ما من صحبةٍ يمكنها أن تخفّف الشجن، ذاك الوميض

لمصاييح السيارات على الأسفلت، للإعلانات المضيئة في أعالي ظلمة حلول الليل، الذي مازال له في البعيد حوافّ محمّرة، لكنني أفصل أن يكون معي أحد وأن يُعفيني ذلك الحضور من عبء اختيار الرجوع، العودة إلى منزلي سائراً وحدي عبر أرصفة مدريد الواسعة.

- رحلا على عجلٍ كأن أحداً يتعقبهما - قال بيرالبو في ختام بارين وكووس جين لا مجدية؛ قاله كأن تفكيره قد توقّف حين فرغنا من الغداء ولم يواصل الحديث عن لوكريثيا ومالكولم - لأنهما حتى ذلك الحين كانا يفكران في الإقامة بشكلٍ نهائيّ في سان سباستيان. أراد مالكولم إقامة قاعة عروض فنية، بل وكان على وشك استئجار محل. لكنه عاد من باريس أو من حيثما كان هذين اليومين وقال للوكريثيا أن عليهما الذهاب إلى برلين.

- ما أراده هو أن يُبعدها عنك - قلت؛ منحني الكحول وضوحاً سريعاً لأخمن حيوات الآخرين.

ابتسم بيرالبو ناظراً بانتباهٍ شديد إلى ارتفاع الجين في كأسه. وقبل أن يجيئني أنقصه سنتيمتراً تقريباً.

- مر زمنٌ كان يُطريني فيه أن أفكر في ذلك، لكنني لم أعد متأكداً. أعتقد أن مالكولم، في أعماقه، لم يكن يهيمه أن تضاجعني لوكريثيا بين الحين والحين.

- أنت لا تعرف كيف نظر إليك تلك الليلة في الليدي بيرد. كانت عيناه زرقاوين ومستديرتين، أتذكر؟

- ... لم يكن يهتمّ لأنه يعرف أن لوكرثيا إمّا أن تكون له أو لا تكون لأحدٍ. كان بإمكانها أن تبقى معي، لكنها مضت معه.

- كانت تخاف منه. رأيته أنا تلك الليلة. وأنت قلت لي أنه هدها

بمسدس.

- مسدس تسعة ميللي طويل. لكنها أرادت أن ترحل. انتهزت

ببساطة الفرصة التي قدّمها لها مالكولم. قارب صيادين أو مهربين، وسفينة شحن مُسجّلة في هامبورج، على الأرجح أن لها اسم امرأة، برتا أو لوتّه أو ما شابه. لقد قرأت لوكرثيا كتباً أكثر مما يجب.

- كانت واقعةً في غرامك. أنا أيضاً رأيْتُ ذلك. كان يمكن أن يلاحظ

ذلك كلُّ من ينظر إليها تلك الليلة، حتى فلورو بلووم. تركت لك قصاصة، أليس كذلك؟ رأيته تكتبها.

كنتُ أجهّد عبثاً لأظهر لبيرابو أن لوكرثيا كانت واقعةً في

غرامه. بلا مبالاة، بامتنانٍ بعيد، واصل الشراب وتركني أتكلّم. كان ينفثُ

الدخان دون أن ينزع السيجارة من شفّتيه، ويحجبُ ذقنه وفمه باليد التي يستند عليها، وظللتُ على الدوام أجهلُ ما يكمنُ خلفَ وميض عينيه المنتبه.

ربما ظلّ لا يرى الألم ولا الكلمات الراسخة، بل الأشياء المبتذلة التي جدّلت،

دون أن يدري، حياته، تلك القصاصة، مثلاً، التي كانت تتضمن ساعة

ومكانَ موعدٍ، والتي ظلّ محتفظاً بها بعد ذلك بزمّنٍ طويل، حين بدّت له

كبقيّة من حياةٍ آخرٍ، مثلها مثل الرسائل التي إئتمني عليها والتي لم أقرأها ولن

أقرأها أبداً. أظهر إيماءات نفاذٍ صبرٍ ضئيلة، نظر إلى ساعته، قال أن الوقت

قصيرٌ جدا قبل أن يضطر للذهاب إلى المتروبوليتانو. تذكرت السيقانَ النحيلة للنادلة الشقراء، وابتسامتها، وعطرها. كنتُ أنا وحدي من يُصرُّ على مواصلة طرح الأسئلة. رأيت نظرةً مالكولم في الليدي بيرد ونسبتها إلى الرجل الذي ينتظرُ شيئاً ويسيرُ ببطءٍ أسفل نافذة، ويتوقف أحيانا تحت المطر الخفيف لسان سباستيان.

في تلك الأثناء، كان بيرالبو في منزلها، فهناك واعدته لوكريثيا، وربما كانت هي ذاتها من اقترحت على مالكولم قبلها بيومين أن يكون موعده معي في الليدي بيرد... إذا كان يراقبها باستمرار، بأي طريقةٍ أخرى كان يمكن للوكريثيا أن تترك لبيرالبو تلك القصاصة؟ انتبهتُ إلى أن تعليلاقي لا أساس لها: إذا كان مالكولم يشكُّ بهذا القدر، إذا كان يلتقط أدنى تغيرٍ في نظرة لوكريثيا وكان واثقا أنه فور أن تتوقف مراقبته ستذهبُ هي للقاء بيرالبو، لماذا لم يأخذها معه حين رحل إلى باريس؟

### الخميس الساعة السادسة في منزلي اطلبني قبلها ولا تتكلم حتى

تسمع صوتي. هذا ما قالته القصاصة، وكان التوقيع، مثلما في الرسائل، حرفا واحدا: ل. أخبرني بيرالبو أنها كتبتها بسرعة بالغة حتى أنها نسيت الفاصلات، لكن حروفها كانت مكتملةً مثلما في كراسةٍ لتعليم فن الخط. حروفٌ مائلة، دقيقة، ودودةٌ تقريبا، كلَفَتِ تربيةً حسنة، مثلها مثل الابتسامة التي منحني إياها لوكريثيا حين عرّفنا مالكولم. ربما ابتسمت له بهذه الطريقة حين ذهبَت معه إلى المحطة وودّعته على الرصيف. بعدها استدارت، وركبت تاكسي ووصلت إلى منزلها في الوقت المناسب بالضبط لاستقبال بيرالبو. بنفس

الابتسامة، فكرتُ، وانتابني الندمُ على الفور: كان بيرالبو وليس أنا من يجب أن يخطر له ذلك الخاطر.

- هل رأيته يرحل؟ - سألتُ - هل أنت متأكّد أنها انتظرت حتى انطلق القطار؟

- وكيف تريدني أن أتذكر. أفترض أن نعم، أنه أطل من النافذة ليقول وداعا وما إلى ذلك. لكن كان يمكنه الهبوط في المحطة التالية، على الحدود في إيرون.

- متى عاد؟

- لا أدري. لابد أنه مكث يومين أو ثلاثة. لكنني ظللتُ قرابة أسبوعين لا أعرف شيئا عن لوكريثيا. طلبت من فلورو بلووم أن يطلب منزلها فلم يردّ أحد، ولم تُعاود ترك قصاصاتٍ لي في الليدي بيرد. ذات ليلة تجاسرت على مكالمتها فرفع أحدهم السماعة، لا أدري إن كان مالكولم أم هي نفسها، ثم وضع السماعة دون أن ينبس. أخذت أقومُ بجولاتٍ في شارعها وأراقب مدخل بيتها من المقهى المقابل، لكنني لم أرهما يخرجان أبدا، ولا حتى بالليل أستطعتُ معرفة إن كانا بالمنزل، لأن شيش النوافذ مغلق.

- أنا أيضا طلبتُ مالكولم لأطالبة بالثمانمائة دولار.

- وتحدثت معه؟

- أبداً، بالطبع. هل كانا مختبئين؟

- أفترض أن مالكولم كان يُعدُّ للهروب.

- ألم تشرح لك لوكريشيا شيئاً؟

- قالت لي فقط أنها سيرحلان. لم يتسع الوقت لتقول لي أكثر. كنتُ في الليدي بيرد، والوقت ليل، لكن فلورو لم يكن قد فتح بعد. كنت أتدرب على شيءٍ على البيانو وكان هو يرتب الطاولات، عندما رن جرس التليفون. توقفتُ عن العزف، ومع كل رنة جرس يتوقف قلبي. كنت متأكداً هذه المرة أنها لوكريشيا وخشيت ألا يواصل التليفون الرنين. استغرق فلورو أبداً في الرد عليه، أنت تعرف البطء الذي يسير به. حين أمسك به كنت واقفاً في وسط البار، ولم أتجاسر حتى على الاقتراب. قال فلورو شيئاً، ونظر إليّ، هازأً رأسه كثيراً، قال نعم عدة مراتٍ ووضع السماعه. سألته من كان يطلب. فردّ عليّ، ومن سيكون، لوكريشيا. تنتظرك خلال خمس عشرة دقيقة عند بواكي ميدان كونستيتوشيون<sup>(1)</sup>.

كانت إحدى ليالي أوائل أكتوبر، إحدى تلك الليالي السابقة لأوانها التي تُباغت المرء عند الخروج إلى الشارع مثل الاستيقاظ في قطارٍ حملنا إلى بلدٍ أجنبي قد حلّ فيه الشتاء. كان الوقت مازال مبكراً، كان بيرالبو قد وصل إلى الليدي بيرد حين كان لا يزال في الهواء ضوءٌ أصفرٌ فاتر، لكنه حين خرج كان الليل قد خيم والمطر يضرب بنفس جنون البحر على المنحدرات. أخذ يجري بينما يبحث عن تاكسي، لأن الليدي بيرد كان بعيداً عن وسط المدينة، تقريبا عند نهاية الخليج، وحين توقف واحدٌ في النهاية كان منقوعاً في الماء ولم يُفلح في قول أين يُريد الذهاب. نظر في الظلام إلى الساعة المضاءة في لوحة القيادة، لكن لما كان لا يعرف في أي ساعة خرج من الليدي بيرد فإنه تاه في الزمن ولم يعتقد أنه سيصل أبداً إلى ميدان

كونستيتوشيون. وإذا وصل، إذا وجد التاكسي الطريق في فوضى الشوارع والسيارات، على الجانب الآخر من ستار المطر الذي يُعاودُ الانغلاق فور أن تمسحه أذرعُ ماسحة الزجاج، ستكون لوكريثيا قد انصرفت، قبل خمس دقائق أو خمس ساعات، لأنه لم يعد قادرا على حساب اتجاه الزمن.

لم يرها حين هبطَ من التاكسي. لم تكن مصايحُ النواصي قادرةً على إضاءة داخل البواكي المظلم والرطب. سمع التاكسي يتعَدُّ وظل ساكنا بينما لا تُفلح الدهشة في إخمادِ تعجّله. للحظةٍ كان كأنه لا يتذكر لماذا ذهب إلى ذلك الميدان المهجور والشديد الظلام.

- عندئذ رأيتها - قال بيرالبو - دون أي اندهاش، مثلما أغمضُ عيني الآن وأفتحهما فأراك. كانت مستندةً على الجدار، بجوار سلم المكتبة؛ في الظلام تقريبا، لكن تظهر بلوزتها البيضاء من بعيد. كانت بلوزة صيفية، لكن ترتدي فوقها سترةً زرقاء داكنة. من الطريقة التي ابتسمت لي بها تنبّهتُ إلى أننا لن نُقبَل بعضنا. قالت لي: "أرأيت كيف تمطر؟" فأجبتها أنها تمطر هكذا دائما في الأفلام حين يُودّع الناس بعضهم.

- هكذا كنتم تتحدثون؟ - قلتُ، لكن لم يبد أن بيرالبو يفهم استغرابي - بعد أسبوعين لم تريا بعضكما كان ذلك كل ما عليكما قوله؟

- هي أيضا كان شعرها مُبتلاً، لكن هذه المرة لم تلتصع عيناها. كانت تحمل كيسا كبيرا من البلاستيك، لأنها قالت لمالكولم أن عليها أن تُحضر فستانا، بحيث لم يتبق لها سوى بضع دقائق لتكون في صحتي. سألتني لماذا

عرفتُ أن هذا اللقاء هو الأخير. فقلت، "حين تمطر كلُّ هذا المطر فإن شخصاً سيرحل إلى الأبد".

نظرت لوكريثيا إلى ساعتها - كانت تلك أكثر إيماءةٍ يخشاها بيرالبو منذ أن تعارفا - وقالت أن أمامها عشر دقائق لتناول قهوة. دخلا البار الوحيد المفتوح في البواكي، وهو مكانٌ قدر يفوح برائحة السمك بدا لبيرالبو إهانةً لا تُغتفر تفوق سرعة الزمن وغرابة لوكريثيا. ثمة مناسباتٌ يستغرق فيها المرء جزءاً من الثانية ليقبل الغياب المباغت لكل ما كان ينتهي إليه: ومثلما أن الضوء أسرع من الصوت، فإن الوعي أسرع من الألم، ويتكشف لنا كبرقٍ يحدث في صمتٍ. لهذا لم يشعر بيرالبو بشيء تلك الليلة وهو يتأمل لوكريثيا كما لم يفهم جيداً ما تعنيه كلماتها ولا تعبير وجهها. وأتى الألم الحقيقي بعد ذلك بساعاتٍ، حين أراد أن يتذكر واحدةً فواحدةً الكلمات التي قالها كلاهما فلم يتمكن من ذلك. عرف أن الغياب هو ذلك الشعور المحايد بالخواء.

- لكن لم تقل لك لماذا يرحلان هكذا؟ لم في سفينة شحن مهربين وليس في طائرة، أو قطار؟

هز بيرالبو كتفيه: لا، لم يخطر له أن يوجه لها تلك الأسئلة. عارفاً بم استجيبه لوكريثيا طلب منها أن تبقى، طلب ذلك دون استعطافٍ، مرةً واحدة. "لا بد أن مالكولم سيقتلني"، قالت لوكريثيا، "أنت تعرف كيف هو. بالأمس عاد ليُريني ذلك المسدس الألماني الذي يملكه". لكنها قالت ذلك بطريقةٍ لم يكن لأحدٍ أن يتبين فيها الخوف، كأن إمكانية أن يقتلها مالكولم ليست مخيفةً أكثر من الوصول متأخرةً إلى موعد. هكذا هي لوكريثيا، قال بيرالبو، بسكينةٍ من فهم في النهاية: فجأةً خمدت فيها كل علامةٍ على الحماس

وأخذت تنظر كأنما لا يهتّمها أن تفقد كلّ ما امتلكت أو رغبت. حدّد بيرالبو: كأتني لم أكن لأهتّمها مطلقاً.

لم تذق قهوتها، نهضا كلاهما في وقت واحد وظلا ساكنين، تفصلهما الطاولة، يفصلهما ضجيج البار، متباعدين بالفعل في الموضع المستقبلي الذي ستحتجز فيه المسافة كلّ واحدٍ منهما. نظرت لوكريثيا إلى ساعتها وابتسمت قبل أن تقول أنها سترحل. للحظةٍ بدت ابتسامتها مشابهةً لابتسامة ما قبل خمسة عشر يوماً، حين توادعا قبل الفجر بجوار بابٍ مكتوب عليه بحروف مذهبة اسم مالكولم. ظل بيرالبو واقفاً، لكن لوكريثيا كانت قد اختفت في المنطقة المظلمة من البواكي. وعلى ظهر بطاقةٍ لمالكولم كانت قد كتبت بالقلم الرصاص عنواناً في برلين.

هوامش:

(1) Soportales de la constitución: [بواكي ميدان الدستور]: الميدان في قلب  
الحي العتيق من سان سباستيان. ملمحه الرئيسي هو البواكي، وكانت تقام فيه  
الاحتفالات والمناسبات المهمة للمدينة وبه المكتبة البلدية.

## الفصل الخامس

تلك الأغنية، **لشبونة**. أخذت أستمع إليها فأصبحت من جديد في سان سباستيان بتلك الطريقة التي يعود بها المرء إلى المدن في الأحلام. أي مدينة تُنسى أسرع مما يُنسى وجهه: يبقى ندمٌ أو خواءٌ حيث كانت الذكرى من قبل، ومثل وجهه، لا تبقى المدينة سليمةً لم تُمسَّ إلا حيث لم يستطع الوعي استهلاكها. يحلم المرء بها، لكنه لا يستحق دائماً ذكرى ما حلم به أثناء نومه، وعلى أية حال فإنه ينساه بعد بضع ساعات، بل أسوأ من ذلك، خلال دقائق قليلة، عند الانحناء فوق ماء الحمام البارد أو تذوق القهوة. ألم النسيان غير المكتمل ذاك بدا سانتياجو بيرالبو مُحصَّناً ضده. كان يقول أنه لا يتذكر سان سباستيان مطلقاً: أنه يطمح أن يكون مثل أبطال الأفلام أولاء الذين تبدأ سيرتهم الذاتية بالتزامن مع الحدث ولا يملكون ماضياً بل صفاتٍ طاغية. ليلة الأحد تلك التي حكى لي فيها رحيل لوكرثيا ومالكولم - كنا قد عاودنا الإفراط في الشراب ووصل هو متأخراً وثملاً إلى المتروبوليتانو - وحين توادعنا قال لي: "تخيل أننا رأينا بعضنا لأول مرة هنا. لم تر شخصاً تعرفه، بل رجلاً يعزف البيانو". وأضاف مشيراً إلى الملصق الذي يعلن أداء فرقته: "لا تنس ذلك. أنا الآن جياكومو دولفين".

لكن كان كذباً توكيده ذاك بأن الموسيقى بريئة من الماضي، لأن أغنيته، **لشبونة**، لم تكن أكثر من إحساسٍ خالصٍ بالزمن، شفافٍ ولم يُمسَّ، كأنه محفوظٌ في قنينة زجاجية مُصمتة. كانت لشبونة وكذلك سان سباستيان

بنفس الطريقة التي يحتوي بها وجهٌ في حلمٍ دون غرابةٍ هويةً رجلين. في البداية يُسمعُ ما يشبه خشخشة إبرةٍ تدور في فاصل الصمت من أسطوانة، ثم أصبح ذلك الصوتُ صوتَ فرشاةٍ تحفّ دائرياً بالأسطح المعدنية المستوية للدرامز ونبضاً شبيهاً بنبض قلبٍ قريب. بعد ذلك فقط ترسم الترومبيت نغماً حذراً. يعزف بيلى سوان كأنه يخشى أن يوقظ احداً، وبعد دقيقةٍ يبدأ في الرنين بيانو بيرالبو، الذي يشير على نحوٍ مشكوكٍ فيه إلى طريقٍ ويبدو أنه يفقده في الظلمة، ليعود بعدها، في اكتمال الموسيقى، ليكشف من جديد الشكل الكامل للحن، كأنه بعد أن يتوه المرءُ في السحاب، يُطلقه صوب قمة تلةٍ يمكنه منها رؤية مدينةٍ ينم عنها الضوء.

لم أزر لشبونة أبداً، ولم أذهب إلى سان سباستيان منذ أعوام. ولدي ذكرى لواجماتٍ صلصالية بشرفاتٍ من أحجارٍ سودها المطر، لمشيٍّ بحري يُطوّقه منحدرٌ مُشجر، لطريقٍ يحاكي أحد بولفارات باريس وله صفان من أشجار التمر الهندي، العارية في الشتاء، والمتوّجة في مايو بعناقيدٍ غريبة بلونٍ ورديٍ شاحبٍ شديد الشبه بزبد الأمواج في أصائل الصيف. أتذكر الفيللات المهجورة في مواجهة البحر، الجزيرة والفنار وسط الخليج والأضواء المائلة التي تحيط به ليلاً وتنعكس في الماء بخفقٍ مثل خفق نجومٍ تحت الماء. وبعيدا، في العمق، كانت اللافتة الزرقاء والوردية لليدي بيرد، بكتابتها بضوء النيون، والقوارب الشراعية الراسية التي تحمل في مقدمتها أسماء نساءٍ أو بلدان، وزوارق الصيد التي تنبعث منها رائحةٌ قوية للخشب المبتل والسولار والطحالب.

إلى أحدها صعد مالكولم ولوكريشيا، ربما وهما يخشيان فقدان توازنهما بينما يرفعان حقائبهما فوق طقطقة وتأرجح المعبر. حقائب ثقيلة جداً، ممتلئة بلوحاتٍ قديمة، وكتب، وبكل الأشياء التي لا يستقرُّ المرءُ على تركها وراءه حين يكون قد قرر الرحيل إلى الأبد. وكلما أوغل الزورقُ في الظلمة يسمعان بارتياح الطنين البطيء للمحرك في الماء. لا بد أنهما استدارا لينظرا من بعيدٍ إلى فنار الجزيرة، إلى المنظر الجانبي الأخير للمدينة المضاءة، الغارقة ببطء على الجانب الآخر من البحر. وأفترض أن بيرالبو في تلك الساعة ذاتها كان يحتسي بوربون دون ثلج على منصة بار الليدي بيرد، متقبلاً التضامن الذكوري الحزين لفلورو بلووم. تساءلتُ إن كانت لوكريشيا قد نجحت في أن تميّز على البعد أضواء الليدي بيرد، إن كانت قد حاولت.

لا بد أنها بحثت عنها دون شك حين عادت إلى المدينة في ختام ثلاث سنوات وامتنت لكونها لا تزال مضاءة، لكنها لم تشأ الدخول، إذ لا تروقها زيارة الأماكن التي عاشت فيها ولا رؤية الأصدقاء القدامى، ولا حتى فلورو، الشريك الهاديء في زمنٍ آخر في مواعيدها واختلاقتها للأعداء، ذلك الرسول الساكن.

لم يعد بيرالبو يعتقد أنها ستعود أبداً. فغير حياته في تلك السنوات الثلاث. سَم من عارِ العزف على الأرغن الكهربائي في كافيه - بيانو فيينا وفي احتفالات الأحياء المبتدلة. حصل على عقدٍ للعمل كمعلم موسيقى في مدرسة نسائية وكاثوليكية، لكنه ظل يعزف بعض الليالي في الليدي بيرد، رغم أن فلورو بلووم، المستسلم بوداعةٍ للإفلاس بسبب عدم ولاء السكارى الليليين، لم يكن قادراً بالكاد حتى على أن يدفع له كؤوس البوربون. كان

ينهض في الثامنة، ويشرح الصولفيج، ويتحدث عن ليست وشوبان وسوناتا  
**ضوء القمر** في قاعات درس غائمة مليئة بمراهقات بزي مدرسي أزرق ويعيش  
وحيدا في مربع سكني، على ضفة النهر، بعيداً جداً عن البحر. كان يسافر  
إلى مركز المدينة في قطار ضواحي يسمّونه التويو وينتظر رسائل من لوكريشيا.  
في تلك الفترة لم أكن أراه تقريبا. سمعت أنه قد ترك الموسيقى، أنه سيرحل  
من سان سباستيان، أنه قد امتنع عن المسكرات، أنه صار مدمنا على  
الخمر، أن بيلى سوان قد دعاه ليعزف معه في نوادٍ مختلفة في كوبنهاجن. وذات  
مرة صادفته ذاهبا إلى عمله: شعره رطب ومُصفف بعجلةٍ بالغة، بجوٍ من  
الوداعة أو الغياب، تتمّ عنه طريقة ارتدائه لربطة العنق أو حمله للحقيبة  
المتعلّقة التي يحفظ فيها الامتحانات التي ربما لم يكن يصححها. كان له مظهر  
هاربٍ حديث العهد من حياةٍ سيئة ويمشي دائما وعيناه مثبتتان في الأرض،  
بسرعة بالغة، كأنه سيصل متأخرا، كأنه يهرب دون اقتناعٍ من استيقاظٍ  
مبتذل. وذات ليلة التقيته في أحد بارات الحي العتيق، في ميدان  
كونستيتوشيون. كان ثملاً بعض الشيء، ودعاني إلى كأس، أخبرني أنه يحتفل  
بعيد ميلاده الحادي والثلاثين، وأنه بدءاً من سنٍ معينة يجب الاحتفال  
بأعياد الميلاد على انفراد. وقرب منتصف الليل دفع الحساب وانصرف دون  
رسمياتٍ كثيرة، موضحاً أنه سيستيقظ مبكرا، دافئاً رأسه في ياقة المعطف بينما  
يداه تغوصان في جيبه ويتمسك بالحقيبة تحت ذراعه. كانت له عندئذ طريقة  
حاسمة وغريبة للانصراف: إذ بمجرد أن يقول وداعا ينغمس على الفور في  
الوحدة.

كان يكتبُ رسائل وينتظرها. أخذ يُشيّد حياةً سريةً تماماً لا يتدخل فيها لا الواقع ولا مرور الزمن. في كل الأصائل، عند الساعة الخامسة، حين ينهي دروسه، كان يصعد إلى التوبو ويعود إلى منزله، بربطة العنق الداكنة محكمة حول عنقه والحقيبة الأشبه بحقيبة محصل تحت ذراعه، يقرأ الصحيفة خلال الرحلة القصيرة وينظر إلى المباني السكنية العالية والدور الريفية المتناثرة بين التلال. ثم يغلق الباب بالمفتاح ويضع أسطوانات. كان قد اشترى بالتقسيط بيانو رأسيا، لكنه لا يعزف عليه كثيرا. كان يفضل أن يتمدد ويدخن وهو يستمع إلى الموسيقى. لن يعود في حياته أبدا إلى الاستماع إلى كل تلك الأسطوانات وكتابة كل تلك الرسائل. كان ينزعُ المفتاح من البوابة، وقبلها، من الشارع، ينظر إلى صندوق البريد الذي ربما يحتوي على رسالة ويرتجف وهو يفتحه. خلال العامين الأولين كانت رسائل لوكريثيا تصل إليه عادة كل أسبوعين أو ثلاثة، لكن لم يكن يمرّ مساءً لا يتوقع فيه رسالة حين يفتح الصندوق، ومنذ أن يستيقظ يحيا من أجل الوصول إلى تلك اللحظة: كان في العادة يحصد رسائل من البنك، ومواعيد للمدرسة، وأوراق دعاية يلقيها بكراهية، ببعض الحنق. تلقائيا كان أي ظرفٍ تحمل حوافه ألوان البريد الجوي يبعث فيه السعادة.

لكن الصمت النهائي تأخر في الوصول عامين، وما كان بمقدوره القول بأنه لم يكن يتوقعه. في ختام ستة أشهر لم يمر فيها يومٌ واحد دون أن ينتظر، وصلته الرسالة الأخيرة من لوكريثيا. لم تأت بالبريد: بل أحضرها يبلي سوان لبيربولو بعد عدة أشهر من كتابتها.

لم أنس عودة بيلي سوان تلك إلى المدينة. أفترض أن ثمة مدناً يتم الرجوعُ إليها دوماً كما أن ثمة مدناً أخرى ينتهي فيها كل شيء، وأن سان سباستيان من تلك الأولى، رغم أن المرء حين يرى مصب النهر من الجسر الأخير، في ليالي الشتاء، حين ينظرُ إلى المياه التي تتراجع وإلى بريق الأمواج البيضاء التي تتقدم من الظلمة مثل أعراف الخيل، يتولد لديه الشعور بأنه في نهاية العالم. عند طرفي ذلك الجسر، الذي يُسمّونه كورسال، كأنه في جرف في جنوب إفريقيا، ثمة مصباحان مرتفعان بضوءٍ أصفر يبدوان كأنهما فانارين لشاطيءٍ مستحيل، نذيري حوادث غرق. لكنني أعرف أن تلك مدينة رجوعٍ وأنتي سأثبتُ يوماً ما، أن أي موقعٍ آخر، مدريد، هو مكانٌ عبورٍ.

عاد بيلي سوان من أمريكا، في الوقت المناسب، فيما يبدو، لتجنّب إدانةٍ بحيازة مخدرات، وربما هرباً في المقام الأول من التدهور البطيء لشهرته، فقد اندرج في نفس الوقت تقريباً في الأسطورة وفي النسيان: فقلة قليلة ممن يستمعون إلى أسطواناته القديمة، فيما حكى لي بيرالبو، يتخيلون أنه مازال حياً. في الغبش والعزلة المحيطة لليدي بيرد عائق فلورو بلووم عناقاً طويلاً وسأله عن بيرالبو. استغرق برهةً ليدرك أن فلورو لم يفهم تساؤلاته بالإنجليزية. كان قد وصل دون متاع سوى حقيبةٍ متهالكة وجرابٍ من الجلد الأسود ذي قاعٍ مزدوج يحفظ فيه الترومبيت. سار بخطواتٍ واسعة بين الطاولات الخالية لليدي بيرد، وداس بقوة على المنصة التي يستقر فوقها البيانو ونزع غطاءه. برقةٍ تقاربُ الحياء عزفَ مستهل قطعة **بلوز**. كان قد خرج لتوّه من مستشفى في نيويورك. ياسبانيةٍ تتطلّب ممن يسمعونها من الانتباه أقل مما تتطلب من المهارات التخمينية طلب من فلورو بلووم أن

يطلب بيرالبو. منذ أن خرج من المستشفى كان يحيا في حالة عجلة دائمة: كان يتعجل إثبات أنه لم يميت، ولذا عاد إلى أوروبا بكل تلك السرعة. "هنا مازال الموسيقى شخصا له حيثة"، قال لبيرالبو، "لكنه في أمريكا أقل من كلب. خلال الشهرين اللذين قضيتهما في نيويورك لم يهتم بي سوى مكتب المخدرات".

كان قد عاد ليستقر نهائيا في أوروبا: وكانت لديه خطط ضخمة وغائمة يندرج فيها بيرالبو. سأله عن حياته خلال الأوقات الأخيرة، فمذ أكثر من عامين لا يدري عنه شيئا. وحين أخبره بيرالبو أنه لم يعد يعزف تقريبا، أنه الآن مُعلم موسيقى في مدرسة راهبات، استشاط بيلي سوان غضبا: أمام زجاجة ويسكي، ومرفقه مثبتان في منصة بار الليدي بيرد، شجبه بذلك الغضب المقدس الذي يتسامى أحيانا بدمني الكحول القدامى وذكره بالأوقات الماضية: حين كان في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين ووجده هو، بيلي سوان، يعزف مقابل سندوتشاتٍ وبيرة في أحد نوادي كوبنهاجن، حين كان يريد أن يتعلم كل شيء وأقسم أنه لن يكون أبداً سوى موسيقي ولا يهتمه الجوع والحياة السيئة إذا كانا ثمن تحقيق ذلك.

- أنظر إليّ - حكى لي بيرالبو أنه قال له -: دائما ما كنتُ من العظماء، قبل أن يعرف ذلك أولئك الأشخاص الأذكياء الذين يكتبون كتباً وكذلك بعد أن يكفوا عن قول ذلك، وإذا متُّ غدا لن تجد في جيوبي نقودا تكفي لدفع مصاريف دفني. لكنني بيلي سوان، وحين أموتُ لن يكون في العالم من يجعل هذه الترومبيت ترنُ مثلما أفعل.

حين أسند مرفقيه على منصة البار تراجعت إسورتا قميصه كاشفتين  
عن معصمين بالغى النحافة والصلابة وتدخلهما العروق. تأمل بيرالبو في قذارة  
حافتي الإسورتين ولاحظ بارتياح، بامتنانٍ تقريبا، أنه مازال فيهما الزرّان  
الذهبيان المتباهيان اللذان رآهما مراتٍ عديدة، في زمن آخر، يلمعان في  
أضواء المسرح حين يرفع بيلى سوان ترومبيتته. لكنه لم يعد يصدّق أن يظل  
مُستحقاً لتفضيله، بل يخشى كلماته، الوميض الرطب في عينيه خلف  
النظارة. بشعورٍ غامضٍ بالذنب أو بالخديعة سرعان ما انتبه إلى أي حدٍ تغيّر  
واستسلم خلال السنوات الأخيرة: مثل صخرة أُلقيت في قاع بئر، أرجف  
حضورُ بيلى سوان سكونَ الزمن. وفي مواجهتهما، على الجانب الآخر من  
منصة البار، كان فلورو بلووم يهز رأسه موافقاً بوداعةٍ دون أن يفهم كلمةً  
واحدة ويحافظُ على ألاّ تظل الكؤوس فارغة. لكن ربما كان يفهمُ كل شيء،  
كما فكر بيرالبو حين لاحظ نظرةً من عينيه الزرقاوين. كان فلورو بلووم قد  
ضبطه حين نظر بجبنٍ إلى ساعته وهو يحسب الساعات القليلة المتبقية أمامه  
للوصول إلى عمله. مستغرقا في شيء، ازدرد بيلى سوان كأسه، وطرق لسانه  
ونظف فمه بمنديلٍ أقرب إلى الاتساخ.

- ليس لدي المزيد لأقوله لك - اختتم بصرامة - . والآن أنظر مرةً  
أخرى إلى الساعة وأخبرني أنك يجب أن تذهب لتنام وسأحطم فمك بكلمة.  
لم يذهب بيرالبو: في التاسعة صباحا طلب المدرسة ليقول أنه مريض.  
في صحبة فلورو بلووم الصامتة واصلا الشراب طوال يومين. وفي الثالث  
أدخل بيلى سوان إلى عيادةٍ واستغرق أسبوعا ليتحسن. عاد إلى فندقه  
بالكبرياء المترنح لمن قضى بضعة أيام في السجن، ويده أشد هزلا وصوته

أشد قتامةً. وحين دخل بيرالبو إلى غرفته رآه ممداً على الفراش وأدهشه أنه لم يلاحظ حتى تلك اللحظة أنه يحمل وجه ميت.

- غدا يجب أن أذهب إلى ستوكهولم - قال بيلى سوان -. لديّ هناك عقدٌ جيد. خلال شهرين سأستدعيك. ستعزف معي ونسجل أسطوانة معا.

عند سماع ذلك لم يكذب بيرالبو يشعر بالبهجة، ولا بالامتنان، بل بشعورٍ باللاواقعية والخوف. فكر أنه لو ذهب إلى ستوكهولم سيفقد عقده في المدرسة، وربما وصلته في هذا الوقت رسالةٌ من لوكريثيا ستظل مهجورةً وبلا جدوى في صندوق البريد خلال عدة شهور. يمكنني تخيل تعبير وجهه في تلك الأيام: فقد رأيته في صورةٍ بالصحيفة التي حملت خبر وصول بيلى سوان إلى المدينة. ظهر فيها رجلٌ طويل أصابته الشيخوخة، بسحنةٍ ملتوية يكاد تغطيها حافة إحدى تلك القبعات التي كان يستخدمها الممثلون الثانويون في الأفلام القديمة. وبجواره، أقل طولاً، مرتبكا وبالغ الشباب، كان سانتياجو بيرالبو، لكن اسمه لا يظهر في خبر الصحيفة. منها عرفتُ أن بيلى سوان قد عاد. وبعد ثلاث سنوات، في مدريد، تأكدت أن بيرالبو احتفظ بتلك القصاصة التي اصفرت وبهتت بين أوراقه، بجوار صورة لا تشبه فيها لوكريثيا ذكرياتي على الإطلاق: فشرعها بالغ القصر وتبتسم بشفتين مضمومتين.

- في يناير كنت في برلين - قال بيلى سوان -. وهناك رأيت فتاتك.

تمهل قليلاً في مواصلة الحديث: ولم يجرؤ بيرالبو على سؤاله عن أي شيء. رأى مرةً أخرى ما جعلته عودة بيلى سوان يحياه من جديد: ليلةً منذ أكثر من عامين، في الليدي بيرد، حين ظهر ليعزف باحثاً عن وجه لوكريثيا

بين الرؤوس الداكنة للشاربين ووجده في العمق، غير واضح بين الدخان والأضواء الوردية، هادئاً وراسخاً على تلك الطاولة التي كان يجلس عليها أيضاً مالكولم ورجل آخر بمظهر مألوف لم يتبين في البداية أنه أنا.

- كنت أعزفُ لليلتين في الساتشمو، وهو مكانٌ غريب جداً، يبدو أنه بار عاهرات - واصل بيلى سوان - . ولما دخلتُ غرفة الملابس كانت تنتظرني. أخرجت من حقيبتها رسالةً وطلبت مني أن أرسلها لك. كانت عصبية جداً، وانصرفت على الفور.

لم يقل بيرالبو شيئاً: أن يحدثه أحدٌ عن لوكريثيا بعد كل هذا الزمن، أن يكون بيلى سوان قد قابلها في برلين، أثار بداخله حالةً غريبة من الدهشة، من الخوف تقريباً، من عدم التصديق. لم يسأل بيلى سوان عما حدث للرسالة: كما لم يخطر له أن يدقق في السبب في أن لوكريثيا لم تعهد بها للبريد. طبقاً للأخبار التي لديه، كان بيلى سوان قد غادر برلين منذ ثلاثة أو أربعة أشهر، عاد إلى أمريكا، واعتبروه ميتاً تقريباً في مستشفى نيويورك ذاك حيث استغرق أسابيع في استعادة وعيه. لم يشأ أن يسأله شيئاً لأنه خشي أن يقول: "نسيت الرسالة في فندق برلين، ضاعت مني في أحد المطارات الحقيبة التي كنت أحفظها بها فيها". رغب كثيراً في قراءتها حتى أنه ربما كان ليفضلها في تلك اللحظة على ظهورٍ مفاجيء للوكريثيا.

- لم أفقدها - قال بيلى سوان، واعتدل ليفتح جراب الترومبيت، الذي كان فوق الكومودينو. كانت يده لا تزالان ترتجفان، فوقعت الترومبيت على الأرض وانحنى بيرالبو ليلتقطها. وحين نهض واقفاً، كان بيلى سوان قد فتح قاع الجراب المزدوج ومد إليه الرسالة.

نظر إلى الطوابع، إلى العنوان، إلى اسمه مكتوباً بذلك الخط الذي لن تهتده أبداً لا الوحدة ولا التعاسة. ولأول مرة لم يكن المرسلُ حرفاً واحداً كبيراً، بل اسماً كاملاً، **لوكرثيا**. تحسّس الظرف فبدا له بالغ النحافة، لكنه لم يفتحه. أحس به ناعماً وحساساً تحت أطراف أصابعه مثل عاج لوحة مفاتيح لم يحسم أمره بعد ليعزف عليها. كان يبلي سوان قد عاود التمدد في الفراش. كانت أمسية في أواخر مايو، لكنه كان ممدداً ببدلته السوداء وحذاءه الضخم الذي لهيكل عظمي وغطى نفسه باللحاف حتى العنق، لأن النهوض كان يُشعره بالبرد. كان صوته أشد بطئاً وأنفيةً من أي وقت مضى. يتحدث كأنه يردد دائرياً الأبيات الأولى من أغنية **بلوز**.

- رأيتُ فتاتك. فتحتُ الباب لأجدها جالسةً في غرفة ملابسي. كانت الغرفة بالغة الصغر وكانت هي تدخن، وملأت المكان بالدخان.

- لوكرثيا لا تدخن - قال بيرالبو؛ منحه إحساساً ضئيلاً بالرضى أن يؤكد تلك التفصيلة، البالغة الدقة مثل دقة إيماءة: كأنه حقا سرعان ما تذكر لون عينيها أو طريقة ابتسامها.

- كانت تدخن حين دخلتُ أنا. - كان يضايق يبلي سوان أن يُشكك أحداً في ذاكرته -. قبل أن أراها لفحتني رائحة سجاثرها. أعرف كيف أميزها عن رائحة الماريجوانا.

- أتذكر ماذا قالت لك؟ - الآن نعم، الآن تجاسر بيرالبو. استدار يبلي سوان نحوه ببطء بالغ، برأسه رأس القرد الذي يقطعه بياض اللحاف، وتعمقت غصونه حين بدأ يضحك.

- لم تقل شيئاً تقريباً. كان يقلقها ألاّ أتذكرها، مثل أولئك الأشخاص الذين ألتقيهم بين الحين والحين ويقولون لي: "بيلي، ألا تتذكرني؟ عزفنا معا في بوسطن عام أربعة وخمسين". هكذا خاطبتني هي، لكنني كنتُ أتذكرها. تذكرتها حين رأيت ساقها. أستطيع التعرف على امرأة من بين عشرين بمجرد النظر إلى ساقها. في المسارح هناك ضوءٌ خافت، ولا يرى المرءُ وجوه النساء الجالسات في الصف الأول، لكنه يرى سيقانهن. يروقي النظر إليها بينما أعزف. أراهن يحركن ركبهن وينقرن الأرضية بكعوبهن لحفظ الإيقاع.

- لماذا أعطتك الرسالة؟ الطوابع ملصقةٌ عليها.

- لم تكن تلبس حذاءً بكعب. كانت ترتدي حذاءً مستويا، يلطخه الطين. حذاء فقراء. كان مظهرها أفضل منها حين قدّمتني إليها هنا.

- لماذا كان يجب أن تكون أنت من يعطيني الرسالة؟

- أفترض أنني كذبتُ عليها. كانت تريدُ أن تتلقّاها أنت بأسرع ما يمكن. أخرجت من حقيبتها التبغ، وقلم أحمر الشفاه، ومنديل، وكل تلك الأشياء العبثية التي تحملها النساء. تركت كل شيء على طاولة غرفة الملابس ولم تجد الرسالة. كانت تملك مسدساً أيضاً. ندّمت قبل أن تخرجه، لكنني رأيته.

- كانت تملك مسدساً؟

- مسدس ثمانية وثلاثون مللي لامع. ما من شيء لا تستطيع امرأة أن تحمله في حقيبتها. وأخيراً أخرجت الرسالة. أنا كذبتُ عليها. وأرادت هي أن أفعل. قلتُ لها أنني سأراك خلال أسبوعين. لكن بعدها تركتُ النادي الليلي وجاءت كل حكاية نيويورك تلك... من المحتمل أنني لم أكذب عليها حينها.

أفترض أنني فكرتُ في القدوم لرؤيتك وأخطأت الطائفة. لكنني لم أفقد رسالتك، يا فتى. احتفظت بها في القاع المزدوج، مثل الأيام الخوالي...

في اليوم التالي ودّع بيرالبو بيلي سوان بتوجسٍ مزدوج من اليتم والارتياح. في رواق المحطة، وفي البوفيه، وعلى الرصيف، تبادلوا الوعود المخادعة: بأن يتخلى بيلي سوان مؤقتاً عن الشراب، بأن يكتب بيرالبو رسالة زندقةٍ يودع فيها الراهبات، بأن يلتقيا في ستوكهولم بعد أسبوعين أو ثلاثة. لن يكتب بيرالبو المزيد من الرسائل إلى برلين، لأن لا علاج ضد حب النساء أفضل من النسيان. لكن حين ابتعد القطار دخل بيرالبو إلى البوفيه من جديد وقرأ رسالة لوكريثيا تلك للمرة السادسة أو السابعة، متجنباً دون نجاح سوداويةً برودتها المتعجلة: عشرة أسطر أو إثني عشر سطراً مكتوبة على ظهر خريطة للشبونة. أكدت لوكريثيا أنها ستعود قريباً وطلبت العذر لأنها لم تجد ورقةً أخرى تكتب عليها. كانت الخريطة نسخةً مصورةً غائمةً فيها، نحو اليسار، نقطةٌ مُظللةٌ بالأحمر وكلمةٌ مكتوبةٌ بخطٍ لا ينتمي للوكريثيا: **بورما**.

## الفصل السادس

يتعدّر شرح ألاّ يكون فلورو بلووم قد أغلق الليدي بيرد بالفعل لو  
كتّا نجهلُ كسله المتأصل أو نزوعه إلى أشد أشكال الولاء عبثيةً. يبدو أن  
اسمه الحقيقي كان فلوريال: أنه ينحدر من عائلة جمهوريين فدراليين وأنه  
حوالى عام 1970 كان سعيدا في مكانٍ ما في كندا، وصل إليه هاربا من  
اضطهاداتٍ سياسية لم يكن يتحدث عنها مطلقا. أما بالنسبة لاسم الشهرة  
ذاك، بلووم، فلدي من الأسباب ما يجعلني أفترض أن سانتياجو بيرالبو هو  
من منحه إياه، لأنه بدينٌ ومتمهل وفي وجنتيه دائما امتلاءٌ متورّد شديد  
الشبه بتورّد التفاحات. كان بدينا وأشقر، ويبدو حقا أنه قد ولد في كندا أو  
في السويد. وكانت ذكرياته، مثل حياته المنظورة، ذات بساطةٍ مريحة: يكفي  
كأسان من الشراب ليتذكر مطعما في كيبيك عمل فيه خلال بضعة أشهر، نوعاً  
من مطعم الوجبات الخفيفة وسط غابةٍ تأتي إليه السناجب لتلحق الأطباق  
ولا تخاف حين تراه: تُحرّك خطمها الرطب، وأظافرها الدقيقة، وذيلها،  
وتنصرف بعدها بقفزاتٍ صغيرة فوق العشب وتعرف الوقت المضبوط من  
الليل الذي يجب أن تعودَ فيه لالتهام بقايا العشاء. وأحيانا بينما يتناول المرء  
طعامه في ذلك المكان يأتي سنجابٌ ليستقر فوق الطاولة. عند منصة بار  
الليدي بيرد، كان فلورو بلووم يتذكر السناجب كأنه يستطيع رؤيتها أمامه  
بعينه الزرقاوين الدامعتين. لم تكن تخاف، قال، كأنه يشير إلى معجزة. كانت  
تلحق يده وهي تحرك خطمها، مثل قطيطات، كانت سناجب سعيدة. لكنه

فما بعد اكتسب الإيماة الجليلة لذلك المجاز الرمزي للجمهورية الذي يحتفظ به في خلفية الليدي بيرد وأخذ يُقيم تنبؤات: "هل تتصور أن يقترب سنجابٌ هنا من طاولة مطعم؟ سيقطعون رأسه، بالتأكيد، سيغرسون فيه شوكة".

ذلك الصيف، مع الأجانب، عرف الليدي بيرد عصراً فضياً مُخففاً. وقد شارك فيه فلورو بلووم ببعض الاستياء: فقلقاً ومتعباً كان يجب طلبات الطاولات ومنصة البار، ولم يكد يتوفر له الوقت للحديث مع الزبائن المألوفين، أعني، من كنا لا ندفع إلا بين الحين والحين. من الجانب الآخر للمنصة كان ينظر إلى البار بدهشة من يرى منزله وقد غزاه الأعراب، ومتغلباً على إدانة حميمة كان يضع الأسطوانات التي يطلبونها، ويستمع بلامبالاة محايدة إلى اعترافات السكرارى الذين لا يتحدثون سوى بالإنجليزية، وربما كان يفكر في سناجب كيبيك الوديعة حين يبدو ضائعاً.

استأجر نادلاً: تدرب على إيماةٍ مستغرقةٍ إزاء آلة التسجيل التي أعفته من تلبية طلبات من لا يهتمونه. خلال شهرين، حتى أوائل سبتمبر، عاود سانتياجو بيرالبو عزف البيانو في الليدي بيرد متمتعاً برصيدٍ لا محدود من زجاجات البوربون. دائماً ما منعني الخجلُ أو توقُّع الفشل من دخول البارات الخالية: وفي ذلك الصيف عدتُ أنا أيضاً إلى الليدي بيرد. كنت أختار زاويةً بعيدةً من منصة البار، وأشرب وحيداً، وأتحدث مع فلورو بلووم عن قانون حرية المعتقدات في ظل الجمهورية. وحين ينتهي بيرالبو من العزف نتناول معاً الكأس قبل الأخيرة. وعند الفجر نمشي صوب المدينة متتبعين قوس أضواء الخليج. وذات ليلة، حين نلتُ ركني وكأسي في الليدي

بيرد، اقترب مني فلورو بلووم ونظف منصة البار ناظرا إلى نقطة غير محددة في الهواء

- استدر وانظر إلى الشقراء - قال - لن تستطيع نسيانها.

لكنها لم تكن وحدها. فوق كتفها كان ينسدل شعرٌ طويل وناعم يلتصق في الضوء ببريق ذهبٍ شاحب. وكان لجلده وجنتيها شفافيةً مائلة للزرقة. وعيناها بليدتان وزرقاوان، وكان النظر إليها يشبه الاستسلام دون ندمٍ لبرودة لعنة. فوق ردفها الطويلين تتحرك يداها متتبعَةً إيقاع الأغنية التي يعزفها بيرالبو، لكن لم يثر اهتمامها لا الموسيقى، ولا نظرة فلورو بلووم، ولا نظرتي، ولا وجود أحد. كانت جالسةً تتأمل بيرالبو مثلما يمكن لتمثالٍ أن يتأمل البحر ومن آن لآخر تشرب من كأسها، أو تردّ بشيء على الرجل الجالس بجوارها، تافهةً مثل شرح لوحة.

- لا يتخلّفان منذ ليلتين أو ثلاث - أبلغني فلورو بلووم - يجلسان، يطلبان كؤوسهما وينظران إلى بيرالبو. لكنه لا ينتبه. شارد الذهن. يريد الذهاب إلى ستوكهولم مع بيلي سوان، لا يفكر إلّا في الموسيقى.

- وفي لوكريثيا - قلت أنا، فالمرء لا يفتقر أبدا للبصيرة للحكم على حياة الآخرين.

- هذا معروفٌ للجميع - قال فلورو بلووم - لكن انظر إلى الشقراء، انظر إلى ذلك الشخص الذي يأتي معها.

كان من الضخامة والابتذال بحيث لا ينتبه المرء على الفور إلى أنه زنجيٌ أيضا. يتسم على الدوام، ليس بإفراطٍ، بما يكفي لئلا تبدو ابتسامته

الواسعة إهانةً. يشربان كثيرا وينصرفان عند نهاية الموسيقى ودائماً ما يترك هو فوق الطاولة بقشيشاً مُبالغاً فيه. ذات ليلة أتى إلى منصة البار ليطلب شيئاً وبقي بجواري. كان يوازن سيجاراً بين أسنانه، وللحظة اجتاحتني رائحة الدخان الذي ينفثه بقوة من أنفه. وعلى طاولة في الخلفية، مستندةً على الحائط، تنتظره الشقراء، ضائعةً في السأم والوحدة. ظل ينظر إليّ والكأسان في يديه وقال أنه يعرفني. حدّثه عني صديقٌ مشترك. "مالكولم"، قال، ثم مضغ السيجار وترك الكأسين على المنصة كأنه يترك لي وقتاً للتذكر. "بروس مالكولم"، ردد بأعرب لكنه سمعها على الإطلاق، وأزاح بكفه الدخان عن وجهه. "لكن يبدو لي أنهم يسمونه هنا الأمريكي".

كان يتحدث كأنه يمارس محاكاةً ساخرة للكنة الفرنسية. يتحدث بالضبط مثل زواج الأفلام ويقول **أمغيكى ويظهن أن**<sup>(1)</sup> ويتسم لفلورو بلووم ولي كأنه أقام معنا صداقةً أقدم من ذكرياتنا. سألنا من يعزف البيانو وحين أجابناه كرر يا عجب: **بيغالبو**. كان يرتدي سترةً جلدية. وكان لجلد يديه الملمس الشاحب والخشن لجلدٍ متآكلٍ تماماً. كان شعره خشناً ورمادياً ولا يتوقف أبداً عن الموافقة على كل ما تراه عيناه البقريتان الضخمتان. اعتذر لنا هازئاً رأسه واستعاد كأسيه: بكبرياءٍ ظاهر، بتواضع، أخبرنا أن سكرتيرته تنتظره. ولا شك أنه عملٌ إعجازي أن يضع بطاقة زيارة على منصة البار دون أن يترك أياً من الكأسين ولا أن ينزع السيجار من فمه. تفحصناها أنا وفلورو بلووم في آنٍ واحد: تقول، توسان مورتون، لوحاتٌ وكتب قديمة، برلين.

- لقد عرفت الجميع - قال لي بيرالبو، في مدريد -. عرفت مالكولم، ولوكريثيا. وحتى توسان مورتون.

- لا ميزة في ذلك - قلت أنا: ولم يهمني أن يسخر مني بيرالبو،  
بالابتسامة المعهودة لمن يعرف كل شيء - . كنا نحيا في نفس المدينة، ونتردد  
على نفس البارات.

- ونعرف نفس النساء. أتذكر السكرتيرة؟

- كان فلورو بلووم على صواب. فور أن يراها المرء لا يستطيع  
نسيانها. لكنها كانت نوعاً من تمثالٍ جليدي. تبدو عروقها الزرقاء تحت  
جلدها.

- كانت ابنة قبة - قال بيرالبو بجدّة. لم يكن معتاداً على استخدام  
هذا النوع من الكلمات - . هل تذكر نظرتها في الليدي بيرد؟ كانت تنظر إليّ  
بنفس الطريقة حين كان رئيسها ومالكولم يوشكان على قتلي. منذ أقل من  
سنة، في لشبونة.

وعلى الفور بدا أنه نديم على ما تفوّه به لتوّه. كان ذلك عنده  
استراتيجية أو عادة: يقول شيئاً ثم يبتسم ناظراً إلى جهةٍ أخرى، كأن  
الابتسامة أو النظرة تتيح للمرء ألاّ يصدق ما سمعه. كان يكتسي حينها بنفس  
التعبير الذي يكسوه بينما يعزف في المتروبوليتانو، جو نعاسٍ أو لامبالاة،  
برودةٍ هادئةٍ لشاهدٍ على موسيقاه ذاتها أو على كلماته، اليقينية والعبارة مثل  
لحنٍ عزفٍ للتو. لكنه استغرق بعض الوقت ليحدثني من جديد عن توسان  
مورتون وعن سكرتيرته الشقراء. وحين فعل، في آخر ليلةٍ رأينا فيها بعضنا،  
في غرفته بالفندق، كان في يده مسدس ويراقب شيئاً من وراء ستارة  
الشرفة. لم يبد خائفاً: كان ينتظر فقط، ساكناً، متأملاً الشارع، الناصية

المزدحمة لمبنى التليفونيك، بنفس الاستغراق في الانتظار مثلما حين كان يعدّ الأيام التي تنقضي منذ آخر رسالة للوكريثيا.

لم يكن يعرف ذلك حينها، لكن وصول بيلي سوان كان أول نذير بالعودة. فبعد رحيله بأسابيع قليلة ظهر توسان مورتون: كان هو أيضا قادما من برلين، من ذلك الإقليم المجهول من العالم الذي مازالت فيه لوكريثيا كائناً واقعياً.

في ذاكرتي يتلخص ذلك الصيف في بضع أصائل خاملة، في سماوات أرجوانية ووردية فوق عمق البحر، في ليالٍ ممتدة كان للكحول فيها نفس فتور مطر الشروق الخفيف. بحقائب البلاج وصنادل الصيف، بزغب الأخاذ الخفيف مرقشا بالملح، بالجلد ذي الحمرة الخفيفة، كانت أجنيبات شقراوات نحيفات تأتين إلى الليدي بيرد عند الأصيل. ومن منصة البار، بينما يقدم لهم الكؤوس، كان فلورو بلووم يدرسه في صمت، برقة إله ريف روماني، يختار في خياله، يشير لي إلى نظرة إحداهن أو صورتها الجانبية، وربما إلى علامات مميزة. الآن أتذكرهن جميعا، بما فيهن من بقين ليلة أو ليلتين مع فلورو بلووم ومعني حين أغلق الليدي بيرد، كأنهن مسودات غير دقيقة لموديل تضم أوجه الكمال المبعثرة في كل واحدة منهن: سكرتيرة توسان مورتون الطويلة والثلجية، والفاقة الشعور.

في البداية لم يدقق فيها بيرالبو، حينها لم يكن يدقق كثيرا في النساء، وحين كنا فلورو وأنا نطلب منه أن يلاحظ واحدة تجذبنا بوجه خاص كان يتهج بأن يشير لنا إلى عيوب هينة فيها: أن يديها قصيرتان، مثلاً، أو أن كعبيها عريضان. وفي الليلة الثالثة أو الرابعة - كانت هي وتوسان مورتون

يصلان دائماً في نفس الساعة ويحتلان نفس الطاولة القريبة من منصة المسرح -، بينما يتفقد وجوه الشارين المعهودين، أدهشه أن يكتشف في تلك المجهولة إيماءةً ذكرته بلوكريثيا، وجعله هذا ينظر إليها عدة مرات، باحثاً عن تعبيرٍ لم يتكرر أبداً، وربما لم يحدث، لأنه كان بقيةً من الزمن الذي كان يفتّش فيه في كل النساء عن مؤشرٍ لتقاطع، أو لنظرة أو طريقة مشي لوكريثيا.

في ذلك الصيف، كما أوضح لي بعدها بعامين، كان قد بدأ يدرك أن الموسيقى يجب أن تكون عاطفةً باردةً ومطلقة. أخذ يعزف بانتظامٍ من جديد، وحيدا دائماً في الليدي بيرد، ولاحظ في أصابعه تدفق الموسيقى مثل تيارٍ لانهائي وهاديء مثل عبور الزمن: استسلم له كأنما لسرعة سيارة، تتقدم أسرع في كل لحظة، تاركا عنانه لحافزٍ موضوعي للظلمة والمسافة لا يحكمه سوى الذكاء، سوى غريزة الابتعاد والهروب دون معرفة فضاءٍ أكثر مما تضيؤه أعمدة النور، كأنه يقود وحيدا في منتصف الليل عبر طريقٍ مجهول. حتى ذلك الوقت كانت موسيقاه اعترافاً موجهاً دائماً لأحد، للوكريثيا، أو له هو ذاته. والآن حدّس أنها أخذت تتحول إلى منهجٍ للتخمين، أنه فقد تقريبا الغريزة التلقائية للتساؤل بينما يعزف عما يمكن أن تظن لوكريثيا لو استطاعت أن تسمعه. ببطء أخذت الوحدة تخلو من الأشباح: وأحيانا، بعد برهةٍ من الاستيقاظ، كان يدهشه التيقن من أنه عاش بضع دقائق دون أن يتذكرها. لم يكن يراها حتى في الأحلام، إلا من ظهرها، أو في ضوءٍ خلفي، بحيث كان وجهها يُفلت منه دائماً أو يكون وجه امرأةٍ أخرى. بتواترٍ كان يتجول في الأحلام في برلين تعسفيةً وليلية بناطحات سحبٍ مُضاءة وأعمدة إنارة حمراء وزرقاء فوق أرصفةٍ يبللها الندى، مدينة لا أحدٍ لا توجد فيها حتى لوكريثيا.

في بداية يونيو كتب لها رسالةً، الأخيرة. وبعد شهر، حين فتح صندوق البريد، وجد ما لم يكن قد رآه منذ زمنٍ بعيد، ما كان ينتظره بمجرد عادةٍ متجذرةٍ أكثر من إرادته: مظروفاً طويلاً حوافه مخططة مكتوباً عليه اسم وعنوان لوكريثيا. وفقط بعد أن تحسّسه بقوة انتبه إلى أنه نفس الرسالة التي كتبها هو منذ بضعة أسابيع. كان عليه شطبٌ أو توقيع بقلم أحمر وعلى الوجه الآخر عبارة بالألمانية. ترجمها له أحد رواد الليدي بيرد: **لم يتم التعرف عليه في هذا العنوان.**

عاود قراءة رسالته هو، التي سافرت كل هذه المسافة لتعود إليه. فكر دون مرارةٍ في أنه لثلاث سنواتٍ ظل يكتب لنفسه، أن الوقت قد حان ليحيا حياةً أخرى. للمرة الأولى منذ عرف لوكريثيا تجاسر على تخيل كيف يمكن أن يكون العالم لو لم توجد هي، لو لم يصادفها مطلقاً. لكنه بمجرد أن يشرب كأس جين أو ويسكي ويصعد بعدها ليعزف بيانو الليدي بيرد كان يدخلُ دون شكٍ في النسيان، في تساميه الفارغ. ذات ليلةٍ من يوليو ارتسم أمامه وجهٌ: إيماءةٌ عشوائية فعلت في ذاكرته كتلك اليد التي حين توضع على ندبة تُعيد لا إرادياً إحياء ألم الجرح الغُفل.

كانت سكرتيرة توسان مورتون تنظر إليه كأنها أمام جدارٍ أو مشهدٍ ساكن. رآها من جديدٍ بعد بضع ساعات، تلك الليلة ذاتها، في محطة التويو<sup>(2)</sup>. كان مكاناً قذراً وسيء الإضاءة، بجو الدمار الذي نجده دوماً في ردهات المحطات قبل الفجر، لكن الشقراء كانت جالسةً على دكةٍ كأنها على أريكة صالونٍ رقص، هادئة ولا مبالية، بحقيبةٍ جلدية ودوسيه فوق ركبتيها. بجوارها كان توسان مورتون يمضغ السيجار ويتسم لجدران المحطة القذرة،

ولبيرالبو، الذي لم يتذكر أنه رآه في الليدي بيرد. ربما كانت تلك الابتسامة تحيةً فضل هو أن يتجاهلها، فقد كان ينفر من تعاطف من لا يعرفهم. اشترى تذكرةً وانتظر بجوار الرصيف وهو يسمع الرجل والمرأة يتحدثان بهدوءٍ بالغ خلف ظهره في خليطٍ لزجٍ من الفرنسية والإنجليزية بدا له غير قابلٍ للفهم. ومن حين لآخر كانت قهقهةٌ ذكورية قوية تمزق غممةً ما يشبه دهليز مستشفى وتدوي في المحطة المهجورة. ببعض الخشية شك بيرالبو في أن الرجل يضحك سخريةً منه، لكنه لم يستدر. حلّ صمّت أطول: عرف أنها ينظران إليه. لم يتحركا حين وصل القطار. وحين أصبح داخل القطار، نظر إليهما بيرالبو صراحةً من النافذة فصادف الابتسامة الفاحشة لتوسان مورتون، الذي كان يحرك رأسه كأنه يقول وداعاً. رآهما ينهضان حين بدأ التوبو يغادر المحطة ببطء شديد. لابد أنهما ركبا خلف عربة بيرالبو بعريتين أو ثلاث، لأنه لم يعاود رؤيتهما تلك الليلة. فكر أنهما ربما سيواصلان الرحلة حتى الحدود عند إيرون: وقبل أن يفتح باب منزله كان قد نسيهما.

ثمة أناس مُحَصَّنون ضد السخرية وضد الحقيقة يبدون مكرّسين بإصرارٍ ليجسّدوا محاكاةً ساخرة. في ذلك الزمن اعتقدتُ أن توسان مورتون واحدٌ منهم: بالغ الطول، كان يُبالغ في قامته بارتداء أحذيةٍ عسكرية ذات كعب ويرتدي سترات جلدية وأقمصةً زهرية ذات ياقاتٍ عريضة مدببة تكاد تبلغ كتفيه. وكانت خواتم ذات أحجارٍ مشكوكٍ فيها وسلاسلُ مذهبة تلتصع على جلده الداكن وفي شعر صدره. وماضغا سيجاراً عطنا كان يوسّع ابتسامته، ويحمل دوماً في جيب سترته العلوي عودَ تسليكٍ أسنانٍ ذهبي طويل اعتاد أن ينظّف به أظافره، ثم يتشممها في الخفاء، كمن يشم سعوطاً.

كانت رائحةٌ غير محدّدة تُعلن حضوره قبل أن يتمكن المرء من رؤيته أو فور أن ينصرف: كانت خليطاً من دخان تبغه الجبلي ومن العطر الذي يلقّ سكرتيّته مثل انبعاثٍ شاحبٍ وبارد لشعرها الناعم، لسكونها، لجلدها الوردي والشفاف.

الآن، بعد نحو عامين، عدت للتعرف على تلك الرائحة، التي ستكون دوماً رائحة الماضي والخوف. وقد استشعرها سانتياجو بيرالبو لأول مرة ذات أصيل صيفي، في سان سباستيان، في مدخل المبنى الذي كان يعيش فيه عندئذ. كان قد نهض متأخراً جداً، وأكل في بارٍ قريب ولم يفكر في الذهاب إلى مركز المدينة، فتلك الليلة، كانت أربعاء، سيكون الليدي بيرد مغلقاً. مشى صوب المصعد ومازال في يده مفتاح صندوق البريد - كان يظل ينظر إليه عدة مرات في اليوم فربما تأخر ساعي البريد - حين جعله إحساسٌ باعتمادٍ وغربةٍ بعيدة ينتصبٌ وينظر حوله: وقبل ثانيةٍ من تحديد الرائحة رأى توسان مورتون وسكرتيّته مستقرّين بسعادةٍ على أريكة المدخل. وفوق الركبتين المضمومتين والعاريّتين للسكرتيرة استقرت نفس الحقيبة ونفس الدوسيه اللذين حملتهما قبل ليلتين أو ثلاث في محطة التوبو. وكان توسان مورتون يحتضن كيساً ورقياً كبيراً يبرز منه عنقٌ زجاجة ويسكي. كان يبتسم بما يقارب الوحشية ضاغطاً السيجار إلى زاوية فمه، ولم ينزعه إلا حين نهض واقفاً ليمد إلى بيرالبو واحدةً من يديه الضخمتين: كان ملمسه ملمس خشبٍ صقله الاستعمال. أما السكرتيرة، التي عرف بيرالبو فيما بعد أن اسمها دافني، فقد قامت بإيماءةٍ تكاد تكون بشريةً حين نهضت: مُميلةً رأسها إلى جانبٍ ومُزججةً الشعر عن وجهها، ابتسمت لبيرالبو، بشفتيها فقط.

كان توسان مورتون يتحدث إسبانيةً كمن يقود بأقصى سرعةٍ متجاهلاً قواعد المرور وساخراً من الحراس. لم تكن الأجرومية ولا التهذيب ليعوقا سعادته أبداً، وحين لا يجد كلمةً يعرض شفثيه، ويقول **ميغدا** <sup>(3)</sup> [miegda] وينتقل إلى لغةٍ أخرى بطلاقةٍ مُزيّفةٍ يعبر الحدودَ بجواز سفرٍ مزوّر. اعتذر ليرالبو عن **حشغيته** [intgomision]: أعلن أنه من الأتباع المخلصين للجاز، لآرت تاتوم <sup>(4)</sup>، لبيلي سوان، للسهرات الهادئة في الليدي بيرد: قال أنه يفضل حميمية المقرات الصغيرة على سخافة الحشود الواضحة - الجاز، مثل الفلامنكو، هو ولع أقلية -: ذكر اسمه واسم سكرتيرته، أكد أنه يدير في برلين تجارةً متحفظةً ومزدهرةً للتحف، سريةً تقريباً، كما الملح، فالمرء إذا فتح متجرًا ووضع لافتةً مضئيةً سرعان ما تجرّ الضرائب رأسه. أشار بصورة غامضة إلى دوسيه سكرتيرته، والكيس الورقي التي يمسكه هو: في برلين، في لندن، في نيويورك - لا شك أن ليرالبو قد سمع عن جاليري ناثن ليفي -، وتوسان مورتون شخصٌ بارز في تجارة لوحات الحفر والكتب القديمة.

ابتسمت دافنى بسكينةٍ من يستمع إلى وشيش المطر. كان ليرالبو قد فتح باب المصعد وتأهب للصعود وحيدا إلى الدور الثامن، شاعرا ببعض الدوار، فدائماً ما يحدث له ذلك حين يتحدث مع أحدٍ بعد أن يظل وحده خلال ساعاتٍ طويلة. عندها أوقف توسان مورتون باب المصعد بطريقةٍ بديية بأن أسند ركبته إليه وقال، مبتسماً، دون أن ينزع السيجار من فمه: - لوكرثيا حدثني كثيراً عن حضرتك هناك في برلين. كنا أصدقاء حميمين. كانت تقول دائماً: "حين لا يتبقى لي أحد، سيتبقى لي سانتياجو ليرالبو."

لم يقل بيرالبو شيئاً. صعدوا جميعاً في المصعد، محافظين على صمت صعب لا تخفّفه سوى ابتسامة توسان مورتون التي لا تقهر، وثبات حدقتي سكرتيرته الزرقاوين، التي كانت تنظر إلى التابع السريع للأرقام المضاءة كأنها تتبين المنظر المتنامي للمدينة وبعدها الهاديء. لم يدعها بيرالبو للدخول: بل دخلاً رواق منزله بالاهتمام القانع لمن يزور متحفاً إقليمياً، مُتفحّصين برضا اللوحات، والأباجورات، والأريكة التي سرعان ما جلسا عليها. فجأة كان بيرالبو متوقفاً أمامهما لا يدري ماذا يقول، كأنه عند دخول منزله وجدهما يتحادثان على أريكة غرفة الطعام ولم يحزم أمره بطردهما ولا بسؤالهما لماذا يوجدان هناك. حين يقضي وحيداً ساعاتٍ طويلةٍ يصبح إحساسه بالواقع هشاً بصورةٍ خاصة: اعتراه شعورٌ موجزٌ بالتوهان شديدٌ الشبه ببعض الأحلام، ورأى نفسه واقفاً أمام غريبين يحتلان أريكته، لا يحيرُه سبب حضورهما بل حروفث النقش الذي تحمله الميدالية الذهبية التي تطوق عنق توسان مورتون. عرض عليهما كأساً: لكنه تذكر أنه ليس لديه شيء للشراب. وبهجةٍ اكتشف توسان مورتون نصفَ الزجاجاة التي جلبها وأشار إلى الماركة بسبابته العريضة. فكر بيرالبو أن له أصابع عازف كونتراباص.

- كانت لوكريثيا تقول دائماً: "صديقي بيرالبو لا يشرب إلاّ أفضل بوربون." أتساءل هل هذا جيدٌ بما يكفي لحضرتك. عثرت عليه دافنى وقالت لي: "توسان، هو غالٍ بعض الشيء، لكنك لن تجد ما هو أفضل حتى في تينيسي." المسألة هي أن دافنى لا تشرب. وكذلك لا تدخن، ولا تأكل أكثر من خضرواتٍ وسمكٍ مسلووق. قولي له أنت، يا دافنى، السيد يتحدث الإنجليزية. لكنها شديدةُ الحياء. تقول لي: "توسان، كيف يمكنك التحدث

كثيرا بكل هذه اللغات؟" فأجيبها "لأنني يجب أن أقول كل ما لا تقولينه أنت!". . . ألم تحدثك لوكريثيا عني؟

كما لو كانت قوة دفع قهقهته تدفعه نحو الخلف أسند توسان مورتون ظهره على الأريكة، واضعا يدا ضخمة وداكنة على ركبتي دافني البيضاوين، التي ابتسمت قليلا، هادئة ورأسية.

- يروقتي هذا المنزل. - مرّ توسان مورتون نظرة نهمة وسعيدة عبر غرفة الطعام شبه الخاوية، كأنه يُظهر امتنانا بضيافة مُستحبة لوقت طويل. - الأسطوانات، الأثاث، هذا البيانو. وأنا طفل كانت أمي تودّ أن أتعلم عزف البيانو. "توسان"، كانت تقول لي، "ستشكر لي ذلك ذات حين". لكنني لم أتعلم. حدثتني لوكريثيا دائما عن هذا المنزل. ذوق جيد، تعقل. وفور أن رأيت حضرتك تلك الليلة قلت لدافني: "هو ولوكريثيا روحان توأمان". أعرف الرجل بمجرد النظر في عينيه مرة واحدة. أم النساء فلا. منذ أربع سنوات ودافني سكرتيرتي، أعتقد أنني أعرفها؟ ليس أكثر مما أعرف رئيس الولايات المتحدة...

"لكن لوكريثيا لم تأت هنا أبدا"، فكر بيرالبو على نحوٍ بعيد: كان ضحك وكلمات توسان مورتون التي لا تتوقف تقوم بدور مُنوّمٍ لوعيه. كان مازال واقفا. قال أنه سيذهب للبحث عن أكوابٍ وقليل من الثلج. وحين سألهما إن كانا يريدان ماءً، كمّ توسان مورتون فمه متظاهرا بأنه لا يتمالك الضحك. - بالطبع نريد ماء. دافني وأنا نطلب دائما ويسكي وماء في البارات. الماء لها، والويسكي لي.

حين عاد بيرالبو من المطبخ كان توسان مورتون واقفا بجوار البيانو يتصفح كتابا، أغلقه فجأة، مبتسما، وتظاهر الآن بتعبير اعتذارٍ. للحظة تبين بيرالبو في عينيه برودة مُحققٍ لا تشكل جزءاً من التظاهر: عينان كبيرتان وميتتان، بطوقٍ محمّرٍ حول الحدقتين. أما دافنى، السكرتيرة، فكانت يداها مضمومتان ومفرودتان أمامها، راحتهما إلى أسفل، وتنظر إلى أظافرها. كانت أظافرها طويلة وأرجوانية، دون طلاء، من لونٍ وردي يفوق في شحوبه لون جلدها.

- اسمح لي حضرتك - قال توسان مورتون. أخذ من يدي بيرالبو الصينية وملاً كوبين بالبوربون، وتظاهر بأنه حين أمال الزجاجاة على كوب دافنى تذكر أنها لا تشرب. ترك كوبه فوق طاولة التليفون بعد أن تذوق الرشفة الأولى بضوضاء. غاص أكثر في الأريكة، مرتاحا، يكاد يكون مُضيفا، مُشعلاً سيجاره المطفأ بسعادةٍ بالغة.

- كنتُ أعرف - قال - كنت أعرف كيف أنت قبل أن أرى حضرتك. إسأل دافنى. قلت لها دائماً: "دافنى، مالكولم ليس الرجل المناسب للوكريثيا، طالما يحيا عازف البيانو ذاك الذي بقي في إسبانيا." هناك في برلين حدثتنا لوكريثيا كثيراً عن حضرتك. . . في غياب مالكولم، بالطبع. دافنى وأنا كنا كعائلةٍ لها حين انفصلا. يمكن لدافنى أن تخبرك: في منزلي كان في متناول لوكريثيا دائماً فراشٌ وصحن طعام، لم تكن أوقاتاً طيبة بالنسبة لها.

- متى انفصلت عن مالكولم؟ - قال بيرالبو. عندها نظر له توسان مورتون بنفس التعبير الذي أثار قلقه حين عاد إلى غرفة الطعام بالأكواب والثلج، وانفجر في الضحك على الفور.

- هل تأخذين بالك، يا دافنى ؟ السيد يعتبر هذا خبرا. ليس ضرورياً، يا صديقي، حضرتكما لم يعد عليكما الاختباء، ليس أُمامي. هل تعلم أنني في بعض المرات كنت أنا من يلقي في البريد الرسائل التي تكتبها لك لوكريثيا؟ أنا، توسان مورتون. كان مالكولم يحبها، وكان صديقي، لكنني انتبهت إلى أنها مجنونةٌ بحضرتك. كنا، دافنى وأنا، نتحدث كثيرا عن ذلك، وكنت أقول لها، "دافنى، مالكولم صديقي وشريكي لكن لهذه الفتاة الحق في أن تحب من تشاء". هذا ما كنت أعتقد، واسأل دافنى، فليس بيننا أسرار.

بدأت كلمات توسان مورتون تُحدث في بيرالبو تأثير شيءٍ لا واقعي شديد الشبه بتأثير البوربون: دون أن ينتبه كانا قد شربا أكثر من نصف الزجاجة، لأن توسان مورتون لم يتوقف عن صباها بقوة في الكويين، مبللا الصينية، والطاولة، ومجففا لهما على الفور بمنديل ملون بالغ الطول مثل منديل حاوٍ. أما بيرالبو، الذي شك من البداية أنه يكذب، فبدأ يستمع له بانتباه صائغٍ ليس شديد التهذيب يوافق لأول مرة على شراء بضاعةٍ مسروقة.

- لا أعرف شيئا عن لوكريثيا - قال -. لم أرها منذ ثلاث سنوات.

- تشكك فيّ. - هز توسان مورتون رأسه بحزنٍ ناظراً إلى سكرتيرته كأنه يبحث فيها عن راحةٍ من نكران الجميل -. أأخذين بالك، يا دافنى ؟ تماما مثل لوكريثيا. لا يدهشني ذلك، يا سيدي - استدار معترّاً وجاداً نحو بيرالبو، لكن كان في عينيه نفس النظرة اللامبالية باللعبة والتظاهر -. هي أيضا تشككت فينا. قولي له، يا دافنى. قولي له أنها رحلت من برلين دون أن تقول لنا شيئا.

- ألم تعد تعيش في برلين؟

لكن توسان مورتون لم يرد. نهض واقفاً بجهدٍ جهيد، متكئاً على مسند الأريكة، لاهثاً بالسيجار في فمه نصف المفتوح. قلدته السكرتيرة بإيماء آلية، والدوسيه كأنه في مهدٍ بين ذراعيها، والحقيبة على كتفها. حين تحركت، انتشر عطرها في الهواء: وكان فيه إيحاءٌ بالرماد والدخان.

- حسناً، يا سيدي - قال توسان مورتون، مجروحاً، يكاد يكون حزينا. وحين رآه بيرالبو واقفاً تذكر طوله - أفهم. أفهم أن لوكريثيا لا تريد أن تعرف شيئاً عنا. في أيامنا هذه لا يعني الأصدقاء القدامى شيئاً. لكن قل لها أن توسان مورتون كان هنا ويرغب في رؤيتها. قل لها ذلك.

مدفوعاً برغبةٍ عبثية في الاعتذار كرر بيرالبو أنه لا يعرف شيئاً عن لوكريثيا: أنها ليست في سان سباستيان، وربما لم تعد إلى إسبانيا. ظلت عينا توسان مورتون الهادئتان الواعيتان مُثبتتين فيه كأنه الدليل على كذبة، على خيانةٍ غير ضرورية. وقبل أن يدخل إلى المصعد، حين كانا ينصرفان في النهاية، مدّ إلى بيرالبو بطاقة زيارة: قال أنهما لا يفكران بعد في العودة إلى برلين، سيبقيان بضعة أسابيع في إسبانيا، وإذا غيرت لوكريثيا رأيها وأرادت رؤيتهما فإنهما يتركان لها تليفونا في مدريد. ظل بيرالبو وحيداً في الممر وحين دخل إلى منزله من جديد أغلق الباب بالمفتاح. لم يعد يُسمع أزيز المصعد، لكن دخان سيجار توسان مورتون وعطر سكرتيرته بقيا شبه صلبين في الهواء.

هوامش:

- (1) أمغيكى ويظهغ أن: أمريكى ويظهر أن، بلكنة مورتون.
- (2) El Topo: الخلد. تطلق على قطار الضواحي.
- (3) mierda:Miegda: اللعنة، تعني حرفيا: خراء.
- Intromisión: Intgomision حشر الأنف فيما لا يعنيه.
- (4) Art Tatum: (1909-1956): عازف بيانو جاز عبقرى.

## الفصل السابع

- أنظر إليه - قال بيرالبو - أنظر كيف يبتسم.

اقتربت منه وأزحت الستارة برفقٍ لأنظر إلى الشارع. على الرصيف المقابل، ساكنا وأطول ممن يمرون بجانبه، كان توسان مورتون ينظر ويبتسم كمن يوافق على كل شيء: على ليل مدريد، على البرد، على النساء الهادئات اللائي تدخن بالقرب منه، على حافة الرصيف، مستندات على لافتة اتجاه، أو على جدار التليفونيك.

- هل يعرف أننا هنا؟ - ابتعدتُ عن الشرفة: كان قد بدا لي أن نظرة توسان مورتون تراني، من بعيد.

بالتأكيد - قال بيرالبو - يريدني أن أراه. يريدني أن أعرف أنه وجدني.

- لماذا لا يصعد؟

- لديه كبرياء. يريد أن يخيفني. إنه هناك منذ يومين.

- لا أرى سكرتيرته.

- ربما بعثها إلى المتروبوليتانو. إذا كنتُ خرجتُ من بابٍ آخر. أعرفه.

لا يريد أن يُوقع بي بعد. الآن يحاول أن يعرفني فقط أنني لن أستطيع الهرب منه.

- سأطفيء النور.

- الأمر سواء. سيعرف أننا مازلنا هنا.

أزاح بيرالبو الستائر عن آخرها وجلس في الفراش دون أن يترك  
المسدس. شعرت بأن الغرفة تزداد ضيقاً وظلمة تحت الضوء القذر  
للكومودينو. عندها رن التليفون: كان طرازاً عتيقاً، أسوداً وشديد  
الانحناءات، ذا طابعٍ جنائزي. بدا مُصمماً فقط لنقل المصائب. كان في  
متناول بيرالبو: لكنه ظل ينظر إليه ثم إليّ وهو يرن، ولم يرفع السماعه. كنت  
أرغب في أن تكون كل رنةٍ هي آخر رنةٍ، لكنها ظلت تتكرر إثر ثانية صمتٍ،  
أشد دويًا وأشد عناداً، كأننا نُنصت إليه من ساعات. وفي النهاية رفعتُ  
السماعة: سألت من هناك فلم يجبني أحد، ثم سمعت صفارةً متقطعةً وحادة. لم  
يكن بيرالبو قد تحرك من الفراش: ظل يدخن ولم ينظر حتى إليّ، بدأ يصقّر  
أغنيةً بطيئةً بينما ينفث الدخان. أطللتُ من الشرفة. لم يعد توسان مورتون  
على رصيف التليفونيك.

- سيعود - قال بيرالبو -. دائماً يعود.

- ماذا يريد منك؟

- شيئاً لا أملكه.

- هل ستذهب إلى المتروبوليتانو الليلة؟

- لا يروقي أن أعزف. أطلب أنت من طرفي واسأل عن مونيكا. قل

لها أنتي مريض.

كان الحر في الغرفة خائفاً، والهواء الساخن يزوم في أجهزة التكييف،  
لكن بيرالبو لم يخلع معطفه، بدا أنه مريض حقاً. دائماً ما أراه به في ذكرياتي

لتلك الأيام الأخيرة، دائماً ممددٌ في الفراش، أو يدخن خلف ستائر الشرفة، ويده اليمنى في جيب المعطف، تبحث عن التبغ، وربما عن مقبض المسدس. في الصّوان كان يحتفظ بزجاجتي ويسكي. ظللنا نشرب في الأقداح الداكنة للحمام، بصورةٍ منهجية، دون انتباهٍ أو متعة، وكان الويسكي دون ثلج يحرق شفتي، لكنني واصلت الشرب ولم أقل شيئاً على الإطلاق، أستمع فقط لبيربو وأنظر بين الحين والآخر إلى الرصيف المقابل للجدران بيا، باحثاً عن القامة الطويلة لتوسام مورتون، وأرتجف حين أخلط بينه وبين أي من الرجال ذوي البشرة الداكنة الذين يتوقفون على النواصي عند حلول الليل. من الشارع كان الخوف يتصاعد نحوي كصوت صفارات بعيدة: كان إحساساً بالخلاء، بالوحدة وبريح الشتاء الباردة، كأن جدران الفندق وأبوابه المغلقة لم تعد تستطيع الدفاع عني.

لكن بيربو لم يكن خائفاً: لم يكن يستطيع، لأنه لا يهتم ما يحدث في الخارج، في الجانب الآخر من الشارع، وربما أقرب بكثير، في دهايز الفندق، خلف الباب، حين ترن خطواتٌ مكتومة ومفاتيح تدور في قفل قريب جداً ويكون نزيلٌ مجهول ولا مرئي نسمعه بعدها يسعل في الغرفة المجاورة. باستمرارٍ كان ينظف مسدسه مولياً لذلك الانتباه اللاهي لمن يُلَمّع حذاءه. أتذكر الماركة المنقوشة على الماسورة: **كولت تروبر 38**. كان يملك الجمال الغريب لمطواةٍ حديثة الشحذ، وكان في شكله المتألق إيجاءٌ بلا واقعية، كأنه ليس مسدساً يمكنه فجأة أن يطلق النار أو يقتل، بل رمزٌ لشيء، قاتل في ذاته، في سكونه المستريب، مثل قارورة سم محفوظة في صوان.

كان مسدس لوكريثيا. هي من حملته من برلين، كان خاصيةً من خواص حضورها الجديد، مثل الشعر البالغ الطول والنظارات الداكنة والرغبة غير المعلنة في السرية وفي الهرب الدائم. عادت حين كَفَّ بيرالبو عن انتظارها: لم تأت من الماضي ولا من برلين الخيالية للبطاقات البريدية والرسائل، بل من الغياب الخالص، من الفراغ، مُتحوّلةً إلى هويةٍ أخرى محسوسةٍ بصورةٍ طفيفةٍ في وجهها القديم مثل اللكنة الأجنبية التي تنطق بها بعض الكلمات الآن. عادت ذات صباحٍ من نوفمبر: أيقظ التليفون بيرالبو، وفي البداية لم يتعرف على ذلك الصوت، لأنه قد نسيه أيضاً، مثل اللون الدقيق لعيني لوكريثيا.

- في الواحدة والنصف - قالت - في ذلك البار في الممشى البحري.  
لا جايوتا<sup>(1)</sup> [النورس]. هل تتذكّر؟

لم يتذكر بيرالبو: وضع السماعه ونظر إلى المنبه كأنه عائدٌ من حلم: كانت الثانية عشرة والنصف من صباحٍ رمادي أوقعت فيه الاضطراب غراباً مزدوجة من عدم الذهاب إلى العمل ومن سماع صوت لوكريثيا، الحديث ما زال، المُستعاد، المجهول تقريباً، غير المستحيل في ختام الأعوام والبعده، بل قائمٌ في نقطة محددة من الواقع، في دقيقةٍ مستقبليةٍ وممكنة البلوغ، في الحادية والنصف، كما قالت، ثم اسم البار ووداعٌ خفيف يؤكد إدراجه في أرض المواعيد الممكنة، في أرض الوجوه التي ليس من الضروري تخيلها لأن مكالمات تليفونيةً واحدة تكفي لاستحضار وجودها. الآن بدأ الزمن يتقدم بالنسبة لبيرالبو بسرعةٍ غير معهودة وصار مختلاً، كأنه يعزف مع موسيقيين بالغني السرعة بالنسبة له. انتقل بطؤه الخاص إلى الأشياء، بحيث بدا أن سخّان

الحمام لن يشتعل أبدا واختفت الثياب النظيفة من الصوان حيث كانت على الدوام، وكان المصعد مشغولاً وتأخر ساعاتٍ في الصعود، ولم يكن ثمة عربات تاكسي في الحي، في أي حيٍّ من المدينة، ولم يكن أحدٌ ينتظر قطارا في محطة التوبو.

لاحظ أن محصلة هذه التأخيرات الصغيرة شتّتت ذهنه عن التفكير في لوكريثيا: خمس عشرة دقيقة قبل اكتمال ثلاثة أعوام من غيابها، بينما يبحث بيرالبو عن تاكسي، كانت لوكريثيا أبعد ما تكون عن تفكيره. فقط حين صعد إلى التاكسي وذكر وجهته تذكر مرتجفا من الخوف أنه حقاً على موعدٍ معها، أنه سيراها مثلما يرى عيونه الخائفة في المرأة الخلفية. لكنه لم يكن ينظر إلى وجهه هو، بل إلى وجه آخر بدت تقاطيعه غريبةً جزئياً بالنسبة له، لأنه ذلك الوجه الذي ستنظر إليه لوكريثيا، وتحكمُ عليه، وتُسألهُ بحثاً عن علامات الزمن تلك التي أصبح بيرالبو الآن فقط قادراً على تبيّنها، كأنه يستطيع أن ينظر إلى ذاته بعيون لوكريثيا.

حتى قبل أن يقابلها جذبته مغناطيسٌ حضورها الخفي، لأن العجلة والخوف هما أيضاً لوكريثيا، والإحساس بأنه يترك نفسه لسرعة التاكسي، مثلما في الماضي، مثلما حين كان يأتي إلى موعدٍ سيخاطر فيه سراً بحياته خلال نصف ساعة. فكر أن الزمنَ خلال السنوات الثلاث الأخيرة صار شيئاً ساكناً، مثل الفضاء حين يسافر المرء ليلاً عبر سهولٍ دون ضوء. كان قد قاس امتداده بالمسافة بين رسائل لوكريثيا، لأن أفعال حياته الأخرى تمثّلت في ذاكرته المتجاهلة كشخصٍ في نقشٍ غائرٍ مستوٍ، بمثابة حروزٍ أو بقعٍ في الجدار الذي يحْدّق فيه حين يستلقي ولا ينام. الآن، في التاكسي، لم يكن ثمة

تفصيلاً ليست فريدةً ويجرّها الزمن وتتلاشى فيه: في الزمن المهيّب الذي يجب مرةً أخرى قياسه بالدقائق بل وبأجزاء الثواني، في الساعة الموجودة أمامه، على جانب عجلة القيادة، في ساعة الكنيسة حيث مرّ في الواحدة وعشرين دقيقة، في الساعة التي تخيلها في معصم لوكريثيا، سريةً ودؤوبة مثل نبض دمها. مثلما استعاد اليقين الذي لا يُصدّق بأن لوكريثيا موجودة استعاد الخوف من الوصول متأخراً: وكذلك الخوف من أن يكون قد سمن وتدهور، ألاّ يكون جديراً بذاكرتها وخائناً لتوقعات خيالها.

دخل التاكسي المدينة، حاذى شوارع النهر المحفوفة بالأشجار، قطع جادة أشجار التمر الهندي والحواري الرطبة للحي العتيق وبزغ بغتةً في الممشى البحري، في مواجهة ظهيرة رمادية لا محدودة تحلّق فيها نوارس انتحارية بين رذاذ المطر. كان رجلٌ هاديء ووحيد، بمعطفٍ داكنٍ وقبعة مائلة على وجهه، ينظر إلى البحر كأنه يتأمل نهاية العالم. وفي مواجهته، على الجانب الآخر من الإفريز، كانت الأمواج تقفز فوق الحواجز في انفجاراتٍ عالية من الزبد. اعتقد بيرالبو أنه رأى الرجل يُحيط سيجارةً بيده المجوفة ليحميها من الريح. فكر: أنا هذا الرجل. كان البار الذي واعدته فيه لوكريثيا فوق جرفٍ يدخل في البحر. رأى وميض نوافذه الزجاجية عند دوران منحى. فجأة صارت الدقيقتان الباقيتان قبل أن يتوقّف التاكسي تسعان كلّ حياة بيرالبو. فوق ذرى الأمواج الرمادية تتأرجح نوارس ساكنة. وعند رؤيتها من نافذة السيارة تذكر بيرالبو الرجل ذا المعطف الداكن: يشترك معها في اللامبالاة تجاه الكارثة. لكن تلك كانت طريقة لعدم التفكير في الحقيقة المفزعة أن أمامه ثوانٍ قبل أن

يقابل لوكريثيا. توقف سائق التاكسي على جانب الممشى وظل ينظر إلى بيرالبو في المرأة الخلفية. "لا جايوتا"، قال بما يشبه الوقار: "وصلنا."

برغم النوافذ الزجاجية الضخمة في العمق، كانت تسود لا جايوتا ظلمة لقاءات سرية، ويسكي في غير أوقاته وإدمان كحول متعقل. انفتحت الأبواب الأوتوماتيكية بصمتٍ أمام بيرالبو. رأى طاولات نظيفة ومهجورة بمفرش ذات مربعات، ومنصة بارٍ بالغة الضخامة لا يجلس عليها أحد. وعلى الجانب الآخر من النوافذ الزجاجية كانت الجزيرة التي يتوجها الفئار، وخلفها البعد الرمادي للمنحدرات والبحر، الأخضر الغامق لحواف الجبال يقطعها الضباب. يهدوء، كأنه آخر، تذكر أغنية: **ستورمي ويندر Stormy weather**. وجعله هذا يتذكر لوكريثيا.

فكر أنه وصل متأخراً: أنه أخطأ في موعدٍ أو مكان اللقاء. جانبياً على خلفية المنظر البعيد الذي تُعكّره أحيانا طرطشة الزبد كانت امرأة تدخن أمام كأسٍ عريضٍ وشفاف لا تشرب منه. كان الشعر البالغ الطول والنظارة الداكنة يحجبان وجهها. نهضت واقفةً، وتركت النظارة على الطاولة. "لوكريثيا"، قال بيرالبو، وهو لا يكاد يتحرك، لكنه لم يكن يناديها، كان يُسمّيها غير مُصدّقٍ.

أنا لا أتخيلُ هذه الأشياء، لا أفقّش عن تفاصيلها في الكلمات التي قالها لي بيرالبو. أنا أراها كأنما من بعيدٍ جداً، بدقةٍ لا تدينُ لا للرغبة ولا للذاكرة. أرى بطءً عناقهما خلف نوافذ لا جايوتا الزجاجية، في الضوء الشاحب لتلك الظهيرة في سان سباستيان، كأتي في تلك اللحظة كنت أمشي في الممشى البحري ورأيت خلصةً أن رجلاً وامرأةً يتعانقان في بارٍ

مهجور. أرى كلّ شيءٍ انطلاقا من المستقبل، من ليالي الشك والكحول في فندق بيرالبو، حين قصّ عليّ عودة لوكريثيا محاولاً إضفاء الفتور عليها بتهمك يكذّبه تعبير عينيه، والمسدس الذي يبقيه على الكومودينو.

حين عانق لوكريثيا لاحظ في شعرها رائحةً غريبة عليه. ابتعد لينظر إليها جيدا ولم يكن ما رآه هو الوجه الذي أنكرته ذاكرته خلال ثلاث سنواتٍ ولا العنان اللتان لم يستطع الآن أيضا تحديد لونهما، بل اليقين الخالص للزمن: كانت أشد نحافةً بكثير من حينها وكان شعرها الداكن والشحوب المرهق للوجنتين يُرهفان تقاطيعها. وجهُ المرء هو نبوءةٌ تنتهي دوما بالتحقق. وبدا له وجه لوكريثيا أشدّ مجهوليّةً وأشدّ جمالا من أي وقتٍ مضى لأنه ينطوي على علامات اكتمالٍ كان يُعلنُ عن نفسه فحسبٍ منذ ثلاث سنوات وحين تحقّق جعل حبّ بيرالبو يتكشف أمامه. في زمنٍ آخر اعتادت لوكريثيا أن ترتدي ألوانا حيّة وتقصّ شعرها دائما على ارتفاع الكتفين. والآن كانت ترتدي سروالا أسودَ بالغ الضيق، يؤكّد نحافتها، وسترةً مطرٍ رمادية موجزة. الآن تدخن سجائر أمريكية وتشربُ أسرع من بيرالبو، متعجلةً الكؤوس بإرادة ذكورية. راقبت كلّ شيءٍ من وراء زجاج نظارتها الداكن: انفجرت في الضحك حين سألتها بيرالبو ماذا تعني كلمة **بورما**. لا شيء، قالت، مكانٌ في لشبونة: استخدمت ظهر تلك الخريطة المنسوخة لأنها راقها أن تكُتّب له ولم تجد ورقا.

- ولم يعد يروك - قال بيرالبو، مبتسما، كي يخفّف الشكوى غير المجدية، اللوم الذي تلمّسه هو في صوته.

- كلّ الأيام. - أزاحت لوكريثيا شعرها إلى الوراء، ممسكةً به بيديها المتكئتين على فوديهما. - كل الأيام وكل الساعات لم أفكر سوى في الكتابة إليك. كنت أكتب لك ولو لم أفعل. كنت أحكي لك كل الأشياء بقدر ما تحدثُ لي. كلها، بما في ذلك أسوأها. بما فيها تلك التي كنت أود أنا ألاّ أعرفها. أنت أيضا كفتت عن الكتابة لي.

- فقط حين أعادوا إليّ رسالة

- رحلتُ من برلين.

- في يناير؟

- كيف عرفت؟ - ابتسمت لوكريثيا: كانت تعبثُ بسيجارة دون أن تشعلها، وبنظارتها. في نظرتها المنتبهة كان ثمة مسافةً أكثر حسماً ورماديةً من المدينة الممتدة على الخليج، المبعثرة خلف المنحدرات والشبورة.

- رآك بيلي سوان حينها. تذكّري.

- أنت تتذكر كل شيء. دائماً ما أخافتنِي ذاكرتك.

- لم تخبريني أنك تفكرين في الانفصال عن مالكولم.

- لم أفكر في الأمر: ذات صباح استيقظتُ وفعلتها. لم يتمكن من تصديق ذلك حتى الآن.

- هل مازال في برلين؟

- أفترض. - في نظرة لوكريشيا كان ثمة لأول مرة عزيمة تجهلُ الشك والخوف: وكذلك الشفقة، فكر بيرالبو -. لكنني لم أعرف عنه شيئاً من حينها.

- إلى أين ذهبتِ ؟ - أخاف بيرالبو أن يسأل. لاحظ أنه سيصلُ إلى حدٍ لن يتجاسر بعده على الماضي قدما. دون تجنُّب نظرتَه التزمت لوكريشيا الصمت: كان بإمكانها نفي شيءٍ دون أن تقول لا ولا أن تحرك رأسها، بمجرد النظر بثبات في العين.

- أردتُ أن أذهبَ إلى أي مكان لا يكون فيه. لا هو ولا أصدقاؤه.  
- كان أحدهم هنا - قال بيرالبو ببطء -. توسان مورتون.

قامت لوكريشيا بإيماءة انزعاجٍ هينةٍ جدا لم تبلغ حدَّ التأثير في نظرتها ولا في الخط الرفيع والوردي لشفثيها. للحظةٍ نظرت حولها كأنها تخشى أن ترى توسان مورتون جالسا على طاولة قريبة، أو متكئا بمرفقيه على منصة البار، مبتسما خلف دخان واحدٍ من سيجاراته القصيرة المفلطحة.

- هذا الصيف، في يوليو - استمر بيرالبو -. كان يظن أنك في سان سباستيان. أخبرني أنكما صديقان حميان.

- ليس صديقاً لأحد، ولا حتى لمالكولم.

- كان متأكداً أننا أنت وأنا نحيا سويا - قال بيرالبو بسوداوية وحياء، وغيرٍ من لهجته على الفور -. هل له أشغالٌ مع مالكولم؟

- يعمل وحيدا، مع سكرتيرته تلك، دافنى. كان مالكولم نوعاً من الأجير. كان مالكولم دوماً بنصف أهمية ما كان يعتقد أنه هو.

- هل هددك؟

- مالكولم؟

- حين قلت له أنك راحلة.

- لم يقل شيئاً. لم يصدق. لم يستطع تصديق أن تهجره امرأة. سيكون مازال ينتظرني.

- بدا لبيلي سوان أنك خائفة من شيء حين ذهبت لرؤيته.

- بيلي سوان يشرب كثيراً. - ابتسمت لوكريثيا بطريقةٍ يجهلها بيرالبو:

كانت مثل طريقتها في تعجل شراب أو الإمساك بسيجارة، علامات على الزمن، على الغرابة الفاترة، على ولاءٍ قديم تبدد في الفراغ. - لن تتخيلَ بهجتي حين عرفت أنه في برلين. لم أرد أن أسمعُه يعزف، فقط أن يحدثني عنك.

- هو الآن في كوبنهاجن. طلبني ذاك اليوم: لم يشرب منذ ستة أشهر.

- لماذا لستَ معه؟

- كان عليّ أن أنتظر.

- لن أبقى في سان سباستيان.

- ولا أنا. الآن يمكنني الرحيل.

- لم تكن حتى تعرف أنتي سأعود.

- الأرجح أنك لم تعودتي.

- أنا هنا. أنا لوكريثيا. وأنت سانتياجو بيرالبو.

مدّت لوكريثيا يديها فوق الطاولة حتى وحدّتها بيدي بيرالبو، اللتين بقيتا ساكنتين. لمست وجهه وشعره كأنما لتتعرّف عليه بيقينٍ لم تحقّقه النظرة. ربما لم تحرّك مشاعرهما الرقة، بل الإحساس بئتم متبادل. وبعد عامين، في لشبونة، خلال ليلةٍ وفجر شتائين، سيتعلم بيرالبو أن هذا هو الشيء الوحيد الذي سيربط بينهما دوماً، لا الرغبة ولا الذاكرة، بل الهجران، بل اليقين من كونهما وحيدين ولا يملكان حتى عذر الحب الفاشل.

نظرت لوكريثيا في ساعتها. لم تقل بعد أن عليها أن تنصرف. كانت هذه تقريباً هي الإيماءة الوحيدة التي تعرّف عليها، القلق الوحيد من زمن آخر الذي استعاده برمته. لكن مالكولم غير موجود الآن، ما من سبب للسريّة والعجلة. أخذت لوكريثيا السجائر والولاعة ووضعت نظارتها.

- هل مازلت تعرّف في الليدي بيرد؟

- على الإطلاق تقريباً. لكن سأعزّف الليلة إذا أردت. سيسرّ فلورو بلووم أن يراك. دائماً ما يسألني عنك.

- لا أريد الذهاب إلى الليدي بيرد - قالت لوكريثيا، وقد وقفت، وهي ترفع سوستة سترة المطر -. لا أريد الذهاب إلى أي مكان يذكرني بتلك الأيام.

لم يُقَبَّلَا بعضهما عند الوداع. ومثلما منذ ثلاث سنوات، رأى بيرالبو كيف يبتعدُ التاكسي الذي تركبه، لكن هذه المرة لم تستدِر لوكريشيا لتواصل النظرَ إليه من النافذة الخلفية.

هوامش:

(1) La Gaviota لا جايوتا: النورس.

## الفصل الثامن

عاد ببطءٍ إلى المدينة، سائراً بجوار إفريز الممشى البحري، يُبلِّله أحياناً الزبد البارد المتناثر من حواجز الأمواج. كان الرجل ذو المعطف الداكن والقبعة مازال في نفس المكان، ربما ينظر إلى النوارس. من درج متحف الأحياء المائية هبطَ إلى ميناء الصيادين، مُشَتَّت الذهن، جائعاً، ثملاً بعض الشيء، مدفوعاً بتسامٍ معنوي لا يُشبه لا السعادة ولا الشقاء، بل سابقٍ عليهما وغير مباليٍّ بهما، مثل الرغبة في تناول طعامٍ أو تدخين سيجارة. وبينما يسير مضي يتلو بصوتٍ خفيض آياتٍ أغنيةٍ كانت لوكريثيا قد فصلتها دوماً وكانت إشارة خفية وإعلاناً وقفاً بالحب حين كانت تدخل هي ومالكولم إلى الليدي بيرد ويبدأ بيرالبو في عزفها، ليس بكاملها، بل مُلَمَّحاً إليها، مُبعثراً بضع نغماتٍ أكيدةٍ منها في لحنٍ آخر. اكتشفَ أن تلك الموسيقى لم تعد تُثير عواطفه، أنها لم تكن تشير إلى لوكريثيا ولا إلى الماضي، ولا حتى إليه هو ذاته. تذكر شيئاً قاله له بيلي سوان: "نحن لا نهتمُّ الموسيقى. لا يهمها الألم أو الحماس اللذين نضعهما فيها حين نعزفها أو نستمع إليها. إنها تستغلُّنا، مثلما تستغل امرأة عاشقاً يتركها باردةً."

تلك الليلة كان سيتعشى مع لوكريثيا. "خذني إلى مكانٍ جديد"، قالت له، "مكانٍ لا أكون قد زرته أبداً". قالت ذلك كأنها تطلب لا مطعماً، بل بلداً مجهولاً، لكن تلك كانت الطريقة التي تحدثت بها دوماً، واضحة نوعاً من التوق البطولي والرغبة المستحيلة في أشد فصول حياتها ابتداءً. في التاسعة

سيعاود رؤيتها، وقد دوت لتوها ضرباتُ الثالثة في الأبراج القريبة لكنيسة سانتا ماريّا دل مار: من جديد صار الزمن بالنسبة لبيرالبو مكانا خائفا، مثل غرف الفنادق التي كان منذ ثلاث سنوات يتقابل فيها مع لوكريثيا حين كانت تنصرف وتتركه وحيدا في مواجهه الفراش المبعثر والبحر الساكن الذي يراه من النافذة، بحر سان سباستيان ذاك الذي في أصائل الشتاء، على البعد، يشبه لوحةً رأسيّةً من الاردواز. تمشّى عبر البواكي، بين الشباك المكوّمة وصناديق السمك الفارغة، ووجد عزاءً غامضا في ألوان المنازل، التي يخففها رماديّ الهواء، في الواجحات الزرقاء، في المصاريح الخضراء أو المحمّرة للنوافذ، في الخط المرتفع للأسقف التي تمتد صوب تلال الخلفية. كأن عودةً لوكريثيا تُتيح له من جديد أن يرى المدينة، التي لم تكد توجدُ أمام حدّقيه بينما كانت هي غائبة. حتى الصمت الذي يُكشف خطواته والروائح المستعادة للميناء كانا يؤكّدان قرب لوكريثيا.

لا يتذكر هو أننا تناولنا الغداء معا ذلك اليوم. كنْتُ مع فلورو بلووم في إحدى حانات الحي العتيق ورأيتُه يدخل، بطيئا وشاردا، بشعرٍ مبتل، ويجلسُ على طاولةٍ في الخلفية. "خادم الفاتيكان المطيع لم يعد يُريد التعامل مع منبوزي العالم"، قال فلورو بلووم بصوتٍ مسموع، مستديرا نحوه، ولم يكن قد رآنا. أحضر سطل البيرة وجلس معنا، لكنه لم يكّد يقول شيئا خلال الغداء. أعرفُ أنه ذلك اليوم بالضبط لأنه تورّد تورّدا خفيفاً حين سأله فلورو إن كان مريضاً حقا: فذلك الصباح كان قد طلب المدرسة ليتكلم معه فأخبره شخصٌ - "صوت كنسي" - أن الدون سانتياجو بيرالبو قد تخلف عن الدراسة لأنه متوعك. "متوعك"، شدّد فلورو بلووم "لا يخطر إلا لراهبية في

يومنا هذا أن تستخدم تلك الكلمة". أكل بيرالبو بسرعة، واعتذر عن تناول القهوة معنا: يجب أن ينصرف، فدرسه الأول في الساعة الرابعة. وحين خرج من البار، هز فلورو بلووم بتثاقل رأسه، رأس الدب. "هو يُنكر"، قال لي، "لكنني متأكد أن أولئك الراهبات يجبرنه على تلاوة التسايح".

كذلك لم يذهب إلى العمل ذلك المساء. في الفترة الأخيرة، بقدر ما كان يفقد الإيمان بمستقبله كموسيقي ويتعود على مهانة تعليم الصولفيج، كان يكتشف في نفسه استعداداً لا محدوداً للوداعة والانحطاط تبّدد بعنف خلال بضع ساعات. ليس الأمر أنه لم يعد يخشى الطرد من المدرسة: فمنذ أن رأى لوكريثيا بدا وكأن آخر هو من يتعرّض لذلك الخطر، هو من ينهض مبكراً كل الأيام بوداعة ويستطيع التوافق مع التدريب مع تلميذاته على أغنية دينية. طلب المدرسة: وربما تمّنى له الشفاء العاجل بتشكك وبرود نفس الصوت الكنسي الذي جدّد في فلورو بلووم غريزة موروثه لتدنيس الأديرة. لم يهتم، ففي كونهاجن كان بيلي سوان ما زال ينتظره، قريباً جداً سيحين الوقت لبدء حياة جديدة، الحياة الجديدة، الحقيقية، تلك التي أعلنتها له الموسيقى دوماً كتجسيدٍ مُسبقٍ لشيءٍ لم يعرفه بصورة ملموسة إلا حين كشفته له عينا لوكريثيا المتحمستان. فكر أنه لم يتعلم عزف البيانو حين فعل ذلك إلا كي تسمعه هي وترغبه: أنه لو حقق ذات مرة امتياز الكمال فسيكون ذلك ولاءً للمستقبل الذي تنبأت له به لوكريثيا في أول ليلة تسمعه يعزف في الليدي بيرد، حين لم يكن يُفكر هو نفسه أنه يمكنه أن يُشبه يوماً ما موسيقياً حقيقياً، أن يشبه بيلي سوان.

- هي اخترعتني - قال بيرالبو في إحدى الليالي الأخيرة، حين لم نعد نذهب إلى المتروبوليتانو - لم أكن جيداً بقدر ما كانت تعتقد، لم أكن أستحق حماسها. من يدري، الأرجح أنني تعلّمتُ حتى لا تنتبه لوكريثيا أبداً إلى أنني كنتُ محتالاً.

- لا يمكنُ لأحدٍ أن يخترعنا. - عند قول ذلك شعرت أنه ربما كان لعنةٌ - كنت تعزفُ البيانو منذ سنواتٍ طويلةٍ حين عرفتُها - كان فلورو يقول دائماً أن بيلى سوان هو من جعلك تعرفُ أنك موسيقي.

- بيلى سوان أو لوكريثيا. - مضطجعا على سرير الفندق، هز بيرالبو كتفيه، كأنه يشعر بالبرد - الأمر سواء. حينها كنت أوجدُ فقط حين يفكر في أحد.

خطر لي أن هذا لو كان صحيحاً فأنا لم أوجد قط، لكنني لم أقل شيئاً. سألت بيرالبو عن ذلك العشاء مع لوكريثيا: أين كانا، عن ماذا تحدّثا. لكنه لم يتذكر الاسمَ الدقيق للمكان، كان الألم قد محّات تلك الليلة تقريباً من ذاكرته، ولم يتبق فيها سوى الوحدة النهائية والرحلة الطويلة في التاكسي الذي حمّله إلى منزله، الطريق المضاء بالأعمدة، الصمت، دخان سجايره، النوافذ المضاءة في المباني المنفردة على التلال، بين الضباب الأغبر. هكذا دوماً كان الجزء من حياته المرتبط بلوكريثيا: شطرنجاً من رحلات الفرار والتاكسيات، رحلةً ليلية في الفضاء الفارغ لما لم يحدث أبداً. إذ لم يحدث في تلك الليلة شيءٌ لم يتنبأ له به مسبقاً حسّه القديم بالإخفاق، خواء معدته: وحيداً، في منزله، يستمع إلى اسطواناتٍ لم تعد تجلبُ له يقينَ السعادة، كان يُمشط شعره أمام المرأة أو

يختار ربطه عنق كأنه لم يكن هو بالضبط من واعد لوكريثيا، كأنها لم تعد في الحقيقة.

كانت قد استأجرت شقة في مواجهة المحطة، شقة ذات غرفتين خاويتين تقريبا يظهر من نوافذهما المجرى الداكن للنهر تطوّقه ممرات أشجار الحور والقناطر الأخيرة. عند الساعة الثامنة كان بيرالبو قد صار قريبا جدا من المدخل، لكنه لم يحسم أمره للصعود، ظل برهة ينظر إلى إعلانات سينما ثم ذرع البواكي الظليلة لسان تلمو منتظرا دون جدوى أن تمر الدقائق بينما، قريبا جدا، على الجانب الآخر من الشارع، في الظلام، تتقاذز الأمواج على سياج الممشى البحري بلمعان الفوسفور.

وعندما نظر إليها عرف لماذا انتابه الشعور بأنه قد عاش بالفعل ليلة مماثلة: كان قد حلم بها، قد سار هكذا في أحد أحلامه بالمدن الليلية، كان سيحقق شيئا حدث له بصورة غريبة خلال غياب لوكريثيا ولا يمكن استعادته.

صعد في النهاية. أمام بابٍ مُعادٍ رنّ الجرس عدة مرات قبل أن تفتح له. سمعها تعتذر عن قذارة الشقة والغرفتين الفارغتين، وانتظرها وقتا طويلا في قاعة الطعام، حيث لا يوجد سوى مقعد وآلة كتابة، وهو يسمع وشيش الدش، ويتفحص الكتب المرصوفة على الأرض، مستندة إلى الحائط. كان ثمة صناديق كرتون، ومنفضة سجائر مليئة بالأعقاب، ومدفأة مطفأة. وفوقها، حقيبة سوداء نصف مفتوحة. تخيل أنها نفس الحقيبة التي احتفظت فيها بالرسالة التي سلمتها لبيلي سوان. كانت لوكريثيا لا تزال في الحمام، حيث تُسمع طقطقة الماء على الستارة البلاستيكية. فتح بيرالبو الحقيبة على آخرها،

شاعرا شعورا خفيفاً بالدناءة. مناديل ورقية، أصبع أحمر شفاه، مفكرة مليئة بملاحظات بالألمانية بدت ليرالبو بصورة مؤلمة أنها عناوين رجال آخرين، مسدس، حافظة صغيرة بها صور فوتوغرافية: في واحدة منها، أمام غابة من أشجار صفراء، كانت لوكريثيا، بستر طويلة زرقاء، تترك رجلا بالغ الطول يحتضنها، مسندا يديه على خصرها. وكذلك رسالة استغرب بيرالبو أن يتعرف فيها على خطه هو، ولوحة مطوية بعناية، هي نسخة من لوحة: منزل، وطريق، وجبل أزرق ينبثق بين الأشجار. متأخرا جدا، انتبه إلى أنه لم يعد يسمع خرير الدش. كانت لوكريثيا تنظر إليه من العتبة، حافية، بشعر مبلول، ملفوفة في برنس لا يغطي ركبتيها. عيناها تلمعان وجلدها وتبدو أنحف: الخجل وحده هو ما خفف رغبة بيرالبو.

- كنت أبحث عن سبائر - قال، والحقيقة لا تزال في يديه. اقتربت منه لوكريثيا بضع خطوات لتأخذها وأشارت إلى علبة سبائر بجوار الآلة الكاتبة. كانت تفوح منها بقوة رائحة الصابون والكولونيا، رائحة جلدٍ عارٍ ورطب تحت نسيج البرنس الأزرق.

- كان مالكولم يفعل هذا - قالت - كان يفتش حقيتي حين أكون في الحمام. وذات مرة انتظرتُ أن ينام كي أكتب لك رسالة. ثم مزقتها إلى نتفٍ صغيرة جداً وأويت إلى الفراش. أتعرف ماذا فعل؟ نهض، ومضى يبحث في سلة الأوراق وعلى الأرض، وجمع واحدة فواحدة كل القطع حتى أعاد تجميع الرسالة. استغرق الليل كله. عمل بلا جدوى، كانت رسالة عبثية. ولذا مزقتها.

- قال لي بيلى سوان أنك تملكين مسدسا.

- ونسخة لوحة لسيزان. - طوتها لوكريثيا لتحفظها في الحقيبة - هل قال لك ذلك أيضا؟

- هل كان مسدس مالكولم؟

- انتزعتُه منه. كان كل ما حملته عند رحيلي.

- كنتِ تخافينه إذن.

لم تردّ لوكريثيا. ظلت لحظة تنظر إليه باستغرابٍ ورقةٍ، كأنها بدورها لم تعتد بعد على حضوره، على ذلك المكان المهجور الذي لا ينتمي إليه أيّ منهما. كانت الأباجرة الوحيدة في الغرفة على الأرض وتطيل ظلالهما بشكل مائلٍ. حاملةً الحقيبة معها، اختفت لوكريثيا وراء باب غرفة النوم. اعتقد بيرالبو أنه سمعها تُغلقه بالمفتاح. متكئا بمرفقه على النافذة نظر إلى خط النهر وأضواء المدينة راغباً في أن يُبعد عن خياله الحقيقة غير المفهومة لكون لوكريثيا، على بعد خطواتٍ منه، خلف الباب المغلق، ربما جلست على الفراش، مُعطرةً وعارية، لترتدي جواربها، وثيابها الحميمة الموجزة التي يؤكد تضادها في الظلمة اللونَ الوردى والأبيض لجلدها.

من تلك النافذة بدت له المدينة أخرى: متألقة، داكنة مثل تلك البرلين التي ظل خلال ثلاث سنوات يراها في أحلامه، يُطوّقها الليلُ بلا أضواءٍ والخطُ الأبيض للبحر. "نحلم بنفس المدينة"، كتبت له لوكريثيا في واحدة من رسائلها الأخيرة، "لكنني أدعوها سان سباستيان وأنت تدعوها برلين".

الآن تدعوها لشبونة: دائماً، قبل أن ترحل إلى برلين بكثير، منذ أن عرفها بيرالبو، كانت لوكريثيا تحيا في لاطمأنينةٍ وشكٍ أن حياتها الحقيقية

تنتظرها في مدينة أخرى وبين أناس مجهولين، وكان هذا يجعلها تنتكّر بصورة صمّاء للأماكن التي توجد فيها وتنطق بياأس ورغبة أسماء مدنٍ فيها دون شكٍ سيُتحقّق مصيرها إذا زارتها ذات مرة. خلال أعوامٍ كان يمكنها التخلي عن كل شيءٍ مقابل أن تحيا في براغ، في نيويورك، في برلين، في فيينا. والآن كان الاسم هو لشبونة. كانت لديها كتيباتٌ ملونة، وقصاصات صحف، وقاموس للغة البرتغالية، وخريطة ضخمة للشبونة لم يجد بيرالبو مكتوبا فيها كلمة **بورما**. "يجب أن أذهب بأسرع ما يمكن"، قالت له تلك الليلة، "إنها مثل نهاية العالم، تخيل ما يشعر به البحارة القدماء حين يتوغلون في أعالي البحار ولا يعودون يرون الأرض".

- سأذهب معك - قال بيرالبو - ألا تذكرين ؟ من قبل تحدثنا دوما عن الهروب معاً إلى مدينةٍ أجنبية.

- لكنك لم تتحرك من سان سباستيان.

- كنت أنتظرُ لأُحقّق وعدي.

- لا يمكن انتظار كلِّ هذا الوقت.

- أنا استطعتُ.

- لم أطلب منك ذلك أبداً.

- وكذلك لم أطرحه أنا على نفسي. لكن ذلك لا علاقة له بالإرادة. في

النهاية، خلال هذه الشهور الأخيرة، اعتقدتُ أنني لم أكن أنتظرُك، لكن لم يكن هذا مؤكداً. أنا أنتظرُك حتى في هذه اللحظة.

- لا أريدك أن تفعل.

- قولي لي إذن لماذا عدت.

- أنا عابرة. أنا ذاهبة إلى لشبونة.

ألاحظُ في هذه الحكاية أن الأسماء تكادُ تكونُ كلَّ ما يحدث: اسم لشبونة واسم لوكريثيا، وعنوان تلك الأغنية الضباية التي ما زلت أستمع إليها. الأسماء، مثل الموسيقى، كما قال لي بيرالبو ذات مرةً بحكمة كَأَس الجين الثالثة أو الرابعة، تنتزعُ من الزمن الكائنات والأماكن التي تُشير إليها، تؤسِّس الحاضرَ دون أسلحةٍ أخرى بخلاف سر صوتيتها. لهذا السبب استطاع أن يؤلِّف الأغنية دون أن يزور لشبونة على الإطلاق: وُجِدَت المدينة قبل أن يزورها مثلما توجد الآن بالنسبة لي، أنا الذي لم أرها، ورديةً وصفراء عند الظهيرة، يغمرها ضبابٌ خفيف مقابل تَأَلَّقِ البحر، مُعَطَّرَةٌ بمقاطع اسمها مثلما بنَفَسِ داكن، لشبونة، بنغمية اسم لوكريثيا. لكن من الضروري التخلص حتى من الأسماء، أكد بيرالبو، لأن في داخلها أيضا تكمن إمكانية سريةً للذكرى، ويجب انتزاعها تماما كي يمكننا العيش، كما قال، كي نخرج إلى الشارع ونسير نحو مقهى كأننا أحياءُ حقا.

لكن تلك كانت إحدى الأشياء الأخرى التي لم يبدأ في تعلّمها إلا بعد عودة لوكريثيا، في أعقاب تلك الليلة البطيئة من الكلمات والكحول التي عرف فيها بغتة أنه قد فقدَ كلَّ شيء، أنه قد انتزع منه الحق في البقاء في ذاكرة ما لم يعد موجودا. شربا في بارٍ متباعدة، في نفس البارات التي كانا يرتادانها منذ ثلاث سنوات ليختبئا من مالکولم، وأتاح لهما الجين والنبيد

الأبيض أن يستعيدا اللعبة القديمة للتظاهر والتهكم، للكلمات التي تُقال كأنها لا تقال وللصمت الذي تغفره نظرة واحدة أو حدث متزامنٌ يثيرُ ضحكاً وامتنان لوكريثيا حين تسيرُ مُتعلقةً بطريقةٍ شبه زوجيةٍ بذراع بيرالبو أو تنظرُ إليه في صمتٍ على منصة بار. كان الضحك قد أنقذهما دوماً: أناقة انتحارية للسخرية من نفسيهما كانت هي القناع المتبادل والمتضامن لليأس، لهلع مزدوج يظل فيه كل واحدٍ منهما بصورةٍ لا نهائية وحيداً، ومُداناً، وضائعاً.

من منحدر واحدٍ من الجبلين المتماثلين اللذين يُغلقان الخليج، الهاديء والليلي مثل بحيرة، نظرا إلى المدينة، من مكانٍ ذي شموعٍ، وأدوات مائدة فضية، ونُدُلٍ يظلمون ساكنين في الظلمة، بأيدي مكتوفةٍ فوق مآزرهم الطويلة البيضاء. بيرالبو، أيضاً، كان يحب الأماكن، شريطة أن تكون فيها لوكريثيا، يحب في كل دقيقة امتلاء الزمن بالبُخل الهاديء لمن يكون أمامه لأول مرة ساعاتٍ ونقودٌ أكثر من كل ما تجاسر على تشوّقه. مثل المدينة على الجانب الآخر من النوافذ، بدا أن الليلَ بكامله يُقدّم نفسه بلا حدود، مُراً بعض الشيء، داكناً وليس ملائماً تماماً، لكنه حقيقيٌّ، ممكن البلوغ، معروفٌ ومَشوبٌ مثل وجه لوكريثيا. كانا آخرين: قبلاً أن يكونا كذلك، أن يتبادلا النظر كأنهما يريان بعضهما للمرة الأولى، ألاّ يستحضرا اللهب المقدس الذي أفسده البعاد، أن يُدينا الحنين، فقد كان مؤكداً أن الزمن قد جعلهما أفضل وأن الولاء لم يكن عبثاً. فهم بيرالبو بصورةٍ صادمةٍ أن شيئاً من ذلك لن يُنقذه، أن الإقرارَ المتبادل والنَّهم لا يستبعدُ الدلائل القاسية للوحدة: بل إنه يؤكدها، كحكمةٍ سوداوية. فكر: "أرغبها إلى حدّ أنني لا يمكن أن أفقدها." عند ذلك عاودَ إخبارها بأنه سيأخذها إلى لشبونة.

- لكنك لا تنتبه - قالت لوكريثيا برقة، كأن الشموع والظلمة يُلينان صوتها - يجب أن أذهب وحدي.

- قولي إن كان أحدٌ ينتظرُك هناك.

- ما من أحدٍ، لكن هذا لا يهم.

- بورما هو اسم بار؟

- هل قال لك ذلك توسان مورتون؟

- قال لي أنك هجرتِ مالكولم لأنك لا زلت مغرمةً بي.

نظرت إليه لوكريثيا من وراء دخان السجائر الأزرق والرمادي كأنما من الطرف الآخر للعالم: وأيضا كأنها بداخله ويمكنها أن ترى نفسها من حدقتي بيرالبو.

- أَيْكون الليدي بيرد ما زال مفتوحا؟ - قالت، لكن ربما لم يكن ذلك ما أرادت قوله.

- لكنك لم تُريدي أن نذهب.

- الآن نعم. أريد أن أسمعكَ تعزف.

- لدي في المنزل بيانو وزجاجة بوربون.

- أود أن أسمعكَ في الليدي بيرد. أَيْكون فلورو بلووم هناك؟

- في هذه الساعة سيكون قد أغلق. لكن لدي مفتاح.

- خذني إلى الليدي بيرد.

- سأخذك إلى لشبونة. حين تريدين، غدا، هذه الليلة. سأترك المدرسة. فلورو على حق: يجعلونني آخذ التلميذات إلى القدّاس.

- لنذهب إلى الليدي بيرد. أريدك أن تعزف تلك الأغنية كل ما تكونين من أشياء.

في الثانية صباحا تركهما تاكسي على باب الليدي بيرد. كان مغلقا، بالطبع، كنا أنا وفلورو بلووم قد انصرفنا في الواحدة، بعد أن انتظرنا عبثا أن يصل بيرالبو. ربما وقعت لوكريثيا أيضا في أحبولة ابتزاز الزمن. ساكنة على الرصيف، رافعة ياقة سترتها الزرقاء لتدفع عنها الرطوبة والرذاذ، طلبت من بيرالبو أن يترك لافتة النيون مضاءة لبضع دقائق، فصبغت بألوانٍ وردية وزرقاء الطوارِ المبتل، ووجه لوكريثيا، الأشدّ شحوبا تحت الأضواء الليلية. في الظلمة كان الليدي بيرد يفوح برائحة جراحٍ وقبوٍ ودخانٍ تبغ. أطلا دون عقابٍ لعبة الماضي مثلما في ديكورٍ مسرحٍ خالٍ. قدم بيرالبو الكأسين، ورتب الأضواء، ونظر إلى لوكريثيا من منصة البيانو: كأنما طهرتها الذاكرة، تتابعت الأشياء بطريقةٍ حاسمةٍ ومجرّدة، مضي ليعزف وهي، مثل ليالٍ أخرى نائية، استعدت للاستماع إليه من منصة البار ممسكة بكأس، لكن لم يكن هناك شيءٌ أو أحدٌ آخر، مثلما في الذكرى المشوهة لحلم. لأنهما قد وُلدا ليصبحا طريدين، أحبّا الأفلام دائما، والموسيقى، والمدن الأجنبية. اتكأت لوكريثيا بمرفقها على منصة البار، وجربت الويسكي وقالت، ساخرة من نفسها ومن بيرالبو ومما كانت على وشك أن تقول وعاشقة له قبل كل شيء:

- اعزفها مرةً أخرى. اعزفها مرةً أخرى من أجلي.

- سام - قال هو، حاسباً الضحكة والتواطؤ - سامتياجو بيرالبو.

كانت أصابعه باردة، كان قد شرب كثيراً بحيث حكمت سرعته  
الموسيقى في خياله على يديه بهوّر شديد الشبه بالخوف. فوق لوحة  
المفاتيح، مُنبعثتان من السطح الأسود اللامع، كانت يدان وحيدتان  
وتلقائيتان تنتميان إلى آخر، إلى لا أحد. خاطر بتشككٍ يبضع نغمات، لكن لم  
يتسع له الوقت ليرسم الشكل الكامل للحن. بالكأس في يدها اقتربت منه  
لوكريثيا، أشد طولا وتمهلاً فوق الكعب العالي.

- عزفت لكِ دوماً - قال بيرالبو - حتى قبل أن نتعارف. حتى حين  
كنتِ في برلين وكنت أنا واثقا أنكِ لن تعودِي. الموسيقى التي أصنعها لا  
تهمّني إن لم تسمعها أنتِ.

- كان هذا قدرك. - ظلت لوكريثيا واقفةً أمام منصة البيانو، ثابتةً  
ونائية، على بعد خطوةٍ من بيرالبو - كنتُ أنا ذريعةً.

مُسبلاً عينيه حتى لا يقبل الحقيقة الخيفة التي رآها في عيني لوكريثيا،  
واصل بيرالبو مطلع تلك الأغنية، **كل ما تكونين من أشياء**، كأن الموسيقى ما  
زال بمقدورها أن تحميه أو تُنقذه. لكن لوكريثيا واصلت الكلام، اقتربت منه  
أكثر، قالت له أن ينتظر قليلاً. بحركة هادئة وضعت يدها على لوحة المفاتيح  
وطلبت منه أن ينظر إليها.

- لم تنظر إليّ بعد - قالت - لم تُرد أن تنظر إليّ بعد.

- لم أفعل شيئاً آخر منذ أن ناديتني. وقبل أن أراك كنتُ أتحيلك.

- لا أريدك أن تتخيلني. - وضعت لوكريثيا سيجارة بين شفتيها  
وأشعلتها دون أن تنتظر أن يشعلها هو. - أريدك أن تراني. أنظر إليّ: لستُ  
نفس من كانت حينئذ، لستُ من كانت في برلين وكانت تكتبُ لك رسائل.  
- تروقيني الآن أكثر. أنت أكثر واقعية من أي وقتٍ مضى.

- أنت لا تنتبه. - نظرت إليه لوكريثيا بحزنٍ من ينظرُ إلى مريض. - لا  
تنتبه أن الزمن قد مر. لا أسبوعاً ولا شهراً، بل ثلاث سنواتٍ كاملة،  
سانتياجو، أنا رحلتُ منذ ثلاث سنوات. قل لي كم يوماً كنّا معاً. قل لي.  
- قولي لي أنت لماذا أردت أن نأتي إلى الليدي بيرد

لكن لم يتلقَ جواباً لهذا السؤال. أدارت له لوكريثيا ظهرها ببطء  
وسارت نحو التليفون ويدها غائرتان في جيبي سترتها الطويلة، كأنها شعرت  
بالبرد. سمعها بيرالبو تطلب عربة تاكسي، نظر إليها دون أن يتحرك بينما تقول  
له وداعاً عند باب الليدي بيرد. من طرف البار إلى طرفه الآخر، في المسافة  
بين نظرتيهما، أدرك كل كلمةٍ بالغة البطءِ حجمَ وظلمةِ الهاوية الفارغة التي كان  
قادراً للمرة الأولى على قياسها، التي لم يكن حتى تلك الليلة وتلك المحادثة قد  
لمحها ولو لمحاً. غطي البيانو، غسل الكأسين في الحوض، أطفأ الأنوار. وعند  
خروجه إلى الشارع حين أسدل الستارة المعدنية لليدي بيرد استغرب ألاّ  
يكون الألم قد وصل بعد.

## الفصل التاسع

- أشباح - قال فلورو بلووم، متفحّصاً منفضة السجائر بمسح مُناولٍ غامضة، كأنه يمسك بطبق قربانٍ مقدس - بشفاه ملونة - وحاملاً في يده الأخرى كأساً دخل إلى المخزن مُغمماً ورأسه مُنكس وأذيال عباءته تخشخش بين ساقيه، تماماً مثلما يمر إلى غرفة المقدسات بعد تلاوة قداس. ترك المنفضة والكأس على منضدة الكتابة وفرك يديه بنعومة كهنوتية طاعية - أشباح - كرر، مشيراً لي بسبابة وقورة إلى الأعقاب الثلاثة المملطخة بالأحمر. بذقنٍ غير حليق وعباءة مفكوكة الأزرار عند الصدر بدا كخادم كنيسة فاسق - امرأة شبح. نافذة الصبرِ جدا. تشعل الكثير من السجائر وتتركها في المنتصف. *Phantom Lady*. هل رأيت ذلك الفيلم. كؤوس في الحوض. اثنان. أشباح ذات ضمير.

- بيرالبو؟

- ومن غيره. زائر الظلمات. - أفرغ فلورو بلوووم المنفضة وزرّر العباءة بطقسية، وتذوق بعدها جرعة من الويسكي - هذا هو عيب البارات حين تكون مفتوحة من زمنٍ طويل. تمتليء بالأشباح. يدخل المرء إلى دورة المياه فيجد شبحاً يغسل يديه. أرواحُ المطهر. - عاود الشرب، رافعا كأسه صوب علم الجمهورية - هيولى أشخاص.

- الأرجح أنها تخاف حين تراك بالعباءة.

- قماش درجة أولى. - رفع فلورو بلووم دون جهدٍ صندوق زجاجاتٍ كبير وحمله إلى منصة البار. - خياطة كنسية وعسكرية. هل تعلم كم من السنوات أملك هذه العباءة؟ ثماني عشرة. تفصيلٌ على المقاس. كانت الشيء الوحيد الذي أخذته حين طردوني من المدرسة اللاهوتية. مثالية كبالطو ورداء منزلي. ألدك ساعة؟

- الثامنة.

- إذن عليّ أن أبدأ في الفتح. - نزع فلورو العباءة بتنهيدة حزن. -  
أتساءل هل يأتي الفتى بيرالبو ليعزف الليلة. - من يكون قد جلب إلى هنا أمس؟

- امرأة شبحا وعفيفة. - رفع فلورو بلوم ستارةً وأراني سريرا نقلاً كنا أنا وهو نستخدمه أحيانا. - لم يرقد معها. هنا على الأقل. إذن هناك احتمال واحد: الجميلة لوكريثيا.

- إذن كنتما تعرفان - قال بيرالبو: مثلما يُدهش كل من عاش مستغرقا في عاطفةٍ مفرطة أن يكتشف أن الآخرين كانوا على علم بما كان بالنسبة له حالة حميمةٍ لوعيه. وكانت الدهشة أكبر لأنها اضطرتّه لتعديل ذكرى بعيدة. -  
لكن فلورو لم يقل لي شيئاً حينئذ.

- شعر بأنه مكلوم. "خونة"، كان يقول لي، "أنا الذي كنت ثالثهما في الأوقات السيئة والآن تختبئان مني".

- لم نكن نختبيء. - تكلم بيرالبو كما لو أن الألم ما زال يمسّه. - كانت هي تختبيء. أنا أيضا لم أكن أراها.

- لكن قمتما بتلك الرحلة سويا.

- لم أستطع إكمالها. تأخرت عاما في الذهاب إلى لشبونة.

ما زلت أستمع إلى الأغنية: مثل حكاية قصوها عليّ مراتٍ عديدة، أشكر كلّ تفصيلة وكلّ تمزّق وكلّ فخّ تنصبه لي الموسيقى، أميز الأصوات المتزامنة للترومبيت والبيانو، وأكاد أوجّهها، ففي كل لحظة أعرف ما سيرن على الفور، كأني أنا شخصا اخترع الأغنية والحكاية بقدر ما أستمع إليها، بطيئة وداكنة، كمحادثة يجري التلصص عليها من الجانب الآخر لباب، كذكرى ذلك الشتاء الأخير الذي قضيته في سان سباستيان. بالتأكيد، ثمّة مدنٌ ووجوهٌ يعرفها المرءُ فحسب ليفقدّها بعدها، لا يُعادُ إلينا شيءٌ أبداً، لا ما لم نملكه، ولا ما كنا نستحقّه.

- كان الأمر شبيهاً بالاستيقاظ قبل الأوان - قال بيرالبو - . مثلما تكون قد نمت في منتصف النهار وتستيقظ عند حلول الظلام ولا تتعرّف على الضوء ولا تعرف أين أنت، ولا من تكون. يحدث هذا للمرضى في المستشفيات، حكى لي ذلك بيلي سوان في تلك المصححة في لشبونة. استيقظ واعتقد أنه ميتٌ ويحلم بأنه حي، بأنه مازال بيلي سوان. مثلما في تلك الحكاية لأهل الكهف في إفسوس التي تعجب فلورو بلووم كثيراً، أتذكر؟ حين انصرفت لوكريثيا أطفأت أنوار الليدي بيرد وخرجتُ إلى الشارع؛ وفجأةً كانت قد مضت ثلاث سنوات، بالضبط حينها، خلال الدقائق الخمس الأخيرة. كنت أسمع صوتها يقول لي مراتٍ عديدة متتالية بينما أتجه إلى منزلي: "انقضت ثلاث سنوات." مازال يمكنني سماعها إذا أغمضت عيني.

قال أنه أكثر من الألم أو الوحدة استيقظ على مفاجأة عالم وزمن  
يفتقدان إلى الأصدقاء، كأنه من حينها يتوجب عليه أن يحيا للأبد داخل منزل  
مبطن بوسائد: كانت المدينة، والموسيقى، وذاكرته، وحياته قد اندرجت منذ  
أن عرف لوكريثيا في لعبة تناظرات أو رموز تدعم بعضها بصورة بالغة  
الرهادة، كما قال، مثل آلات فرقة جاز. تعود بيلى سوان أن يقول له أن ما  
يهم في الموسيقى ليس البراعة، بل الصدى: في فضاء خالٍ، في مكان مليء  
بالأصوات والدخان، في روح شخص. أليس ذلك صدى خالصاً، غريزة  
بالزمن وبالتنبؤ، ما يجري داخلي حين أستمع إلى هاتين الأغنيتين اللتين  
عزفهما بيلى سوان وبيربو معا، بورما أو لشبونة؟

فجأة اكتسحه الصمت: شعر في داخله بأن سنوات حياته الأخيرة  
تتلاشى مثل خرائب مهذمة في قاع البحر. من الآن فصاعداً لن يعود العالم  
نسقاً من الرموز تشير إلى لوكريثيا. فكل إيماء ورغبة وكل أغنية يعزفها  
ستستنفذ في ذاتها مثل لهب ينطفيء دون أن يترك رماداً. وخلال بضعة أيام  
أو أسابيع اعتقد بيربو بأن من حقه أن يطلق اسم الهجران أو الهدوء على  
تلك الصحراء بلا أصوات. وساعده الكبرياء وعادة الوحدة: لأن أي إيماء  
يقوم بها ستتضمن لا محالة ضراعة، لن يبحث عن لوكريثيا، ولن يكتب لها،  
ولن يشرب في البارات القريبة من منزلها. بدقة لا تلين كان يصل إلى المدرسة  
كل صباح وفي الخامسة عصراً يعود إلى منزله في التوبو وهو يقرأ الصحيفة  
أو ينظر في صمت إلى المناظر المسرعة للضواحي. كف عن سماع  
الأسطوانات: فكل أغنية يسمعها، تلك التي يحبها أكثر، تلك التي يعرف  
كيف يعزفها بعيون مغمضة، هي شهادة على خدعة. وحين يفرط في الشرب

يتخيل رسائلَ بالغةَ الطول لم يبلغ أبداً حد أن يكتبها ويظل ينظر باستماتةٍ إلى التليفون. تذكر ليلةً قبل عدة سنوات: كان قد عرف لوكرثيا لتوه وتصوّر من بعيدٍ إمكانيةً أن ينام معها، لكنه لم يكن قد حدثها سوى ثلاث أو أربع مرات، في الليدي بيرد، وعلى طاولةٍ في بار فيينا. سمع طرقة على الباب، استغرب، لأن الوقت متأخّر جداً. وحين فتح، كانت أمامه لوكرثيا، غير متوقعةٍ على الإطلاق، تعتذر، وتقدّم له شيئاً، كتاباً أو اسطوانةً يبدو أنها وعدته به ولم يتذكره بيرالبو.

ضد إرادته، كان يرتجف كلما رنّ جرس التليفون أو الباب ثم يُدين نفسه لأنه استسلم للضعف المعنوي لافتراض أنها ربما كانت لوكرثيا. ذات ليلة ذهبنا لرؤيته فلورو بلووم وأنا. وحين فتح لنا لاحظت في نظراته دهشةً من قضى ساعات طويلة وحيدا. وبينما نتقدم في الرواق رفع فلورو بلووم بجلالٍ بين يديه زجاجة ويسكي أيرلندي محاكياً في نفس الوقت صوت جرس صغير. *Hoc est enim corpus meum* - قال، وهو يملأ الكؤوس -.

*Hic est enim calix sanguinis mei* [هذا جسدي. هذا كأس دمي]. ويسكي شعيرٍ خالص، يا بيرالبو، محبوب حديثاً من أيرلندا العجوز.

شغل بيرالبو موسيقى. قال أنه كان مريضاً. بمظهر ارتياحٍ مضى إلى المطبخ ليحضر الثلج. تحرك في صمت، بروح ضيافةٍ خرقاء، مبتسماً بالشفاه فقط لدعابات فلورو، الذي استقر في مقعدٍ مطالباً بمقبّلات وورق لعب بوكر.

- توجّسنا ذلك، يا بيرالبو - قال - ولما كان البار مغلقا اليوم قررنا الحضور لنغرس معك بعض أعمال الرحمة: إعطاء شراب للعطشان، تصحيح من يخطيء، زيارة المريض، تعليم من لا يعلم، إعطاء نصيحة جيدة للمحتاج. . هل تحتاج إلى نصيحة جيدة، يا بيرالبو؟

لديّ ذكرى غير دقيقة لتلك الليلة: شعرت بأنني غير مرتاح، وسكرتُ على الفور، وخسرت في البوكر، وحوالي منتصف الليل رنّ التليفون في الغرفة المليئة بالدخان. نظر إليّ فلورو بلووم خلست، ووجهه مشتعلٌ بفعل الويسكي. حين يفرطُ في الشراب تبدو عيناه أصغر وأشدّ زرقةً. تأخر بيرالبو قليلاً في الرد: للحظةٍ ظللنا ثلاثتنا ننظرُ إلى بعضنا كأننا كنا ننتظر المكالمة.

- لنصنع ثلاث خيام - قال فلورو بينما يتجه بيرالبو نحو التليفون. بدا لي أن وقتاً طويلاً انقضى وهو يرن وأنه على وشك الصمت - . واحدة من أجل إيليا، وأخرى من أجل موسى ...

- إنه أنا - قال بيرالبو، ناظرا إلينا بحذر، موافقا على شيءٍ لم يُردنا أن نعرفه - . نعم. الآن على الفور. سأذهب في تاكسي. أمامي خمس عشرة دقيقة.

- لا جدوى - قال فلورو. كان بيرالبو قد وضع الساعة وأشعل سيجارة - . لا أستطيع تذكر لمن كانت الخيمة الأخرى...

- على أن أذهب. - فتش بيرالبو عن نقودٍ في جيوبه، احتفظ بالتبغ، لم يهّمه أن نكون موجودين - . أبقيا أتما إذا شئتما، هناك بيرة في المطبخ. الأرجح أنني سأعود متأخرا.

- *Malattia d'amore...* [مرض الحب] - قال فلورو بلووم

بحيث أسمعته أنا فقط. كان بيرالبو قد ارتدى السترة وشف شعره بتعجل أمام مرآة الممر. سمعناه يغلق الباب بعنف ثم أزيز المصعد. لم تكن قد مرت دقيقة منذ أن رن التليفون وها قد أصبحنا فلورو بلووم وأنا وحدنا وبسرعة صرنا دخيلين في منزل وفي حياة آخر. - منح مأوى للمسافر. - بجزن ترك فلورو الزجاجة الفارغة تنقط فوق كأسه - أنظر إليه: تطلبه فيحضر ككلب. يمشط شعره قبل أن يخرج. يتخلى عن أفضل أصدقائه...

من نافذة رأيت بيرالبو يخرج ويسير كظلٍ يهرب بين الرذاذ نحو موضع تصطف فيه الأضواء الخضراء لسيارات التاكسي. "تعال. تعال بأسرع ما يمكن"، كانت لوكريثيا قد ناشدته بصوتٍ لا يعرفه، حطّمه البكاء أو الخوف، كأنها تائهة في ظلمة قاتلة، في المدينة البعيدة والتي يحاصرها الشتاء، وراء واحدة من النوافذ والأضواء المسهّدة التي واصلت النظر إليها من منزل بيرالبو بينما يتقدم هو جالسا من جديد في ظلمة تاكسي، متفهما ربما أن دافعا أقوى من الحب وغريبا تماما عن الرقة، لكن ليس عن الرغبة ولا عن الوحدة، يظل يوحّده مع لوكريثيا، رغما عنهما، ضد إرادته وعقله، ضد كل ضروب الأمل.

حين ترجل من التاكسي رأى ضوءاً وحيدا موقداً في أعلى الواجهة المظلمة. كان في النافذة شخصٌ ابتعد عنها حين بقي بيرالبو وحيدا تحت أضواء الشارع. صعد قفزاً سلباً لا ينتهي. كان يلهث وترتجف يداه حين داس جرس الباب. لم يأت أحداً ليفتح، تأخر برهة في إدراك أنه كان مواربا. دفعه مناديا لوكريثيا بصوتٍ خافت. في عمق الممر لمع ضوءٌ خلف زجاج داكن.

كانت تفوح رائحةٌ كثيفة لدخان سيجار وعطر امرأة ليست لوكريثيا. وحين فتح بيرالبو باب الغرفة المضاءة رن جرس التليفون كطلقة. كان على الأرض بجوار الآلة الكاتبة، بين فوضى الكتب والأوراق المملخة بآثار أحذية بالغة الضخامة. واصل الرنين بنوعٍ من القسوة العنيدة بينما يتفحص بيرالبو غرفة النوم الخاوية، التي مازالت دافئةً والفراش مبعثر، والحمام، حيث رأى بُرنس لوكريثيا الأزرق، والمطبخ الشاحب المليء بأكواب لم تُغسل. عاد إلى غرفة الطعام: وخلال ثانيةٍ ظن أن التليفون لن يواصل الرنين، ارتجف عند سماعه جرساً أطول وأكثر حدةً. وحين انحنى ليرفع الساعة انتبه إلى أن إحدى تلك الأوراق القذرة من وطئها كان رسالةً كتبها هو إلى لوكريثيا. سمع صوتها. خيل إليه أنها تتحدث كاتمةً الساعة بيدها.

- لماذا تأخرت هكذا؟

- جئت بأسرع ما استطعت. أين أنت؟

- هل رآك أحدٌ تصعد؟

- من أسفل بدا لي أن شخصاً كان بالنافذة.

- هل أنت متأكد؟

- أظن أن نعم. ثمة أوراقٌ وكتب مبعثرة على الأرض.

- أخرج من هناك على الفور. إنهم يراقبون.

- أخبريني ماذا يجري، يا لوكريثيا.

- أنا في مكانٍ في الحي العتيق. بنسيون كوبانا، بجوار ميدان ترينيداد.

- سأذهب على الفور.

- خذ دورة. لا تقترب حتى تتأكد أنهم لا يتبعونك.

كان بيرالبو سيسألها عن شيء حين وضعت الساعة. ظل برهة يسمع عبثاً صفارة التليفون. نظر إلى الرسالة الملطخة بالطين: كان تاريخها أكتوبر من عامين مضياً. بشعورٍ خفيف بالولاء لذاته احتفظ بها دون أن يقرأها وأطفأ النور. أطل من النافذة: اعتقد أن شخصاً يختبئ في ظلام مدخل، أنه رأى شعلة سيجارة. هدأته مصابيح سيارة: لم يكن ثمة أحد في المدخل. أغلق الباب ببطءٍ شديد وهبط السلم محاولاً ألا ترن خطواته. على بسطة السلم الأخيرة أوقفه طنين محادثة. رنت موسيقى يايجاز، كأن أحداً فتح وأغلق باباً، ثم ضحكة امرأة. ساكنا في الظلمة انتظر بيرالبو أن يعود الصمت ليواصل الهبوط. بارتياحٍ مستريب سار نحو شريط الضوء القادم من الشارع، شاحبا وباردا كضوء القمر. اعترضه ظلٌ فجأةً. في لحظةٍ أربع ضوء البوابة القدر بيرالبو: رأى أمامه، قريباً بحيث يمكن لمسه، الوجه الداكن والمبتسم لرجل، رأى عينين كبيرتين بقريتين وأمتدت له يدٌ بالغة الضخامة ببطءٍ غريب، سمع صوتاً كأنه من بعيدٍ جداً ينطق اسمه، "عزيزي بيغالبو"، وحين دفع ذلك الجسد بعنفٍ أدهشه هو ذاته واندفع يجري نحو الشارع رأى كأنما في برقٍ شعراً أصفر ويذا تمسك مسدساً.

آله كتفه: تذكر الرنين الثقيل لجسدٍ يسقط وشتيمةً فاحشة بالفرنسية. جرى باحثاً عن حوارٍ الحي العتيق: ضرب وجهه الريحُ المالح والبارد للبحر وانتبه إلى أنه لا يعرف أين هو. سمع دوي خطواته على الطوار المبتل: وردده الصدى في الشوارع الخاوية، أو ربما كانت خطوات الرجل الذي يطارد.

بوضوحٍ غير معهود رأى في خياله وجه لوكريثيا. كان نفسه مقطوعا وواصل الجري، عبر ميدانا مضاءً فيه قصرٌ وساعة، أحس برائحة الأرض الرطبة والسرخس لجرف جبل أورجول، شعر بأنه غير قابلٍ للأذى وأنه إذا لم يتوقف عن الجري سيغيب عن الوعي، مر بجوار قاعةٍ ينبعث منها ضوءٌ أحمر وظلت امرأة تدخن تنظر له. كأنه ينبثق من مياه بئرٍ استند إلى جدارٍ وفمه مفتوح عن آخره وعينه مغمضتان، شاعرا في ظهره ببرد الحجر الأملس. فتح عينيه: أعشاه المطر، وكان شعره مشبعا بالماء. كان بجوار كنيسة سائنا ماريّا دل مار. لم ير أحداً في الشوارع التي تصب أمامها. فوق رأسه، أعلى من أبراج الأجراس والأسقف، في الضباب الأصفر والرمادي الذي يتساقط منه المطر بهدوء، كانت تخفق نوارسٌ غير مرئية. وفي عمق الشوارع المظلمة تلمع المباني العالية للبولفارات كأنها مضاءةٌ بكشافات ليلية. ارتجف بيرالبو من التعب ومن البرد وخرج من الظلمة، سائرا ملتصقا بالجدران، بأبواب البارات المغلقة. وبين الحين والآخر يستدير: كأنه وحده في تلك الليلة من يسير في مدينةٍ مهجورة.

كان بنسيون كوبانا تقريبا بقدر القذارة التي يعدُّ بها اسمه. كانت ممراته تنضح بروائح الملاءات المتعرقة والجدران الرطبة، بالهواء المحبوس في صوانات الثياب. خلف واجهة الاستقبال كان أحدبٌ يبدل على عجلةٍ ثابتة. بفوطةٍ قدرة جفّف العرق من وجهه بينما يدرس بيرالبو بتشككٍ بطيء.

- الآنسة في انتظارك - قال - غرفة واحد وعشرين، في عمق الممر.

تفحص النظارات التي تكبر عينيه وأشار إلى ناصية تغبّسها الظلمة.

لاحظ بيرالبو رجفة خفيفة في يديه الوارمتين، الزرقاوين تقريبا.

- اسمع. - ناداه الرجل حين دخل الممر بالفعل -. لا تظن أننا نسمح دائماً بتلك الأشياء.

خلف الأبواب المغلقة كانت تُسمع أصوات أجسامٍ وشخير سكارى. من جديد تملك بيرالبو الإحساس باللاواقعية: فحين طرق بأصابعه على الغرفة رقم واحد وعشرين شك أن تفتح له لوكريثيا حقاً. طرق ثلاث طرقاتٍ بعناية، كأنه يطيع إشارة سرية. في البداية لم يحدث شيء: فكر أنه هذه المرة أيضاً سيدفع الباب فلا يجد أحداً على الناحية الأخرى: أنه قد تاه، أنه لن يقابل لوكريثيا أبداً.

سمع زنبركات فراش، وخطوات أقدام عارية على آجرٍ غير متساوٍ: وقريباً جداً شخصٌ يسعل ثم انفتح ترباس. شم مرةً أخرى رائحة عرقٍ قديم وجدرانٍ رطبة ولم يعرف كيف يربط هذا الإحساس بالبهجة المنيعة لكونه ينظر بعد كل تلك الأيام إلى عيني لوكريثيا الرماديتين. جعلها الشعر المنكوش، والسروال الغامق والقميص الداخلي البنفسجي المحبوك تبدو أكثر نحافةً وطولاً. أغلقت الباب، ومستندةً إليه احتضنت بيرالبو طويلاً دون أن تترك المسدس. جعلها الخوفُ أو البرد ترتجف كأنما تحركها الرغبة. وناظراً إلى الفقر المُهين للفراش وللكومودينو الذي فوقه أباجورة ذات شاشة مطرزة تذكر بيرالبو في بغتةٍ وضوحٍ وشفقةٍ الفنادق الفاخرة التي أحببتها هي دوماً. هذه كذبة، فكر، لسنا هنا، لوكريثيا لا تحتضني، لم تعد.

- هل تبعوك؟ - حتى وجهها لم يبدُ كوجه زمنٍ آخر: كانت الأعوام أو الوحدة قد أفسداه، ربما لم يعد جميلاً، لكن من يهتم، ليس بيرالبو.

- خرجتُ جريا. لم يستطيعوا اللحاق بي.
  - أعطني سيجارة. لم أدخن منذ أن انحبست هنا.
  - أخبريني لماذا يبحث عنك توسان مورتون.
  - رأيته؟
  - دفعته فسقط على الأرض. لكنني قبلها لاحظتُ عطر سكرتيرته.
  - **بوازون Poison**. لا تستعمل غيره أبدا. يشتريه لها.
- كانت لوكريثيا قد تمددت على الفراش، ومازالت ترتجف، وتبتلع بنهم دخان السيجارة. في قدميها العاريتين لاحظ بيرالبو برقة دائمة العلامات الحمراء للكعوب التي لم تكن معتادة على استخدامها. مُنحيا قَبْلَها بخفة على وجنتيها. كانت قد هربت، مثله تماما، وكان شعرها رطبا ويدها متجمدتين.
- تحدث ببطء بالغ، بعينين مغمضتين، جازة أحيانا على شفتيها حتى لا يسمع بيرالبو الطقطقة الجافة لأسنانها حين تصطكُ بفعل رجفة طويلة.
- متشبثةً بيد بيرالبو على صدرها، غارسة أظافرها الشاحبة في عُنُقها، كأنها تخشى أن يرحل أو أن تسقط في الخوف إذا تركتها. وحين ترتجف تفقد مسار كلماتها، التي تمحوها فورة شعورية أشبه بالحمى، تنتصب في الفراش، وتظل ساكنةً بينما يضع هو سيجارة بين شفتيها، اللتين لم تعودا ورديتين، مثلما في زمنٍ آخر، بل جافتين ومُلَخَّصَتين في خطٍ مزدوج من العناد والوحدة يتبدد أحيانا إلى شكل ابتسامتها القديمة، التي نسيها بيرالبو تقريبا، فهكذا كانت تبسم له لوكريثيا حين تكون على وشك أن تقبله، منذ سنين

طويلة. فكر أن تلك الابتسامة لم تكن موجّهة إليه، لأنها مثل تلك الإيماءات الطفولية التي تُكرّرها في الأحلام.

تحدث للمرة الأولى عن حياتها في برلين: عن البرد، وعدم اليقين، عن الغرف المستأجرة الأشد قذارةً من بنسيون كوبانا، عن مالكولم، الذي لسببٍ لم تعرفه أبداً فقد حماة رؤسائه القدامى والعمل في تلك المجلة الفنية المشكوك فيها التي لم يرها أحد؛ قالت أنها بعد عدة أشهر اضطرت فيها إلى العناية بالأطفال وتنظيف المكاتب والمنازل لألمانٍ لم تستطع حل شفرتهم، عاد مالكولم ذات يوم ومعه بعض النقود، وهو يتنسم كثيراً، ويفوح برائحة الكحول، معلناً أنه قريباً جداً سينتهي حظه السيء: وبعد أسبوع أو اثنين انتقلا إلى شقةٍ أخرى وظهر توسان مورتون وسكرتيرته، دافنى.

- أقسم لك أنني لا أعرف مم نعيش - قالت لوكريثيا -، لكن لم يكن يهمني. فأنا على الأقل لم أعد أرى صراخير عند الثلاجة حين أضيء النور. بدا أن مالكولم وتوسان يعرفان بعضهما من قديم الأزل، يتبادلان النكات كثيراً، يضحكان بقهقهة، ويغلقان على نفسيهما مع السكرتيرة للحديث عن الأعمال، كما كانا يقولان، يذهبان في رحلة ويتأخران في العودة أسبوعاً، عندئذ أراني مالكولم حزمةً من الدولارات أو الفرنكات السويسرية وقال لي: "أنا وعدتك، يا لوكريثيا، وعدتك أن زوجك سيصنع شيئاً ضخماً..." وعلى الفور اختفى توسان ودافنى. أصبح مالكولم عصيباً جداً، واضطربنا لترك الشقة وذهبنا إلى شمال إيطاليا، إلى ميلانو، لتغيير الجو، كما كان يقول...

- هل كانت الشرطة تبحث عنهما؟

- عدنا إلى الغرف ذات الصراصير. وأخذ مالكولم يقضي النهار ممدداً على الفراش ولا عنأً توسان مورتون، وأقسَم أنه سيجعله يتذكره إذا أوقع به. وذات يوم تسلم رسالة من مكتب البريد. أتى بزجاجة شمبانيا وقال لي أننا سنعود إلى برلين. كان ذلك في أكتوبر من العام الماضي. عاد توسان مورتون ليصبح من جديد أفضل أصدقائه، ولم يعد يتذكر كل الشتائم التي كان يفكر في قولها له. ومن جديد أخذ يخرج حزماً من الأوراق المالية من جيب السروال، فلم تكن تعجبه الشيكات ولا الحسابات المصرفية، قبل أن ينم كان يعدُّ النقود ثم يتركها في درج الكومودينو وفوقها المسدس...

توقفت لوكريثيا؛ وخلال بضع ثوانٍ لم يسمع بيرالبو سوى الصوت المتقطع لتنفسها، ملاحظاً رجفة الصدر العنيفة تحت يده الممدودة. عاضةً شفتيها، حاولت لوكريثيا احتواء الرجفة العنيفة كاختلاجات حمى. أدارت عينها باتجاه الكومودينو، باتجاه المسدس الذي كان يلمع تحت الضوء الخافت للأباجورة. ثم نظرت إلى بيرالبو بتعبير البعد والامتنان الذي ينظرُ به مريضٌ لمن أتى لزيارته.

- كل الأيام تقريباً كان توسان ودافنى يأتیان لتناول الطعام معنا. كانا يحملان أنبذة غالية جداً، وكافيار، مزيّف، فيما افترض، وسلمون مدخن، أشياء من هذا القبيل. كان توسان يربط الفوطة على رقبته ويقترح نخباً دائماً، ويقول أننا نحن الأربعة عائلة كبيرة... وأيام الآحاد، إذا كان الجو صحواً، كنا نذهب جميعاً إلى الريف، كان يسعد مالكولم وتوسان أن ينهضا مبكراً ليعدّ الطعام، ويملآن حقيبة السيارة بسلال ذات مفارش وصناديق زجاجات، لكن قبل الخروج يكونا قد سكرا، على الأقل مالكولم، فأنا أعتقد أن الآخر

لا يسكر أبداً، فرغم أنه يتكلم ويضحك كثيراً، بدا أنهما يتظاهران دائماً بأننا مثل أولئك الأزواج المتّحدين تماماً، وكان الأمر سواء بالنسبة لدافنى، تبتسم، وتتكلم قليلاً جداً، وتراقبني على الدوام، لم تكن تثق بي، لكنها تتظاهر، بتلك الطريقة التي تبدو بها وكأنها تشاهد التلفزيون ويعتريها الملل الشديد، وأحياناً كانت حتى تخرج إبراً وشلةً صوف وتشرع في التريكو... كانا وحدهما، يشربان، يقطعان الحطب من أجل النار، يطلقان النكات التي يستلطفانها كلاهما، ويقصان نكاتاً قدرة بصوتٍ خفيض، حتى لا نسمع. وفي الكريسماس جاء يقولان أنهما استأجرا كوخاً بجوار بحيرة، في غابةٍ، وسنذهب لنقضي هناك ليلة رأس السنة، احتفالاً حميماً، مع قلةٍ من المدعوين، لكن في النهاية لم يظهر سوى واحدٍ، يدعونه البرتغالي، رغم أنه يبدو بلجيكيّاً أو ألمانياً، بالغ الطول، بوشم على ذراعيه، سكيرٌ بيرةً، وحين ينهي قنينته يفعّضها بين أصابعه ويلقيها في أي مكان. أذكر أنه في ذلك اليوم، الحادي والثلاثين صباحاً، كان يشرب واقترب من دافنى، أعتقد أنه لمسها، عندها، وكانت تشتغل تريكو، قبضت على إبرةٍ وغرستها في رقبته، ظل هو هادئاً وبالغ الشحوب وانصرف من الغرفة ولم يعاود النظر إلينا أنا ودافنى، بل نظر إلينا بعدها، في الليل، حين كان توسان يخنقه على نفس الأريكة التي يتمدد عليها ليشرب البيرة، وما زلت أذكر اتساعَ عينيه، والسحنة الحمراء والزرقاء، واليدين... كان مالكولم قد أبلغني أنهما سيُبرمان مع البرتغالي أكبر صفقةٍ في حياتهما، وسيربحان نقوداً كثيرةً بحيث أننا جميعاً سنتمكن بعدها من التقاعد في الريفيرا، الأمر على علاقةٍ بلوحةٍ، كانوا طوال الصباح يتمشون ثلاثتهم على ضفة البحيرة، رغم سقوط الثلج الكثيف، كنت أراهم يتوقفون بين الحين

والحين ويشيرون كأنهم يتجادلون، ثم أغلقوا عليهم غرفةً أخرى بينما نُعدُّ الطعام أنا ودافنى، كانوا يصيحون، لكنني لم أستطع سماعهم، لأن دافنى رفعت صوتَ الراديو. خرجوا متأخرا جدا، وكان الطعام قد برد، ولم يتحدثوا في شيء، كانوا ثلاثتهم بالغى الجديدة، كان توسان ينظر من حين لآخر إلى دافنى، خلصة، ويبتسم لها، ويشير لها، وينظر إلى مالكولم دون أن يقول شيئا، والبرتغالي في هذه الأثناء يأكل مُصدرا الكثير من الضوضاء ولا يتكلم مع أحد، كان بالقميص الداخلي، رغم البرد، وكان له مظهرٌ من كان رياضيا أو شيئا من هذا القبيل قبل أن يتحول إلى مدمن كحول، عندها رأيت ذلك الوشم على ذراعيه وفكرت أنه ربما كان في الفرقة الأجنبية في الهند الصينية أو في إفريقيا لأن جلده كان محترقا من الشمس. في الخارج كان الثلج يتساقط بشدةٍ وحلَّ الليل، وساد صمتٌ غريبٌ جدا، صمت جليديّ، ولاحظت أن شيئا سيحدث، وكان وجهي يلتهب، فقد شربْتُ الكثير من النبيذ، وهكذا ارتديت سترتي الطويلة وخرجت، سرْتُ برهةً في الغابة، صوب البحيرة، لكن سرعان ما بدا أنني بعيدةٌ جدا وسوف أتوه، كنت أغوصُ في الجليد دون أن أستطيع التقدم وكانت قدمي تتجمدان، كان الوقت ليلا، وعدت إلى الكوخ مهتديّة بضوء النافذة وحين اقتربت منه رأيتُ ما كانوا يفعلونه بالبرتغالي، كان في مواجهتي، ينظر إليّ، على الجانب الآخر من الزجاج، لكن السكون جعل كلَّ شيء يبدو بعيدا جدا، أم أنها كذبة، إحدى تلك المحاكيات التي تروق لتوسان، كأنهم يلعبون لعبة خنق شخص، لكن كان ذلك أكيدا، كان وجه البرتغالي أزرق وعينه تنظران إليّ، كان توسان خلفه، واقفا، منحنيا على كتفه، كأنه يقول له شيئا في أذنه، ومالكولم يلوي له ذراعا خلف

ظهره وباليد الأخرى يغرس المسدس في منتصف صدره، ويغوص به في القميص الداخلي الأبيض، وفي رقبة البرتغالي تظهر عروقه ويلتف عليها شيء رفيع جدا يلمع، خيط نايلون، تذكرت أنني رأيته بضع مرات في يدي توسان، الذي كان يلعب به بأن يلفّه بين أصابعه، مثلما حين ينظف أظافره بعود خلة الأسنان البالغ الطول ذاك... وكانت دافنى أيضا هناك، لكنها تدير ظهرها لي، هادئة تماما مثلما حين تخطط أو تشاهد التلفزيون، كان البرتغالي ينتفض قليلا، ربما كانت اختلاجات بالأحرى، أذكر أنه كان يرتدي بنطلون جينز وحذاء عسكريا، لكنني لم أسمع ضرباته على الأرضية الخشبية، وأعشى الجليد عيني، عندها نظر إليّ توسان ومالكوم، ولم أتحرك، كذلك استدارت دافنى نحو النافذة، وظلت عينا البرتغالي مثبتتان فيّ، لكنه لم يعد يراني، كانت ساقاه ترتجفان قليلا، ثم توقفنا عن الحركة وأبعد مالكوم المسدس عن صدره، وظل البرتغالي ينظر إليّ...

"لم تهرب: وحين خرج مالكوم يبحث عنها كانت ترتعد، ساكنة، ناعسة من البرد. تذكرت ما حدث بعدها كأنها رأيته من وراء زجاج مغبش. دفعها مالكوم برقة نحو داخل الكوخ، ونزع عنها سترتها المبتلة، ثم ظلت جالسة على الأريكة وأمامها كأس براندي، عاملها مالكوم بالوضاعة المهمة لزوج مذب.

"متبلدة الحس، أخذت تتأمل ما يصنعون: عاد توسان من الجراج وهو ينظف الثلج من كتفيه وحمل قماشاً خشناً من القنب وحبالا، ركع أمام البرتغالي، محدّثا إياه كأنه مريض لم يُفّق من المخدر، جرجر ساقيه بينما رفعه مالكوم من كتفيه وفردت دافنى قماش القنب على الأرض، عند قدمي

لوكريثيا. كان الجسد ثقيلًا، وطقطت ألواح الأرضية حين سقط فوقها،  
بيدين مضمومتين عند البطن، بعظام ناتئة، بالغتي الضخامة، والوشم على  
الذراعين، والوجه مستديرٌ بطريقة غريبة، كأنه ملويٌّ على الكتف اليسرى،  
والعينان الآن مغمضتان، لأن توسان قد مرّر يده فوق جفنيه. مثل ممرضين  
سريعين وأكفاء أخذوا يتحركون حول الميت، لفوه بقماش القنب، رفع مالكولم  
رأسه حتى يلتف الحبل حول العنق وبعدها تركها تسقط مدوية، ربطوا  
قدميه، ووسطه، عاقدين القماش على شيءٍ لم يعد جسداً، بل ربطةً، شكلاً  
غامضاً وثقيلًا جعلهم يلهثون ويلعنون حين رفعوه، حين خرجوا وهم  
يصطدمون بالأبواب وزوايا الأثاث، تسبقهم دافنى، التي ارتدت الحذاء  
المطاطي المضاد للماء ومعطفاً واقياً وردياً ورافعةً في يدها اليمنى مصباح كربون  
مشتعل، لأن ندفَ الجليد في الخارج، في الطريق إلى البحيرة، كانت تتألق  
بدكنةٍ كأنها دكنة قبوٍ مغلق. فيها رأتهم لوكريثيا يتلاشون من عتبة الكوخ،  
شاعرةً بأنها تائهةٌ وضعيفةٌ كأنها فقدت الكثير من الدم، سمعت أصواتاً مكتومة  
بفعل الجليد، هرطقات توسان، الإنجليزية الأنفية والمتقطعةً لما لكولم، ما يشبه  
هسيس التنفس، ثم ضرباتٍ، ضربات بلطة، لأن سطح البحيرة كان مجمداً،  
وفي النهاية طقطقة ما يشبه صخرةً بالغة الضخامة تغوص في الماء، ثم لا  
شيء، السكون، الأصوات التي تبعثرها الرياح بين الأشجار.

"في الصباح التالي عادوا إلى المدينة. كان الثلج قد عاود الانغلاق  
فوق النعومة التي لا تتحوّل للبحيرة. وخلال عدة أيام كانت لوكريثيا كأنها ميتة  
في حلم مخدرات. كان مالكولم يرعاها، يجلبُ لها الهدايا، أغصانَ أزهارٍ  
ضخمة، ويحدّثها بصوتٍ خفيض، دون أن يُسمّي أبداً توسان مورتون ولا

دافنى، اللذين عاودا الاختفاء. أعلن لها أنهما قريباً جداً سينتقلان إلى شقة أكبر. وفور أن استطاعت لوكريثيا أن تهض، هربت: ومازالت تواصل الهرب، بعد ما يقارب العام، ولا تستطيع تصوّر أن ينتهي الهرب ذات مرة.

- وفي هذه الأثناء أنا هنا - قال بيرالبو، يسحقه شعورٌ بالابتذال

والذنب، يحضرُ فصوله كل صباح، يقبلُ الإرجاء بوداعةٍ، الشك في الإخفاق، ينتظرُ كمراهقٍ مُحترقٍ رسائل لا تأتي، غريباً عن لوكريثيا، خائناً، غير مجدٍ في انتظاره، في وداعة أمله، في جملة بالحياة الحقيقية وبالقسوة. انحنى فوق لوكريثيا، ربّت على وجنتيها الحادثين اللتين تنبثقان من الظلمة مثل وجه امرأة غريقة، وحين فعل ذلك لاحظَ في أطراف أصابعه رطوبة الدموع، ثم، حين مسح ذقنها، البداية الخفيفة لرجفةٍ سرعان ما ستجرفها برمتها مثل موجة صخرة في الماء. دون أن تفتح عينيها جذبتة لوكريثيا نحوها، محتضنة إياه، متشبثةً بخصره وفخذه، منشبةً في رقبتة أظافرها، ميتةً من الهلع والبرد، مثل تلك الليلة التي ضبّب فيها نفسُها زجاج النافذة التي كان يجري خلفها ببطء خنق رجل. "قطعت لي وعداً"، قالت، ووجهها مدفونٌ في صدر بيرالبو، ناهضةً على مرفقيها لتضغط بطنه تحت الحواف الصلبة لفخذيها وتبلغ فمه، كأنها تخشى أن تفقده: "خذني إلى لشبونة."

## الفصل العاشر

كان يقود مستثارا بالخوف والسرعة: لم تعد، كما في مراتٍ أخرى،  
لامبالاة سيارات التاكسي، ولا السكون بلا حراك أمام البوربون، ولا  
الإحساس السلبي بالسفر في قطارٍ مقذوف صوب الليل، الحياة الخاملة  
للأعوام الأخيرة. كان هو نفسه يتحكم في اندفاع الزمن، مثلما حين يعزفُ  
البيانو ويكون الموسيقيون الآخرون ومن يسمعون مدفوعين باتجاه المستقبل  
والخواء بشجاعة خياله وبانضباط الدوامة التي تتحرك بها يدها حين تدق  
لوحة المفاتيح، ليس بترويض الموسيقى ولا باحتواء بريقها، بل بتسليم نفسها  
له، مثل فارسٍ يشدّ اللجام في نفس الوقت الذي يغرس فيه ممهازيه في جنبي  
الحصان. كان يقود سيارة فلورو بلووم بسكينة من بلغ في النهاية حدودَ ذاته،  
بلغ النخاع المتقدم لحياته، وليس أبدا سراباتِ الذاكرة ولا التسليم، ملاحظا  
امتلاء البقاء ساكنا بحماسٍ بينما يتقدم بسرعة مائة كيلومتر في الساعة. شكر  
لكل لحظةٍ تبعدهما عن سان سباستيان كأن المسافة تخلّصهما من الماضي  
وتنقذهما من لعنته، هو ولوكريثيا فقط، هارين من مدينةٍ ملعونة، صارت لا  
مرئيةً وراء التلال والضباب حتى لا يستطيع أيٌّ منهما أن يستسلم لغواية  
إدارة عينيه تجاهها. لم يكن المؤشر المرتعش المضيء لمقدمة السيارة يقيس  
اندفاع السرعة بل جسارة روحه، وكانت ريشتا تنظيف الزجاج تكنسان  
المطر بصورةٍ منهجية لتبيننا له الطريق نحو لشبونة: لو نظرَ إلى المرأة الخلفية  
لرأى وجه لوكريثيا من الأمام: استدار استدارةً خفيفة لينظر إليها جانبا بينما

كانت تضعُ بين شفثيه سيجارةً مشتعلة، نظر جانبا إلى يديها اللتين تديران الراديو أو ترفعان صوت الموسيقى حين تدوي واحدة من تلك الأغنيات التي كانت حقيقةً ذات حين، لأنهما وجدا في سيارة فلورو - ويمكن أيضا أن يكون هو قد تركها مع سبق الإصرار - أشرطة قديمة مسجلة في الليدي بيرد في أفضل أوقاته، حين لم يكونا قد عرفا بعضهما بعد، حين كان يبلي سوان وبيرالبو يعزفان معا واقتربت هي عند النهاية وقالت له أنها لم تسمع أبدا أحدا يعزف البيانو مثله. وأود أن أتخيل أنهما استمعا إلى الشريط المسجل ليلة أن قدمني مالكولم إلى لوكريثيا وفي ضوضاء خلفية الكؤوس المتصادمة والمحادثات التي ترتفع فوقها الترومبيت الحادة لبلي سوان يبقى أثرٌ من صوتي.

كانا يسمعان الموسيقى بينما يسافران صوب الغرب على طريق الساحل تاركين دائما على يمينهما المنحدرات والبحر، تعرّفا على الأناشيد السرية التي جعلتهما يتواطآن من قبل أن يعرفا بعضهما، لأنهما فيما بعد، حين استمعا إليها سويا، بدت خصائص تماثل حياتيهما السابقتين، نُذراً لقدرٍ أعد كل شيء ليلتقيا، بما في ذلك موسيقى مواويل معينة من أعوام الثلاثينات: *fly me to the moon*، كانت لوكريثيا قد قالت له حين تركت السيارة وراءها آخر شوارع سان سباستيان، "خذني إلى القمر، إلى لشبونة".

حوالي السادسة مساء، حين خيم الليل، توقفا عند موتيل بعيدٍ بعض الشيء عن الطريق: فمن الطريق لا يرى سوى نوافذ مضاءة خلف الأشجار. وبينما بيرالبو يغلق السيارة، سمع على مقربة، الطنين البطيء للجُر. بحقية السفر على كتفها ويديها في جيبي معطفٍ ضخمٍ بمربعات كانت لوكريثيا تنتظره أما ضوء الردهة. من جديد تبدد من أمام بيرالبو الحسّ اليومي بالزمن: كان

يتوجّب عليه أن يجد طريقةً أخرى لقياسه حين يكون معها. الليلة الماضية، كان لقاءه مع فلورو بلوم ومعي، كلّ الأشياء التي حدثت قبل أن تطلبه لوكريثيا، كانت تنتمي إلى ماضٍ بعيد. ظل يقود السيارة خمس أو ست ساعات قبل أن يتوقف في الموتيل: تذكر تلك الساعات كبضع دقائق غير متّسقة، بدا له غير محتملٍ أنه كان ذلك الصباح ذاته في سان سباستيان، أن المدينة تظل موجودة، بعيدا جدا، في الظلمة.

ورغم ذلك كنا موجودين. يروق لي أن أتحقّق من أوقاتٍ ماضية متزامنة: ربما في نفس الوقت الذي كان فيه بيرالبو يطلب غرفةً كنتُ أنا أسأل عنه فلورو بلووم. ومزّرا عباؤه نظر إليّ بالحزن الهائل لمن لم يعرف كيف يتفادى كارثة.

- في الثامنة صباحا ظهر أمام منزلي. من سيخْطُر له ذلك، مع صداد السكر الذي كنت أعانيه. أنهض، وأكاد أقع، وأمضي في الممر لاعنا باللاتينية وجرس الباب لا يتوقف عن الرنين، مثل واحدٍ من تلك المنبهات بلا ضمير. أفتح: بيرالبو. عيناه بهذا الاتساع، كأنما من عدم النوم، بسحنة التركي تلك التي يبدو بها حين لا يكون حليقا. في البداية لم أفهم ما يقوله لي. قلت له: "يا معلم، هل قمتَ الليل بطوله وصليت، بينما نحن نائمون؟" لكن أبدا، لم يهتم بي، لم يكن لديه وقت يُضيّعه في الدعابات، جعلني أضع رأسي تحت الماء البارد ولم يدعني حتى أعدّ قهوة. أرادني أن أذهب إلى منزله. أراني ورقة: قائمة الأشياء التي يجب أن آتي بها. البطاقة الشخصية، دفتر الشيكات، قصان نظيفة، ما أدراني. آه: ولفافة رسائل سأجدها محفوظةً في الكومودينو. تخيل من من. حتى أنه تظاهرَ بالغموض، في تلك الساعة، كأن جسدي

يَحتَمِلُ الأسرار: "فلورو، لا تسألني شيئاً، لأنني لا أستطيع إجابتك." أخرج إلى الشارع، وأسمعه يناديني، يقترب جرياً: كان قد نسي أن يعطيني المفاتيح. وحين عُدتُ استقبلني كأني رسولُ بريدِ القيصر. كان قد شرب نحو نصف لترٍ من القهوة وبدأ أنه يستطيع تدخين سيجارتين في نفس واحد. أصبح بالغ الجدية، قال أنه يجب أن يطلب مني معروفاً أخيراً. "لهذا يوجد الأصدقاء"، قلتُ له، "ليسيئوا معاملة الواحد ولا يُخبروه بشيء". أرادني أن أترك له سيارتي. "إلى أين تذهب؟" مرة أخرى صار غامضاً: "سأقول لك حين أستطيع." أعطيه المفاتيح وأقول له، "أرجو أن تكتب لي"، لكنه حتى لم يُنصت، كان قد مضى...

لم تكن الغرفة التي أعطوها لهما في مواجهة البحر. كانت ضخمة وليست مضيافة أو مناسبة على الإطلاق، ببذخٍ يفسده إبحاءٌ غامض بالخيانة الزوجية. بينما يقتربان منها شعر بيرالبو بأن سعادةً هشةً تغادره، بأنه خائفٌ. وليتغلب على ذلك فكر: "يجري لي الآن ما رغبته على الدوام، أنا في فندق مع لوكريثيا ولن تنصرف خلال ساعة، وحين أستيقظ غدا ستكون هي معي، سنذهب إلى لشبونة." أغلق الباب بالمفتاح واستدار نحوها وقبلها باحثاً عن خصرها النحيل تحت نسيج المعطف. كان الضوء أكثر مما يجب، لم تترك لوكريثيا مضيئاً سوى أبا جورة كومودينو. تصرفا بتلطف غامض، ببرودٍ خفيف، كأنهما يتجنبان حقيقة أنهما لأول مرة خلال ثلاث سنوات سيذهبان إلى الفراش معاً.

مموهةً تحت نوعٍ من منضدة الزينة الغليظة وجداً ثلاجةً مليئةً بالمشروبات. ومثل مدعويين إلى حفلٍ لا يعرفان فيه أحداً جلسا على الفراش

متجاورين، يدخان، والكؤوس بين ركبتيهما. كانت كلُّ حركةٍ يقومان بها نذيرا بشيء لا يحدث: اضطجعت لوكريثيا على الوسادة، ونظرت إلى كأسها، إلى الحواف المذهبة للضوء في الثلج، ثم نظرت إلى بيرالو في صمت، وفي عينيها اللتين يكسوهما التعب وعدم التصديق تعرّف هو على توقّد زمنٍ آخر، لا على البراءة، لكن لم يهّمه، كان يفضلها هكذا، أكثر حكمةً، مُنتشلةً من الخوف، قابلةً للإيذاء، مُنومة مثل تمثال إلهة. ما كان لأحد أن يعثر عليهما: كانا ضائعين عن العالم، في موتيل، في قلب الليل والإعصار الذي يضرب الزجاج، الآن يحتفظ هو بالمسدس ويعرف كيف يُدافع عنها. مال عليها بحذر حين رآها تنتصب كأن ضربةً أيقظتها، ناضرةً إلى النافذة. سمعا صوت محرك سيارة، وضوضاء العجلات على حصى الطريق.

- لا يمكن أن يكونوا قد تبعونا - قال بيرالو -. هذا ليس الطريق الرئيسي.

- لقد تبعوني حتى سان سباستيان. - أطلت لوكريثيا من النافذة. كان ثمة سيارة أخرى عند مدخل الموتيل، تحت الأشجار.

- انتظريني هنا. - مُجرباً ذراع أمان المسدس خرج بيرالو من الغرفة. لم يكن يخشى الخطر: أقلقه أن يجعل الخوف لوكريثيا غريبةً من جديد.

في المدخل كان مسافرٌ يتبادل المزاح مع عامل الاستقبال. سكتا حين ظهر، كانا بلا شك يتحدثان عن النساء. تاركا المسدس في التجويف الأمامي للسيارة قادها حتى مطعمٍ قريب تعلن فيه لافتة نيون عن وجبات سريعة وسندوتشات. وعند العودة، بدت له أضواء نيون محطة بنزينٍ جديدة

بالتذكر، إذ تتمتع بتلك الخاصية الرمزية التي تكون للصور الأولى لبلدٍ مجهول يصله المرء ليلًا، محطاتٍ منعزلة، ومدنٍ داكنة ذات مصاريع مغلقة. خبأ السيارة بين الأشجار، وهو يسمع طقطقةً طويلة للسرخس الندي تحت العجلات. وحين سار نحو الموتيل نظر إلى ضوء النوافذ: خلف واحدةٍ منها تنتظره لوكرثيا. بشكل غائم، تذكر دون ألمٍ كلَّ الأشياء التي تخلى عنها: سان سباستيان، الحياة القديمة، المدرسة، الليدي بيرد، الذي لا بد أن أضواءه لا تزال مضاءةً.

حين دخل إلى مدخل الموتيل قال عامل الاستقبال شيئًا للمسافر بصوتٍ خفيض ونظر الإثنان إليه. طلب مفتاحه. بدا له المسافر ثملًا بعض الشيء. ابتسم له عامل الاستقبال، وهو رجل نحيل وبالغ الشحوب، ابتسامةً واسعة وهو يسلمه المفتاح ويتمنى له ليلةً سعيدة. سمع ضحكةً مكتومةً حين ابتعد باتجاه المصعد. كان متوترًا ولم يجرؤ على الاعتراف بذلك لنفسه، كان بحاجة إلى واحد من كؤوس البوربون الساحقة تلك التي يحتفظ بها فلورو بلووم لأفضل أصدقائه في أشد خزانات الليدي بيرد سريةً. وبينما يُدخل المفتاح في باب الغرفة فكر: "ذات حينٍ سأعرفُ أن في هذه الإيماة تكمن شفرةٌ حياتي."

- مؤنٌ لمقاومة حصارٍ طويل - قال، وهو يُري لوكرثيا كيس السندوتشات. لم يكن قد نظر إليها بعد. كانت جالسةً في الفراش، بمشد الصدر، والغطاء يغطيها حتى خصرها. كانت تقرأ إحدى الرسائل التي بعثها لبيرالبو من برلين. وبجانب ركبتيها المشيتين أو على الكومودينو تتبعثر مظاريِف فارغة وصفحات مكتوبة. جمعت كلَّ شيء وقفزت من الفراش

بحيوية لتبحث عن بيرة وأكواب ورقية. كانت قطعة ثياب خفيفة وداكنة تلمع كالحرير تحيط بأسفل بطنها وترسم خطأً رفيعاً فوق فخذيها. وعلى جانبي وجهها يتأرجح شعرها المعطر والناعم. فتحت قنيتي بيرة فأغرقت الرغوى يديها. وجدت صينية، وضعت فيها الأكواب والسندوتشات، ولم يبد أنها خمنت سكون ورغبة بيرالبو. شربت جرعةً من البيرة وابتسمت له بشفتين رطبتين، مزيجاً شعرها عن وجهها.

- ما أغرب قراءة تلك الرسائل من زمن بعيد.

- لماذا أردت أن أحضرها؟

- لأعرف كيف كنت حينها.

- لكن لم تحكِ لي فيها الحقيقة أبداً.

- كانت تلك هي الحقيقة الوحيدة: ما كنت أحكيه لك. حياتي الفعلية كانت كذبة. كنت أنقذ نفسي بالكتابة إليك.

- أنا من كنت تنقذيني. كنت أحيأ فقط لانتظار رسائلك. وكففت عن الوجود حين لم تعد تصل.

- أنظر أية حياة عشناها. - شبكت لوكريثيا ذراعيها حول صدرها، كأنها تشعر بالبرد أو تحتضن نفسها. - نكتب الرسائل أو ننتظرها، نحيا على الكلمات، كل هذا الوقت، على كل هذا البعد.

- كنت دائماً إلى جانبي، رغم أنني لا أراك. كنت أسير في الشارع وأقص عليك ما أراه، أنفعل لسماع أغنية في الراديو وأفكر: "بالتأكيد كانت

ستعجب لوكريثيا لو استطاعت سماعها. " لكنني لا أريد أن أتذكر شيئاً. نحن هنا الآن. تلك الليلة، في الليدي بيرد، كنتِ على صواب: التذكر كذبة، نحن لا نكرّر ما حدث منذ ثلاث سنوات.

- أنا خائفة. - أخذت لوكريثيا سيجارة وانتظرت أن يشعلها لها -  
الأرجح أن الوقت تأخر.

- لقد بقينا أحياء بعد كل شيء. لن نفقد أنفسنا الآن.

- من يدري إن كنا قد فقدنا أنفسنا فعلاً.

كان يعرف إيماءة ملتقى شفيتها تلك، ذلك التعبير عن الضراعة الهادئة والتخلي الذي رسمه الزمن بوضوح في نظرة لوكريثيا. لكنه تعلم أنه لم يعد،  
مثلاً قبل سنوات، مؤشراً على انقطاع أنفاسٍ عابر، بل عادةً حاسمة لروحها.  
لا إرادياً أكملًا خطوات إحياءٍ للذكرى: تلك الليلة أيضاً، مثل الأولى،  
التي لا تُمحى من وعي بيرالبو أكثر من أفعاله الراهنة، أطفأت لوكريثيا النور  
قبل أن تنزلق بين الملاءات. وبالضبط مثل تلك المرة أنهى هو سيجارته  
وكأسه في الظلام، وتمدد إلى جوارها، نازعا ملابسه متحسّساً، متعجلاً  
ومتعثراً، برغبةٍ فارغة في التخفي امتدت في تربيته الأولى. ثمة شيء لم يعرف  
أبداً كيف يتذكره: طعمُ فمها، البرق الرهيف والممتد لفخذي لوكريثيا، الإغماء  
من السعادة والرغبة الذي شعر بأنه يضيع فيه حين التقّا حول فخذه.

لكنه قال لي أن جزءاً من وعيه ظلّ غريباً على الحمى، لا تؤثر فيه  
القبلات، واضحاً في تشككه ووحدته، كأنه هو ذاته، هادئاً في ظلمة الغرفة،  
يُبقى اللهب المؤرّق لسيجارته مشتعلًا ويمكنه أن يرى نفسه محتضناً لوكريثيا

وهامسا في مسامعها أن ما يحدث ليس مؤكداً، أنه لا يستعيد مواهب إكمالٍ  
مفقودٍ منذ زمن طويل، بل يريد بعينه المغمضتين وجسده الملتصق بصورةٍ  
عمياء بفخذي لوكرثيا البارد أن ينسج ويُحافظ على محاكاةٍ ليليةٍ بعينها لا  
تتكرر، متخيَّلةً، منسيَّة.

لاحظ الحنق المتبادل للقلبات، وحدة رغبته، الارتياح للظلمة. تلمس  
فيها القرب المعادي بعض الشيء للجسد الآخر الذي لا يريد بعد أن يتقبَّل  
ما تتحسَّسه يداه، الهدوء العنيد، ذلك الحذر المنكمش الذي يتم به التبرؤ  
من اللهب. ظل يستمع إلى ذلك الصوت الذي يُعيد على مسامعه، عاد ليرى  
نفسه متوقفاً عند ناصيةٍ من الغرفة، جاسوساً لا مبالياً يراقب وهو يدخل  
الضوضاء العبثية للجسدين، لا طمأنينة الظلِّين اللذين يتنفسان كأنما يخمشان  
الأرض.

بعدها أشعلَ النور وبُحث عن سجائر. فطلبت منه لوكرثيا أن يطفئه  
دون أن ترفع رأسها عن الوسادة. وقبل أن يفعل نظر بيرالبو إلى وميض  
عينها بين الشعر المشعث. وبجو الحِفة الذي تمضي به حين تمشي حافيةً  
مضت إلى الحمام. سمع بيرالبو كِهانةٍ صوت الصنابير والماء المنسرب في  
البالوعات. وحين خرجت تركت مضاءً ذلك النور البارد كضوء ثلاجة. رآها  
تأتي عاريةً ومنحنية قليلاً وتدخل مصطكة الاسنان من البرد في الفراش،  
وتحتضنه، ووجهها مازال مبتلاً وذقنها ترتجف. لكن علامات الرقة تلك لم تعد  
تثير بيرالبو: فهي أخرى بالتأكيد، وكانت أخرى منذ أن عادت، وربما منذ  
زمن طويل قبلها، قبل أن ترحل، لم تكن المسافة كذبةً، بل خشيةً افتراضٍ

أن يكون المرء قد هزمها، محاكاة التحادث وإشعال السجائر كأنهما لا يعرفان  
أن أية كلمة قد صارت بلا جدوى.

لم يتذكر بيرالبو بعدها إن كان قد استطاع النوم. بل عرف أنه خلال  
ساعاتٍ طويلةٍ واصل احتضانها في الظلمة المغبّشة بضوء الحمام وأن رغبته لم  
تخفّ في أية لحظة. أحيانا كانت لوكريثيا ترّبت عليه أثناء نومها وتبتسم قائلةً  
أشياء لم يستطع فهمها. انتابها كابوسٌ: استيقظت مرتجفةً واضطر إلى  
الإمساك بيديها اللتين كانتا تبحثان عن وجهه لتغرسا فيه أظافرهما. أضاءت  
لوكريثيا النور كأنما لتتأكد أنها استيقظت. وفاقمت التدفئة المفرطة من الأرق.  
وعاود بيرالبو التبعثر في قُرب الأحلام العكّر: ظل يرى الغرفة، والنافذة،  
والأثاث، وحتى ثيابه الملقاة على الأرض، لكنه كان في سان سباستيان أو لم  
تكن بجواره لوكريثيا، أو كانت امرأةً أخرى من يحتضنها متشبثاً.

عرف أنه قد نام حين باغته يقينٌ أن أحداً يتحرك في الغرفة: امرأة،  
مديرة ظهرها، مرتدية بُرنسا غريباً أحمر، لوكريثيا. فضّل أن تظن أنه مازال  
نائماً. رآها تفتح الشلاجة بحرص وتصنع لنفسها كأساً، أغمض عينيه حين  
انحنت على الكومودينو لتأخذ سيجارة. أضاء نور الولاة وجهها. جلست  
أمام النافذة كأنها تستعدّ لانتظار حلول الفجر. تركت كأسها على الأرض  
وأملت رأسها: بدا أنها تُريد أن تتبين شيئاً خلف الزجاج.

- أنت لا تُجيد التظاهر - قالت حين اقترب منها -. انتبهتُ أنك لم  
تكن نائماً.

- ولا أنتِ أيضاً.

- هل كنت ستفضل ذلك ؟

- لاحظتُ ذلك على الفور. أول مرة لمستك فيها. لكنني لم أرد أن أتأكد.

- بدا لي أننا لم نكن وحدنا. حين أطفأتُ النور امتلأ المكانُ بالوجوه، وجوه الناس الذين ناموا هنا في ليالٍ أخرى، وجهك، ليس الآن، بل منذ ثلاثة أعوام، وجه مالكولم؛ حين تمدد فوقى ولم أرفض.

- مالكولم إذن يواصل مراقبتنا.

- شعرت بأنه قريبٌ جداً منا، في الغرفة المجاورة، ينصت إلينا. حلمت به.

- أردتِ أن تخمِشي وجهي.

- التعرف عليك أنقذني. الآن لم أعد أحلم بتلك الأشياء.

- لكنكِ عدتِ إلى الاستيقاظ.

- أنت لا تعرف أنني لا أكاد أنام. في جنيف، حين أحصل على القليل من للنقود، كنت أشتري فاليوم وتبغ، وأكل بما يتبقى.

- لم تخبريني بأنكِ عشت في جنيف.

- ثلاثة أشهر، حين رحلتُ عن برلين. كنت أموت جوعاً. لكن هناك لا تجوع حتى الكلاب. أن تكون مُفلساً في جنيف أسوأ من أن تكون كلباً أو صرصاراً. وقد رأيت المئات منها، في كل مكان، حتى في كومودينات

فنادق الزوج تلك. كنت أكتب لك وأمزق الرسائل. أنظر إلى المرأة وأتساءل  
ماذا ستفكر لو رأيته. أنت لا تعرف الوجه الذي يظهر في المرأة حين  
يتوجب النوم دون طعام. كنت أخاف أن أموت في إحدى تلك الغرف أو  
في وسط الشارع وأن يدفنوني دون أن يعرفوا من أنا.

- هل عرفت هناك رجل الصورة؟

- لا أعرف عمن تتحدث.

- بلى تعرفين. من كان يحتضنك في الغابة.

- حتى الآن لم أغفر لك أنك فتشت حقيتي.

- أعرف: هذا ما كان يفعله مالكوم. من كان؟

- أنت تغار.

- نعم. هل كنت تنامين معه؟

- كانت لديه تجارة تصوير أوراق. أعطاني عملاً. أغمى عليّ تقريبا على

بابه.

- كنت تنامين معه.

- لكن ما أهمية ذلك.

- يهمني أنا. معه لم تكوني ترين وجوها في الظلام؟

- أنت لا تفهم شيئا. كنت وحيدة. كنت هاربة. كانوا يبحثون عني

ليقتلوني. كانت فيه طيبة، تلك التي لا نملكها لا أنت ولا أنا. كان لطيفا وكرما

ولم يوجّه لي أسئلةً أبداً، ولا حتى حين رأى صورتك في حافظتي، قصاصة الصحيفة تلك التي بعثتها إليّ. كذلك لم يسأل حين طلبتُ منه أن يدفع تكاليف العيادة. تظاهر بأنه يعتقد أنه السبب.

انتظرت لوكريثيا في صمتٍ سؤلاً لم يوجهه بيرالبو. كان فمه جافاً ورثاه تؤلمانه، لكنه استمر يدخن بهوسٍ غريبٍ تماماً عن المتعة. كان الفجر يشرق على الجانب الآخر من الأشجار، في سماءٍ ناعمةٍ ورماديةٍ ما زال يتلكأ فوقها الليل، وتخدشها مزقٌ أرجوانية. منذ ساعاتٍ لم يستمعا إلى البحر. وسرعان ما سيرفع أولُ ضوءٍ ضباباً بين الأشجار. واقفةً أمام النافذة، واصلت لوكريثيا الكلام دون أن تنظر إلى بيرالبو. لا ليعلم أو ليشاركها ربما، بل لينال هو أيضاً نصيبه من العقاب، جرعته المناسبة من المهانة والعار.

.... تلك الليلة في الكوخ. لم أحكِ لك كل شيء. أعطوني منوماتٍ وكونياك، كنت أقع حين حملني مالكولم إلى الفراش. نظرتُ له ورأيت فوق كتفيه رأس البرتغالي بعينين مفتوحتين ولسانٍ بنفسجي يتدلى من فمه. خلع ثيابي مثل طفلٍ نائم، ثم دخل توسان ودافني، مبتسمين، كما تعرف، مثل أولئك الآباء الذين يدخلون ليحيّوا تحية المساء. وربما حدث ذلك قبلها. كان توسان يتحدث دائماً مقتربا بشدة، حتى تشم أنفاسه. قال لي: "إذا لم تصمت الطفلة الطيبة سيقطع بابا توسان لسانها." قال ذلك بالإسبانية، وبدا لي أمراً شديداً الغرابة، كنتُ من شهور أتكلّم وحتى أحلم بالألمانية أو الإنجليزية. حتى أنت كنت تحدثني بالألمانية حين أحلم بك. ثم انصرفا. بقيت وحيدةً مع مالكولم، كنت أراه يتحرك في الغرفة، لكنني كنت نائمة، خلع ثيابه فانتبهت إلى ما يريد فعله، لكن لم يمكنني تجنّبه، مثلما حين يطاردونك في الأحلام ولا

تستطيع الجري. كان ثقيلًا ويتحرك فوقى، وكان يئن، بعينين مغمضتين، ويعض في وعنقي ويواصل التحرك وأنا أرغب فقط في أن ينتهي ذلك بأسرع ما يمكن لأتمكن من النوم، كان مالكولم يئن كأنه يحتضر، وبفم مفتوح، لوث وجهي بلعابه. لم يعد يتحرك، لكنه ثقيلٌ كميت، عندها فهمت ما يعنيه ذلك: كان ثقيلًا مثل البرتغالي حين حملوه من رأسه ومن ساقيه وأفلتوه فوق قماش القنب ذاك. بعدها، في جنيف بدأتُ أُغيبُ عن الوعي وأحس بالقيء حين أنهض، لكن ليس من الجوع، وتذكرت مالكولم وتلك الليلة. واللعاب. والطريقة التي يئن بها على فمي.

كان الفجر قد انبلج. ارتدى بيرالبو ملابسه وقال أنه سيذهب بحثًا عن قذحي قهوة. وحين عاد بهما كانت لوكريثيا لاتزال تنظر من النافذة، لكن الضوء كان الآن يزيدُ من حدة تقاطيعها ويجعل جلدّها أشدَّ شحوبًا بالتضادّ مع الحرير الأحمر الذي تلتفُّ فيه، ثوب فضفاضٌ جدًا، ضيقٌ عند الخصر، له طابعٌ غائمٌ صينيٌّ أو من العصر الوسيط. فكر بندمٍ وحنق أن رجل الصورة هو من أهداها إياه. وحين جلست لوكريثيا على الفراش لتشرب القهوة برزت ركبتاها وفخذاها من النسيج الأحمر. لم يرغبها أبدا بهذا القدر. عرف أنه يجب أن يرحل وحيداً: أنه يجب أن يقول ذلك قبل أن تطلبه هي.

- سأخذك إلى لشبونة - قال - لن أطرح أسئلة. أنا أعشقتك.

- ستعودُ إلى سان سباستيان. ستُعيد السيارة إلى فلورو بلووم. قل

له أنني لم أنسه.

- لا يهمني أحدٌ سواك. لن أطلب منك شيئاً ولا حتى أن تكوني حبيبتى.

- إذهب مع بيلي سوان، خذ طائرة غداً بالذات. ستصبح أفضل عازف بيانو زنجي في العالم.

- هذا لن يُساوي شيئاً إن لم تكوني معي. سأفعل ما تريدونه أنت. سأجعلك تحبينني مرة أخرى.

- ما زلت لا تفهم أنتي أمنيح كل شيء من أجل أن يحدث ذلك. لكن الشيء الوحيد الذي أرغب فيه حقاً هو أن أموت. دوماً، الآن، هنا بالذات.

أبداً، ولا حتى حين تعارفا، كان بيرالبو قد استشف في عينيها حناناً كهذا: فكر بآلم واعتزازٍ ويأسٍ أنه لن يعاودُ أبداً العثورَ عليه في عيون أحد على الإطلاق. حين افترقا، قبلته لوكريثيا بشفتين منفرجتين. تركت البرنس الحريري الأحمر ينزلق نحو الأرض ودخلت عاريةً إلى الحمام.

اقترب بيرالبو من الباب المغلق. بيدٍ ساكنةٍ على المقبض استمع إلى وشيش الماء. ثم ارتدى سترته، وأخذ المفاتيح، والمسدس، بعد لحظة تشكك حلتها رؤية ابتسامة توسان مورتون. كانت حافظته تتكور في جيبه على غير العادة: تذكر أنه قبل أن يخرج من سان سباستيان كان قد سحب من البنك كل ماله. فصل بضع أوراق عملةٍ وترك الباقي على الكومودينو، بين صفحات كتاب. استدار بعد أن فتح الباب في سكون: كان قد نسي أن يجمع رسائل لوكريثيا. تألقت شمس أفقية وصفراء على زجاج المدخل. وشم رائحة الأرض الرطبة وكثافة السرخس حين سار صوب السيارة. وفقط حين أدارها وقبل

أنه سيرحل لا مناص، فهم الكلمات الأخيرة التي قالتها لوكريشيا والسكينة التي  
نطقها بها: الآن تمّنى هو أيضا أن يموت بهذه الطريقة الجياشة، المنتقمة  
والباردة التي يتمنى فيها المرء فحسب ما يخصّه وحده، ما يعرف أنه استحقّه  
على الدوام.

## الفصل الحادي عشر

في تمام الثانية عشرة ليلا خفتت الأضواء وضجيجُ المحادثات في المتروبوليتانو وطوق وميضُ أحمر وأزرق الفضاء الذي سيعزف فيه الموسيقيون. في جوٍ هاديءٍ من الحنكة والكفاءة، مثل رجال عصاباتٍ يستعدون لارتكاب جريمةٍ في الساعة المتفق عليها، تعجل أعضاء **ثلاثي جياكومو دولفين**، المتكئين على زاوية لمنصة البار لا يقترب منها سوى النادلة الشقراء وأنا، إنهاء كؤوسهم وسجائرهم وتبادلوا إشارات سرية. تحرك عازفُ الكونترباص بمهابة آنسة زنجية. ومبتسماً ببطءٍ وتكاسلٍ استراح على كرسيه المنخفض وأسند على كتفه اليسرى عنق الكونترباص، متفحصاً المتفرجين كأنه لا يعرف فضيلةً سوى التلطف. واستقر بوبي، عازف الدرامز، أمام الطبول بخبرةٍ وتحفظٍ مصارعٍ مُسَرَّم، لامسا إياها دائريا بفرشاته، دون أن يطرقتها بعد، كأنه يتظاهر بأنه يعزف. لم يكن يشرب الكحول أبداً: وفي تناول يده على الدوام عصير برتقال. "بوبي تطهري"، قال لي بيرالبو، "لا يتعاطى سوى الهيروين". أما هو، بيرالبو، فكان آخر من يترك منصة البار وكأس الويسكي. بشعرٍ أجعدٍ، ونظارات غامقة، بكتفين ساقطتين ويدين عصبيتين على جانبيه مثل يدي قاتلٍ أجير، سار ببطء صوب البيانو دون أن ينظر إلى أحدٍ وإيماءة حادةٍ بلغ لوحة المفاتيح ماداً أصابعه بينما يجلس أمامها. ساد الصمت: وسمعته يُطرق أصابعه إيقاعياً ويضرب الأرض بقدمه ودون إنذارٍ مسبقٍ بدأت الموسيقى، كأنها في الحقيقة ترن منذ زمنٍ طويل

وفي تلك اللحظة فقط سُمح لنا بسماعها، دون تمهيد، دون توكيد، دون بدايةٍ ونهاية، مثلما نستمع فجأة إلى المطر عند الخروج إلى الشارع أو فتح النافذة ذات ليلة شتاء.

ما كان يحدّرنِي في المقام الأول هو سكونُ نظراتهم وسرعة أيديهم، سرعة كل جزءٍ من أجسادهم يمكن أن يبدو فيه الإيقاعُ بوضوح: الرؤوس، الأكتاف، الأعقاب، كان كل ما في ثلاثتهم يتحرك بغريزة التزامن التي تتحرك نابضةً بها خياشيمُ وزعانف الأسماك في الفضاء المغلق لحوض أسماك. بدا أنهم لا يؤدون الموسيقى، أنها تتملكهم بلطفٍ وتخرقهم، وأنهم يدفعونها صوب مسامعنا وقلوبنا في موجات الهواء بالاحتقار الهاديء لمعرفةٍ لا يكادون يتملكونها هم أنفسهم، تنبض موضوعيةً وبلا توقف في الموسيقى مثل الحياة في النبض أو الخوف والرغبة في الظلام. فوق البيانو، بجوار كأس الويسكي، كان لبيرابو ورقة سجل فيها في آخر لحظة عناوين الأغنيات التي يجب أن يعزفوها. ومع الزمن، تعلمتُ أنا أن أتعرفَ عليها، أن أنتظر الفورة الهادئة التي تطفر فيها عن نغمتها لتعود إليها كما يعود نهرٌ إلى ضفافه بعد فيضان، وكلما سمعتها أخذتُ أنالُ من كل واحدةٍ منها توضيحاً لحياتي وحتى لذاكرتي، لما كنت قد رغبته عبثاً منذ ولدت، لكل الأشياء التي لن أنالها والتي تعرفت عليها في الموسيقى بالضبط مثل ملاحي في مرآة.

عند العزف كانوا يشيّدون كتلا معماريةً متألقة وشفافة تنهاوى بعدها مثل ترابٍ زجاجٍ أو يقيمون فضاءاتٍ سكونيةً ضخمة تجاور الصمت الخالص لتتقلص بغتةً حتى تجرح المسامع وتلفها في متاهةٍ محسوبةٍ من القسوة والتنافر. ومبتسمين، بعيونٍ مغمضة، كأنهم يتظاهرون بالبراءة، يعودون

بعدها إلى هدوءٍ كهدهء الكلمات المهموسة. ودائماً ما تكون هناك لحظة دهشةٍ وصمت قبل أن يبدأ التصفيق.

ناظرا إلى بيرالبو، غامضا ووحيدا، كلبيا، سعيدا خلف النظارات الداكنة، مراقبا من منصة بار المتروبوليتانو الأناقة التي لا تتغير والعديمة الوطن لإيماءاته، تساءلت إن كانت تلك الأغنيات مازالت تُشير إلى لوكريثيا، **بورما: خذني إلى القمر، واحدٌ من تلك الأشياء، أغنية الأبا، لشبونة.** اعتقدتُ أنني يكفي أن أكرر أسماءها لأفهم كل شيء. لذا تأخرت كثيرا في فهم ما قاله لي ذات ليلة: أن السيرة الذاتية هي أقدر انحرافٍ يمكن أن يرتكبه موسيقي بينما يعزف. ومن ثم يجب أن أتذكر أنه لم يعد يُدعى سانتياجو بيرالبو، بل جياكومو دولفين، لأنه، بين أشياء أخرى، تبّه عليّ بأن أدعوه كذلك أمام الآخرين. لا، لم يكن ذلك مغالطةً لتجّّب من يدري أية تحرياتٍ للشرطة: فمنذ حوالي أكثر من عام كان ذلك اسمه الوحيد والحقيقي، علامة أنه قد قطع بانضباطٍ مخيفٍ لعنة الماضي.

ما بين سان سباستيان ومدريد كانت سيرته الذاتية مساحةً بيضاء يقطعها اسم مدينةٍ وحيدة، لشبونة، تقطعها تواريجٌ وأماكن تسجيل بعض الاسطوانات. دون أن يودّع فلورو بلووم أو يودعني - لم يقل لي أنه راحلٌ في آخر ليلة شربنا فيها معا في الليدي بيرد - كان قد اختفى من سان سباستيان بعزيمة وحرص من يرحل إلى الأبد. وخلال عامٍ تقريبا عاش في كوبنهاجن. هناك تم تسجيلُ اسطوانته الأولى مع بيلي سوان: ولا تظهر فيها **بورما ولا لشبونة.** وبعد رحلاتٍ قصيرة في ألمانيا والسويد، قام رباعي بيلي سوان، الذي يتضمن من لم يصبح اسمه بعد جياكومو دولفين، بالعزف في

عدة أماكن في نيويورك حوالي أواسط عام 1984. وعن طريق إعلانات مجلة وجدتتها بين أوراق بيرالبو، عرفت أنه خلال صيف ذلك العام، كان ثلاثي جياكومو دولفين - لكن ذلك الاسم لم يظهر بعد في جواز سفره - يعزف بانتظام في عدة نوادي في كيبيك. (عند قراءة ذلك تذكرت فلورو بلووم والسناجب التي تأتي لتأكل من يده واجتاحني شعورٌ باقي بالامتنان والنفى). وفي سبتمبر عام 1984 لم يحضر بيلى سوان مهرجانا معينا في إيطاليا لأنه أدخل مصحةً فرنسية. وبعد شهرين، نفت مجلةٌ أخرى أن يكون قد مات، ذاكرةً كدليل على ذلك مشاركته الفورية في حفلٍ موسيقي تم تنظيمه في لشبونة. لم يكن متوقعا أن يعزف سانتياجو بيرالبو معه. ولم يفعل: فعازف البيانو الذي صاحب بيلى سوان ليلة 12 ديسمبر، في أحد مسارح لشبونة كان، طبقا للصحف، موسيقياً من أصل أيرلندي أو إيطالي يدعى جياكومو دولفين.

في بداية شهر ديسمبر ذاك كان في باريس، دون أن يفعل شيئاً، دون حتى أن يتمشى في المدينة، التي كانت تُضجره، يقرأ روايات بوليسية في غرفة فندق، ويشرب إلى ساعة متأخرة في نوادٍ يملؤها الدخان دون أن يتحدث مع أحد، لأن الفرنسية كانت دوماً تصيبه بالخمول، قال لي أنه كان يتعب على الفور من التحدث بها، مثلما حين يشرب أنواعَ مشروباتٍ روحيةٍ معينة شديدة الحلاوة. كان في باريس مثلما يمكن أن يكون في أي مكان آخر، وحيدا، منتظراً بصورة غامضة عقداً لم يصل، لكن ذلك لم يكن يهيمه كثيراً، بل يفضل أن يتأخروا في مكالمته بضعة أسابيع، لذلك عندما رن التليفون كان مثل سماع منبه غير مرغوب. كان أحد موسيقيي بيلى سوان،

أوسكار، عازف الكونترباس، نفس الشخص الذي سيعزف معه بعدها في المتروبوليتانو. طلبه تليفونيا من لشبونة، وكان صوته يبدو شديد البعد، استغرق بيرالبو وقتا ليفهم ما يقول، أن بيلى سوان مريض جدا، وأن الأطباء يخشون أن يموت. كان قد عاود الشراب في الفترة الأخيرة، قال أوسكار، يشرب حتى يفقد الوعي ويواصل الشرب حين يُفَيِّق من سكرة. وذات يوم انهار بجوار منصة بار واضطروا لحمله في سيارة إسعاف إلى واحدة من تلك المصحات من أجل المجانين والسكران، مصحة مجانين قديمة، خارج لشبونة، مكان يبدو كقلعة مُعلّقة على حافة تلة تكسوها الأشجار. ودون أن يستعيد وعيه تماما نادى بيرالبو أو خاطبه كأنه بجوار فراشه، سأل عنه، طلب أن يُبلغوه، ألا يقولوا له شيئا، أن يأتي في أسرع وقتٍ لعزف معه. "لكن من المحتمل ألا يعود يعزف أبدا"، قال أوسكار. سجل بيرالبو عنوان المصحة، ووضع السماعة، جمع في حقيبة الثياب النظيفة، وجواز السفر، والروايات البوليسية، متاع من لا وطن له. سيسافر إلى لشبونة، لكنه لم يربط بعد اسم تلك المدينة التي ربما سيموت فيها بيلى سوان مع عنوان أغنية كان هو نفسه قد ألفها ولا مع مكانٍ مغلقٍ في ذاكرته لزمّنٍ طويل. فقط بعد ساعاتٍ قلائل، في ردهة المطار، حين رأى **لشبونة** مكتوبةً بحروف مضاءة في اللوحة التي تعلن رحلات الطيران، تذكر ما كانت تعنيه تلك الكلمة بالنسبة له، قبل زمنٍ طويل، في حياةٍ أخرى، وعرف أن كل المدن التي عاش فيها منذ أن رحل عن سان سباستيان كانت مراحل موسّعة من رحلةٍ ربما سيختمها الآن: كم من الزمن ظل ينتظر ويهرب وخلال ساعتين سيصل إلى لشبونة.

## الفصل الثاني عشر

كان قد تخيل مدينة ضباية مثل سان سباستيان أو باريس. أدهشته شفافية الهواء، ودقة الوردي والرمادي في واجهات البيوت، ولون الأسقف الإجماعي المائل إلى الحمرة، واللون الذهبي الساكن الذي يتباطأ على تلال المدينة بالتماع مطر حديث. من نافذة غرفته، بفندق ذي ممرات ظليلة يتحدث فيها الجميع بصوت خافت، رأى ميدانا ذا شرفات متماثلة والمنظر الجانبي لتمثال ملكٍ يمتطي حصانا ويشير بحماس صوب الجنوب. تحقق من أنهم لو كلموه بسرعة تكون البرتغالية مستغلقة كالسويدية. وأن الآخرين يفهمونه بسهولة بالغة: قالوا له أن المكان الذي يود الذهاب إليه قريب جدا من لشبونة. في محطة فسيحة وقديمة صعد إلى قطارٍ دخل على الفور في نفقٍ طويل جدا: وحين خرج منه كان الليل يخيم بالفعل. رأى أحياء ذات مبانٍ عالية بدأت تضاء فيها الأنوار ومحطاتٍ شبه مهجورة ينظر فيها رجالٌ ذوي بشراتٍ داكنة إلى القطار كأنهم ينتظرونه منذ وقتٍ طويل ثم لا يصعدون إليه. أحيانا تمر بجوار نافذته ومضة ضوء قطاراتٍ أخرى متجهة إلى لشبونة. منتشيا بالوحدة والصمت أخذ ينظر إلى وجوه مجهولة وأماكن غريبة كأنه يتأمل تلك الومضات الصفراء التي تظهر في الظلمة حين تُغمض أعيننا. إذا أغمض هو عينيه لا يعود في لشبونة: يسافر في المترو تحت أرض باريس أو في واحدٍ من تلك القطارات التي تعبر غاباتٍ من أشجار البتولا الداكنة في شمال أوروبا.

بعد كل محطة كان القطار يفرغ أكثر من الركاب. وحين أصبح وحيدا في العربة خشي بيرالبو أن يكون قد تاه. شعر بنفس همود وخشية من يسافر في المترو في آخر ساعات الليل ولا يسمع ولا يرى أحداً ويخشى ألا يذهب ذلك القطار إلى حيث أعلنوا أو أن تكون كابينة القيادة خالية. في النهاية ترجل في محطة قدرة بجدران من القيشاني. وقامت امرأة تسير على الرصيف مؤرجحة مصباح إشارات - فكر بيرالبو أنه يشبه تلك المصباح الضخمة التي كان يحملها الغواصون تحت الماء منذ قرن - يارشاده إلى طريقة الوصول إلى المصححة. كانت ليلة رطبة ودون قمر، وعند الخروج من المحطة لاحظ بيرالبو الرائحة الطاغية للأرض المبتلة ولحاء أشجار الصنوبر. هكذا بالضبط كانت الرائحة في سان سباستيان في ليالي شتاء معينة، في كثافة جبل أورجول.

تقدّم في الطريق السريع السيء الإضاءة ووراء الخوف من أن يكون بيلى سوان قد مات فعلا كان ثمة شعور غير مُعترف به بالخطر وبالذاكرة المرتجفة التي تحوّل إلى رموز أضواء البيوت المنعزلة، ورائحة الغابة التي يبعثها الليل، وخير الماء الذي يُنقّط ويجري في مكان ما، قريبا جدا، بين الأشجار. لم تعد المحطة تظهر وبدا له أن الطريق السريع والليل ينغلقان خلف ظهره، ولم يعد واثقا من أنه فهم ما قالته امرأة المصباح. عندها انحرف في منعطف ورأى الظلّ العالي لجبل ثرقشه الأضواء وقرية تتجمع مبانيها حول قصر أو قلعة ذات أعمدة عالية وأقواس وأبراج غريبة أو مداخن مخروطية مضاءة من أسفل، يُضخمها ضوء كأنه ضوء مشاعل.

كان التقدّم صوب ذلك الضوء الوحيد الذي يرتجف في الظلام يعادلُ التوهان في مشهد حلم: على يسار الطريق السريع وجد الطريق الذي حدثته عنه المرأة والإشارة إلى المصححة. كان الطريق يصعد ملتويا بين الأشجار، مضاءً إضاءةً سيئة بأعمدة نورٍ منخفضة صفراء مخبّأة بين الأعشاب. تذكر شيئا قالت له لوكريثيا ذات مرة: أن الوصول إلى لشبونة سيكون مثل الوصول إلى نهاية العالم. تذكر أنه حلم بها الليلة الماضية: حلمٌ قصير يقطعه السخط رأى فيه وجهها كما كان منذ سنواتٍ بعيدة، حين تعارفا، بدقةٍ بالغة بحيث لم يتعرف عليه إلا حين استيقظ. فكر أن رائحة الغابة هي ما جعلته يتذكرها: كاسراً عادة النسيان الراسخة عاد إلى سان سباستيان، ثم إلى مكانٍ آخر أبعد، ما زال مجهولاً، مثل محطةٍ لم يتمكن بعد من قراءة اسمها من نافذة القطار. كان، كما شرح لي في مدريد، كأنه منذ أن وصل إلى لشبونة أخذت تتلاشى حدودُ الزمن، واتماؤه الطوعي إلى الحاضر وإلى النسيان، الثمرة الحصرية للانضباط وللإرادة، مثل معرفته بالموسيقى: كأن في الطريق الذي يعبر تلك الغابة ترسم بصورةٍ خفية الحدودُ بين بلدين عدوين وأنه قد عبرها في موضعٍ ما. فهم هذا وخشيته عندما بلغ مدخل المصححة، حين رأى أضواء المدخل والسيارات المصفوفة أمامه: لم يكن يتذكر تمشيته في سان سباستيان بجوار منحدرات جبل أورجول، لم تكن تلك رائحة ولا إحساس الضباب والرطوبة اللذين أعادا إليه أسى فقدان لوكريثيا في زمنٍ آخر من حياته ومن العالم. كان مكاناً آخر وليلةً أخرى ما كان يتذكره، أضواء فندق، بريق سيارةٍ مخبّأة بين أشجار الصنوبر وأعشاب السرخس العالية، رحلةً لم تكتمل إلى لشبونة، المرة الأخيرة التي كان فيها مع لوكريثيا.

قالت له راهبةٌ بغطاء رأسٍ ينبسطُ كجناحين أبيضين حول رأسها أن الوقت لم يعد وقت زيارات. أوضح أنه قد أتى من بعيدٍ جداً لمجرد أن يرى بيلي سوان، الذي يخشى أن يجده ميتاً إذا تأخر ساعةً أو يوماً. برأسٍ منكسٍ ابتسمت له الراهبة لأول مرة. كانت شابةً بعينين زرقاوين وتتحدث بالإنجليزية هادئة. "مستر سوان لن يموت. ليس الآن." ومُحرّكةً أمامه غطاء رأسها الأبيض الصلب، سائرةً على بلاط الممرات البارد كأنها لا تكاد تُباعد بين قدميها، قادت بيرالبو نحو غرفة بيلي سوان. من الأقواس العالية تتدلى كرات ضوءٍ متسخة من التراب، مثلما في السينمات القديمة، وعند كل منعطف للممرات وفي بسطات السلام ينعس ساعةٌ بزي رسمي رمادي فوق مناضد تبدو مأخوذةً من مكاتب قديمة. وجالساً على دكة، أمام بابٍ مغلق، كان أوسكار، عازف الكونترباص، وذراعه القويتان متقاطعتان ورأسه ساقط على صدره، كأنه نام لتوّه.

- لم يتحرّك من هنا منذ أن أحضروا مستر سوان.

تحدثت الراهبة همساً، لكن أوسكار نهض، وهو يفرك عينيه، ويتنسم لبيرالبو بامتنانٍ ودهشةٍ منهكين.

- لقد تحسّن - قال -. اليوم أفضل بكثير. خشي أن يكون يوم الحفل قد فات.

- متى كنتم ستعزفون؟

- الأسبوع القادم. مازال هو مقتنعاً بأننا سنفعل.

- مستر سوان قد جُنّ. - حركت الراهبة رأسها فأثار جناحا غطاء رأسها الهواء.

- ستعزفون - قال بيرالبو - بيلي سوان خالداً.

- صعب. - كان أوسكار ما زال يفرك عينيه بأصابعه الضخمة ذات الأطراف البيضاء. - فعازفا البيانو والدرامز قد رحلا.  
- سأعزفُ معكما.

- كان العجوز متألماً لأنك لم تردّ المجيء إلى لشبونة - قال أوسكار -  
في البداية، حين أحضرناه إلى هنا، لم يُرد أن أبلغك. لكن عندما يهذي كان يقول اسمك.

- تستطيعان الدخول - قالت الراهبة من عند الباب الموارب -.  
مستر سوان مستيقظ.

من قبل أن يراه، منذ أن اشتم في الهواء رائحة المرض والأدوية، شعر بيرالبو أنه يمتلكه دافع عميق الغور من الولاء والحنان، وكذلك من الذنب والضراعة، من الارتياح، لأنه لم يُرد أن يذهب مع بيلي سوان إلى لشبونة وعقاباً على ذلك كان على وشك ألا يراه ثانية. يا لها من خيانةٍ قذرة، سمعته يقول ذات مرة، لأن المرء حتى حين لا يكون واقعا في الحب يكون قادراً على تفضيل حب أصدقائه: دخل الغرفة ولم يستطع بعد رؤية بيلي سوان، كان الجو مظلماً جداً، كان ثمة نافذة وأريكة مُجلدة بالبلاستيك، وفوقها جرابُ الترومبيت الأسود، ثم، إلى اليمين، فراش مرتفع وأبيض وأباجورة تضيء بخفوت الملامح القاسية لقرد، الجسد الخفيف، الموجود بالكاد، تحت

الملاءات واللحاف، البيجاما العبثية المخططة لبيلي سوان. بذراعين مستقيمين على جانبيه ورأس مستند على الوسائد الكبيرة كان بيلي سوان يرقد بالغ السكون كأنه في وضعٍ لعملٍ تمثالٍ جنازتي. حين سمع أصواتاً دبّت فيه الحياة وتحسس الكومودينو بحثاً عن نظارته.

- ابن القحبة - قال، مشيراً إلى أوسكار بالظفر الطويل والأصفر لسبابته -. منعُك من أن تطلبه. قلت لك أنني لا أريدُ رؤيته في لشبونة. ظننتُ أنني سأموت، أليس كذلك؟ دعوتُ الأصدقاء القدامي إلى جنازة بيلي سوان...

كانت اليدان اللتان ترتجفان ارتجافاً خفيفاً، أشدّ نحولاً من أي وقت مضى، تشكلهما الهيئَةُ الخالصة للعظام، على غرار وجنتيه وصدغيه وفكيه المتوترين لجثمانٍ، لهيكلٍ عظمي تحول إلى محاكاةٍ ساخرة للرجل الحي الذي يحفظه. مجرد مجموعٍ عصبي وجلدٍ تخترقه عروق مدمن كحول: بدا أن الهيكل الأسود للنظارة يُشكل جزءاً من عظامه، مما يتبقى منه حين يكون قد مات من زمنٍ طويل. لكن في عينيه المحفورتين مثلما في قناعٍ جاحدٍ من الكرتون وفي الخط المرير لفمه يبقى سليماً لا يُمسُّ الكبرياء والتهكم، السلطة المقدسة للهرطقة والإدانة، المشروعة الآن أكثر من أي وقتٍ مضى، لأنه ينظر إلى الموت بنفس الاحتقار الذي نظر به في زمنٍ آخر إلى الإخفاق.

- إذن فقد جئت - قال لبيرالبو، وعندما احتضنه استندَ عليه مثل ملاكٍ مُخادع -. لم تُرد أن تعزفَ معي في لشبونة، لكنك جئتَ لتراني أموت.

- جئت أطلبُ عملاً، يا بيلي - قال بيرالبو - إخبارني أوسكار أنك ليس لديك عازف بيانو.

- لسان يهوذا. - ودون أن ينزع نظارته غاص بيلي سوان برأسه بين الوسائد الضخمة. - لا عازف درامز ولا عازف بيانو. لا أحد يريد العزف مع ميت. ماذا كنت تفعل في باريس؟

- أقرأ روايات في الفراش. أنت ليست ميتاً، يا بيلي. أنت حيٌّ أكثر منا.

- اشرح ذلك لأوسكار وللراهبة وللطبيب. حين يدخلون هنا ينتصبون قليلاً لينظروا إلي، كأنهم يروني في التابوت.

- سنعزف معاً يوم 12، يا بيلي. مثلما في كونهاجن، مثلما في الأيام الخوالي.

- ماذا تدري أنت عن الأيام الخوالي، يا فتى. جرت قبل أن تولد أنت بكثير. مات آخرون في اللحظة المناسبة ومنذ ثلاثين عاماً يعزفون في الجحيم أو أينما شاء الربُّ لأمثالنا من الناس. أنظر إليّ، أنا شبَّحُ، أنا لاجي. لا من بلدي، بل من ذلك الزمن. نحن الباقون نتظاهر بأننا لم نمت، لكن ذلك كذبة، نحن أفاقون.

- أنت لا تكذبُ أبداً حين تعزف.

- لكنني أيضاً لا أقولُ الحقيقة...

حين انفجر بيلى سوان ضاحكا تقلّصت سحنّته مثلما فى نوبة ألم. تذكر  
بيرالبو الصورَ الفوتوغرافية لاسطواناته الأولى، صورته الجانبية لقاطع طريقٍ  
أو لبطلٍ وغدٍ بخصلة شعرٍ تلمع بالدهان بين عينيه. كان هذا ما صنعه الزمن  
بوجهه: قلّصه، مُغَطِّساً الجبهةَ التى ما زال فوقها بقيةٌ من تلك الخصلة المخيفة،  
ومُوَحِّداً فى تقطيةٍ واحدة كأنها لرأسٍ مختزل الأنفَ والفمَ والذقنَ المشقوقة  
التى تكاد تختفى حين يعزف بيلى الترومبيت. فكر أنه ربما كان ميتاً، لكن  
أحداً لم يهزمه، لا أحد ولا شيء، أبداً، ولا حتى الكحول أو النسيان.

طرقوا الباب. فتحه قليلاً أوسكار، الذى بقى بجواره كحارسٍ صامت،  
ليرى من الطارق: فى الفرجة ظهر الرأس المتحرك والمجنّح للراهبة، التى  
تفحصت الغرفة كأنها تبحث عن ويسكى مُهرَّب. قالت أن الوقت متأخر  
جداً، وقد حانت ساعة أن يدعوا المستر سوان ينام.

- أنا لا أنام أبداً، يا أخته - قال بيلى سوان -. أحضري لى قنينة من  
النبيذ المقدس أو اطلبي من رب الكاثوليك أن يعالجني من الأرق.

- سآتي لأراك غداً. - بيرالبو، الذى احتفظ بالخوف الطفولي من  
أغطية الرأس البيضاء للراهبات، استجاب على الفور لالترام أن ينصرف -.  
أطلبني إذا احتجت شيئاً. فى أية ساعة. أوسكار لديه رقم فندقى.

- لا أريدك أن تأتى غداً. - بدت عينا بيلى سوان أكبر خلف زجاج  
النظارة -. إرحل من لشبونة، غدا بالذات، هذه الليلة. لا أريدك أن تبقى  
لتنظر موتى. وليذهب أوسكار معك.

- سنعزف معاً، يا بيلى. يوم 12.

- لم تُرد أن تأتي إلى لشبونة، أتذكر؟ - نهض بيلى سوان، مستندا على أوسكار، دون أن ينظر إلى بيرالبو، مثل أعمى -. أعرف أن الأمر أفرعك ولهذا حكيت لي كذبة أنك كنت ستعزف في باريس. لا تندم الآن. ما زلت خائفا. اسمع كلامي وارحل ولا تُدر رأسك.

لكن الخائف تلك الليلة كان بيلى سوان، أخبرني بيرالبو، كان خائفا من الموت، أو من أن يرى أحد كيف يموت، أو من ألا يكون وحيدا في الساعات الأخيرة للاحتضار: خائفا لا على نفسه فحسب، بل كذلك على بيرالبو، ومن يدري إن كان خائفا عليه وحده، إذ لا يجب أن يرى شيئا كان بيلى سوان قد استشفه في غرفة تلك المصححة في نهاية العالم. كأنما لينقذه من حادث غرق أو من عدوى الموت طالبه بأن يمضي، ثم سقط على الوسائد ورفعت له الراهبة الغطاء وأطفأت النور.

حين وصل بيرالبو إلى المحطة أدهشه اكتشاف أن الساعة لم تتعد التاسعة مساءً. فكر أن تلك الأماكن، المصححة، الغابة، القرية، القلعة ذات الأبراج المخروطية والجدران التي تحجبها الأعشاب، هي أماكن ليلية حصريا، لا يصل إليها الشروق أبدا أو تتلاشى مثل الضباب مع ضوء الشمس. في البوفيه شرب روم بلون الأوبال ودخن سيجارة بينما ينتظر قيام القطار. بقليل من السعادة والفرح أحس بأنه ضائع وأجنبي، أكثر من باريس أو استوكهولم، لأن اسمي هاتين المدينتين موجودان في الخرائط على الأقل. بالسيادة المربعة لمن هو وحيد في بلد غريب ازدرد كأسا أخرى من الروم وصعد إلى القطار، عارفا بالحالة الدقيقة للوعي التي يُتيحها له الكحول، والوحدة، والرحلة. قال **لشبونة** حين شاهد اقتراب أضواء المدينة كما يقال

اسمُ امرأةٍ يقبلها المرءُ ولا تحرك مشاعره. وفي محطةٍ بدت مهجورةً توقف  
القطار بجوار آخرٍ يتقدم في الاتجاه المضاد. دَوَّت الصفارة وبدأ الاثنان  
يتحركان ببطءٍ شديد، بضجيج معادنٍ تتصادم دون إيقاع. مدفوعا إلى  
الأمام، نظر بيرالبو إلى نوافذ القطار الآخر، وجوهٌ دقيقة ونائية لن يراها ثانيةً  
أبداً، تنظر إليه بنوعٍ من السوداوية المتماثلة. وحدها في العربة الأخيرة، قبل  
الأضواء الحمراء للظلمة العائدة، كانت امرأةٌ تدخن ورأسها منكس، مستغرقةً  
في ذاتها بحيث لم ترفع حتى عينيها لتتنظر إلى الخارج حين بدأ قطارها سيره.  
كانت ترتدي سترةً ضخمة زرقاء داكنة بياقةٍ مرفوعة وشعرها بالغ القصر.  
"كان السبب هو الشعر"، قال لي بيرالبو بعدها، "لذا لم أتعرف عليها في  
البداية". بلا جدوى نهض واقفاً ولوح بيده للفراغ، لأن قطاره كان قد دخل  
بصورةٍ مُدوِّخةٍ في نفقٍ حين انتبه أنه لثانيةٍ واحدةٍ رأى لوكريثيا.

## الفصل الثالث عشر

لم يتذكر كم من الوقت، كم من الساعات أو الأيام سار كمْسَرَمٍ عبر شوارع وسلا لم لشبونة، عبر الأزقة القذرة والمطلّات العالية والميادين ذات الأعمدة وتماثيل الملوك على صهوة الجياد، بين المحال الكبرى المظلمة وأكوام نفايات الميناء، بعيداً، على الجانب الآخر لجسرٍ لا محدودٍ وأحمر يعبر نهراً يشبه البحر، في ضواحي من كتل المباني التي ترتفع كفنارات أو جزرٍ وسط الأراضي المكشوفة، في المحطات الشبّحية القريبة من المدينة التي يقرأ أسماءها دون أن يتمكن من تذكر تلك التي رأى فيها لوكريثيا. أراد أن يستسلم للحظ كي يتكرر المستحيل: كان ينظر واحداً واحداً إلى وجوه كل النساء، من تعبرن به في الشارع، من تعبرن ساكناتٍ خلف نوافذ عربات الترام والحافلات، من يغصن في عمق سيارات التاكسي أو يُطللن من نافذة في شارعٍ مهجور. وجوهٌ عجوز، متبلّدة، مبتدلة، وقحة، إيماءاتٌ ونظراتٌ لا نهائية وستراتٌ زرقاء لم تنتم أبداً للوكريثيا، متماثلةٌ فيما بينها مثل تقاطعات الطرق، مثل المداخل المظلمة، مثل الأسقف المحمّرة ومتاهة أسوأ شوارع لشبونة. كان يدفعه عنادٌ مُجهّد كان سيسمّيه في زمنٍ آخر يأساً، مثلما يدفع البحر من لم تعد لديه قوةٌ لمواصلة السباحة، وحتى حين يمنح نفسه هدنةً ويدخل مقهى، كان يختار طاولةً يمكنه منها أن يرى الشارع، ومن التاكسي الذي يُعيده في منتصف الليل إلى فندقه كان ينظر إلى الأرصفة المهجورة للطرق والنواصي المضاءة بإعلانات نيونٍ تتوقّف عندها نساءٌ وحيدات عاقداتٍ أذرعهن.

وحين يطفئُ النور ويتمدد مُدخّناً في الفراش كان يواصل في الظلمة رؤية وجوه وشوارع وحشودٍ تمر أمام عينيه المسبلتين بسرعةٍ صامتة كأنها صور فانوسٍ سحري، ولم يكن الإجهادُ يتركه ينام، كأن نظرتَه، النهمة لمواصلة البحث، تترك جسده الساكن والمهزوم فوق الفراش وتخرج إلى المدينة لتُعاود التوهان فيها حتى نهاية الليل.

لكنه لم يعد واثقاً من أنه رأى لوكريثيا ولا أن الحب هو ما يُجبره على البحث عنها. فخاضعاً لتلك الحالة التنويمية لمن يسير وحيداً في مدينةٍ مجهولة لم يكن حتى يعرفُ أنه يبحثُ عنها: يعرفُ فحسب أنه مُحصَّنٌ ضد الطمأنينة ليلَ نهارٍ، أنه في كل واحدٍ من الأزقة التي تتسلَّقُ تلال لشبونة أو تغطس بحدةٍ كمسارب ضيقةٍ ثمة نداءٌ سري لا يلين لا يمكنه أن يعصيه، أنه ربما توجَّب عليه وكان بإمكانه أن يرحل حين أمره بيلي سوان بذلك، لكن فات الأوان، كأنه فقدَ القطارَ الأخير للخروج من مدينةٍ مُحاصرة.

في الصباح، كان يذهب إلى المصحّة. يراقب عبثاً وبصورةٍ غيبية نوافذ القطارات التي تقابل قطاره ويقرأ أسماء المحطات حتى حفظها. ملتفاً بثوبٍ واسعٍ جداً عليه وببطانيةٍ فوق ركبتيه، كان بيلي سوان يقضي أيامه ناظراً إلى الغابة والقرية من نافذة غرفته ولا يكاد يتكلم. دون أن يستدير، يمد يده ليطلب سيجارةً ثم يتركها تشتعل دون أن يرفعها إلى شفثيه أكثر من مرةٍ أو مرتين. رآه بيرالبو من الخلف مرسوماً في الضياء الرمادي للنافذة، خاملاً ووحيداً مثل تمثالٍ في ميدانٍ خالٍ. من اليد الطويلة والمحنية التي تُمسك السيجارة ينبعث الدخانُ رأسياً. حرّكها قليلاً ليتخلص من الرماد الذي يسقط إلى جانبه دون أن يلقي بالاً، لكن المرء لو اقترب لتبيّن في الأصابع

رجفةً واهنةً جداً لا تتوقف أبداً. كان ضبابٌ مغبّشٌ ورطب بالرذاذ يحجبُ المنظر ويجعل الأماكن والأشياء تبدو نائيةً. لم يتذكر بيرالبو أنه رأى بيلي سوان أبداً بهذا الهدوء أو بهذه الوداعة، متحرراً من كل شيء، بما في ذلك الموسيقى والكحول. ومن حينٍ لآخر يغني شيئاً بصوتٍ خفيضٍ جداً، بعذوبةٍ مستغرقةٍ في ذاتها، أبياتٍ ابتهالاتٍ زنجيةٍ قديمةٍ أو أغنيات حب، دائماً من الخلف، في مواجهة النافذة، بخيط صوتٍ واهن، ثم يضمّ شفّيته ليقلدّ بتراخٍ صوت ترومبيت. في الصباح الأول، حين دخل ليراه، سمعه بيرالبو يخترع تنويعاتٍ غريبة على لحنٍ كان في نفس الآن مجهولاً ومألوفاً، لشبونة. بقي بجوار الباب الموارب، لأن بيلي سوان لم يبدُ أنه لاحظ وجوده وكان يغغم بالموسيقى كأنه وحده، محمداً الإيقاع بقدمه بهدوء.

- إذن فأنت لم ترحل - قال، دون أن يستدير نحوه، محدّقا في زجاج النافذة كأنما في مرآةٍ يمكنه أن يرى فيها بيرالبو.

- الليلة الماضية رأيت لوكريثيا.

- من ؟ - الآن استدار بيلي سوان. كان حليقا وشعره الخفيف الذي ما زال أسود يلمع بالدهان. كانت النظارة والثوب يمنحانه مظهر شخصٍ وادعٍ على المعاش. لكن ذلك المظهر سرعان ما يكذّبه وميضُ عينيه والتوتر الغريب لعظامه تحت جلد الوجنتين: فكر بيرالبو أن على هذا النحو لا بد أن يلمع فكاً ميتٌ حديث الحلاقة.

- لوكريثيا. لا يمكن أن تجعلني أعتقد أنك نسيتها.

- فتاة برلين - قال بيلي سوان بما يشبه الأسي أو التهمك - هل أنت واثق أنك لم تر شبحاً؟ دائماً ما اعتقدت أنها شبح.

- رأيته في قطارٍ قادمٍ إلى هنا.

- هل تسألني إن كنت أنت لزيارتي؟

- ذلك احتمال.

- لا يخطر لأحدٍ إلا أنت أو أوسكار أن يأتي إلى مكانٍ كهذا. الممرات تفوح برائحة الموت. ألم تلاحظ؟ يفوح برائحة الكحول، والكلوروفورم والزهور مثلما في محلات حانوتية نيويورك. وتسمع صرخات بالليل. أشخاص مقيدون بالحبال إلى أسرهم يرون صراصير تصعد على سيقانهم.

- لم يدم الأمر ولو ثانية. - الآن كان بيرالبو واقفا بجوار بيلي سوان وينظر إلى الغابة الخضراء الداكنة بين الضباب، والفيللات المتناثرة في الوادي، تتوجها أعمدة الدخان، والمظلات البعيدة للمحطة. وصل إليها قطار، بدا أنه يتقدم في صمت - تأخرت قليلا في الانتباه إلى أنني رأيته. قصت شعرها.

- كان خيالك، يا فتى. هذا بلدٌ شديد الغرابة. هنا تحدث الأشياء بطريقةٍ أخرى، كأنها حدثت منذ سنواتٍ والمرء يتذكرها.

- كنت في ذلك القطار، يا بيلي، أنا متأكد.

- وماذا يهْمُك في ذلك. - نزع بيلي سوان النظارة ببطء: كان يفعل ذلك كلما أراد أن يُبين لأحدٍ كل كثافة لامبالاته - لقد شُفيت، أليس

كذلك؟ لقد عقدنا اتفاقاً. هل تذكر؟ أنا أكف عن الشراب وأنت عن لعق جراحك مثل كلب.

- لكنك لم تكف عن الشراب.

- لقد فعلت الآن. يبلي سوان سيمضي إلى القبر صاحياً أكثر من

مورمون.

- هل رأيت لوكريشيا؟

أعاد يبلي سوان ارتداء النظارة ولم ينظر إليه. نظر ملياً إلى أبراج أو مداخن القصر وقد أظلمها المطر حين عاود مخاطبته، بتوقيع مدرّسين ومحايّد، كأنه يتحدث إلى خادم، إلى أحد لا يراه المرء.

- إن لم تصدقني فاسأل أوسكار. هو لن يكذب عليك. إسأله إن كان

قد زارني شبح.

"لكن الشبح الوحيد لم يكن لوكريشيا، بل أنا"، قال لي بيرالو بعدها بأكثر من عام، آخر ليلة تتقابل فيها، مضطجعا على فراش فندقه في مدريد، ثلّا بالويسكي بهدوء وبلا حياء، من الوضوح والاعتراّب عن كل شيء كأنه يتحدث أمام مرآة: كان هو من لا يكاد يوجد، من يأخذ في الانمحاء خلال مسيراته عبر لشبونة مثل ذكرى وجه رأيناه مرة واحدة. كذلك نفى أوسكار أن تكون امرأة قد زارت يبلي سوان: أكيد، قال، فلم يغيب عن هناك أبداً، كان سيرها، لماذا سيكذب عليه. من جديد هبط وحيدا عبر درب الغابة وشرب في المحطة بينما ينتظر قطار العودة إلى لشبونة، ناظراً إلى الجير الوردي للجدران والبواكي البيضاء للمصحة، مُفكِّراً في الهدوء الغريب لبلي

سوان، الذي سيظل بلا حراكٍ وراء واحدةٍ من تلك النوافذ، يكاد يحسّ بمراقبته وتوبيخه مثلما يتذكر الطريقة التي غمغم بها صوته أنغام الأغنية التي كتبها بيرالبو قبل الوصول إلى لشبونة بوقتٍ طويل.

عاد إلى المدينة ليفقد نفسه فيها مثلما في واحدةٍ من ليالي الموسيقى والبوربون تلك التي لم يكن يبدو أنها ستنتهي أبداً. لكن الشتاء أظلم الشوارع الآن والنوارس تطيرُ فوق الأسطح والتماثيل على صهوة جيادٍ كأنها تبحثُ عن ملاذٍ من عواصف البحر. كان في كل حلولٍ مبكرٍ لليل لحظةٍ تبدو فيها المدينة وقد هزمها الشتاء بصورةٍ حاسمة. من ضفة النهر طوّق الضبابُ ماحيا الأفق والمباني الأعلى على التلال، وامتد هيكلُ الجسر الأحمر الممدود فوق المياه الرمادية في الفراغ. لكن عندها بدأت تُضاء الأنوار، أعمدة الإنارة المُصطفة للشوارع الكبرى، الإعلانات المضاءة الشاحبة التي تنظفيء وتُخفق مُشكّلة أسماء أو رسوماً، خطوطاً عابرة من النيون تصبغ إيقاعياً بالوردي والأحمر والأزرق السماء الواطئة للشبونة.

ظل يسير على الدوام، مؤزّقاً خلف ياقةٍ معطفه، مُتعرّفاً على أماكن مرّ بها مراتٍ عديدة أو تائهاً حين يكون أكثر يقيناً من أنه قد تعلم خريطة المدينة. كان، كما قال لي، كمن يشرب ببطءٍ أحد مشروبات الجين المعطرة تلك التي لها شفافية الزجاج والصباحات الباردة لشهر ديسمبر، كمن يُعدي نفسه بمادةٍ مسمومةٍ وحلوة تُوسّع الوعي إلى أبعدٍ من حدود العقل والخوف. أدرك كل الأشياء بدقةٍ ثلجية استشرّف وراءها بعض الأحيان الطبيعية التي يمكن بها الانزلاق نحو الجنون. تعلم أنه بالنسبة لمن يقضي وقتاً طويلاً وحيداً في مدينةٍ أجنبية ما من شيءٍ لا يمكن أن يتحول إلى أولى علامات الهلوسة:

أن وجه النادل الذي يقدّم له قهوةً أو عاملٍ الاستقبال الذي يسلمه مفتاح غرفته لا واقعيين تاما مثل الحضور المصادف والمفقود بغتةً للوكريثيا، مثل وجهه هو في مرآةٍ مرحاض.

لم يكفّ أبداً عن البحث عنها ولم يكد يفكر فيها أبداً. بنفس الطريقة التي يعزلُ بها الضبابُ ومياهُ نهر التاخو لشبونةً عن العالم، مُحَوِّلةً إياها لا إلى مكانٍ، بل إلى مشهدٍ للزمن، أدركَ هو للمرة الأولى في حياته الانعزالَ المطلقَ لأفعاله: أخذ يُصبح غريباً تماماً عن ماضيه الخاص وعن مستقبله وكذلك عن الأشياء التي تُحيط به ليلاً في غرفة الفندق. ربما في لشبونة عرفَ تلك السعادة المخيفة والمتقشّفة التي اكتشفْتُها فيه في أول ليلةٍ أراه يعزف في المتروبوليتانو. أتذكر شيئاً قاله لي ذات مرة: أن لشبونة هي وطنُ روحه، الوطنُ الوحيد الممكن لمن يولدون أجانب.

وكذلك لمن يختارون العيشَ والموتَ كمنشقين: كانت إحدى الأقوال المأثورة لبيلي سوان هي أن كلَّ شخص يتمتع بالتهذيب ينتهي به الأمرُ إلى احتقارِ البلد الذي وُلِدَ فيه ويهربُ منه للأبد وهو ينفضُ الغبارَ عن صندله. ذات مساءً، وجد بيرالبو نفسه متعباً وضائعاً في ضاحيةٍ لم يكن ليعود منها ماشياً قبل أن يحلّ الليل. مستودعات مهجورة من الطوب الأحمر تصطف إلى جانب النهر. على الضفاف القذرة كمكباتِ نفاياتٍ كانت ملقاةً بين الحشائش ماكيناتٌ قديمة تبدو عظاماً لحيواناتٍ بائدة. سمع بيرالبو ضجيجاً مألوفاً وبعيداً كأنما لمعادن تتصادم. اقترب ترامٌ ببطء، عالياً وأصفر، يتمايل فوق القضبان، بين الجدران المسودة وفضاءاتِ الحثالة. صعد إليه: لم يفهم ما كان يقوله السائق، لكن لم يهّمه إلى أين يذهب. بعيداً، فوق المدينة، كانت

تلتعُ ضبايئة شمس الشتاء، لكن المشهد الذي كان يعبره بيرالبو كانت له رمادية غروبٍ ماطر. في نهاية رحلةٍ بدت له بالغة الطول توقف الترام في ميدانٍ مفتوحٍ على مصبّ النهر. كانت له أروقة عميقة مكلّلةً بتماثيل وواجهاتٍ من الرخام وسلم يغوصُ في الماء. وفوق منصةٍ ذات أفيالٍ بيضاء وملائكةٍ يرفعون أبواقاً برونزية، كان ملكٌ لم يعرف بيرالبو اسمه أبداً يمسكُ بعنانٍ حصانه منتصباً بسكينةٍ بطلٍ ضد ريح البحر التي تنضحُ برائحة الميناء والمطر. كان الوقت لا زال نهرا، لكن الأضواء بدأت تُضاء في الغبش الرطب المرتفع لصفوف الأعمدة. عبر بيرالبو تحت قوسٍ من المجازات والشعارات وعلى الفور تاه في شوارع لم يكن واثقا أنه زارها من قبل. لكن ذلك كان دائماً ما يحدث له في لشبونة: لم ينجح في التمييز بين المجهولية والذكرى. كانت شوارعٌ أشدَّ ضيقاً وظلمة، تعمُرُها مخازنٌ عميقة وروائحٌ ميناءٍ كثيفة. سار عبر ميدانٍ ضخمٍ وثلجي كأنه ناووسٌ من الرخام تلمع فيه على الأرضية المرصوفة القضبان المنحنية للترام، عبر شارعٍ ليس فيه بابٌ واحد، بل جدارٌ طويل رمادي به نوافذ بقضبان. دخل في زقاقٍ كأنه نفقٌ يفوح برائحة بدروم وأجولة بنٍ وسار بسرعةٍ أكبر عند سماعه خطوات رجلٍ آخر خلفه.

عاود الالتفاف، يملكه الخوف أن يكونوا يتبعونه. أعطى قطعة عملة لشحاذ جالسٍ على درجٍ وجواره ساقٌ طبية، لائقة تماماً، بلون برتقالي، وبجورب بمربعات، بأحزمة وعرواتٍ وفردة حذاء واحدة، شديدة النظافة، سوداوية تقريباً. رأى حاناتٍ بحارةٍ قدرة وبواباتٍ بنسيوناتٍ أو مواخيرٍ لا شك فيها. كأنه يهبطُ في بئرٍ، لاحظ أن الهواء يصبحُ أشدَّ كثافة: رأي المزيد من البارات والمزيد من الوجوه، أقنعة داكنة، أعيناً مشقوقة، ذات حدقاتٍ

باردة، تقاطيع شاحبة وساكنة في مداخل ذات مصابيح كهربائية حمراء،  
أجفان زرقاء، ابتسامات كأنها لشفاه مقطوعة تنسب بسجائر، كانت تنقوس  
لتناديه من النواصي، من مداخل النوادي الليلية ذات الأبواب المجلدة  
وستائر القطيفة الأرجوانية، تحت اللافتات المضيئة التي تضيء وتنطفئ رغم  
أن الليل لم يهبط بعد، مشتاقة لوصوله، معلنة إياه.

أسماء مدن أو بلدان، أسماء موانئ، وأقاليم نائية، أسماء أفلام، تتلأأ  
مجهولة ومثيرة مثل أضواء مدينة تتألمها طائفة ليلية، متجمعة كأزهار مرجان  
أو بللورات جليد. قرأ، تكساس، هامبورج، كلمات حمراء وزرقاء، صفراء،  
بنفسجية فاتحة، خيوط نيون رفيعة، آسيا، جاكارتا، موجامبو، جوا، كان كل  
واحد من البارات وكل واحدة من النساء يقدمون أنفسهم له تحت تعزيم  
فاسدة ومقدسة، وهو يسير كأنه يتتبع بسبابته خرائط خياله وذاكرته،  
خرائط الغريزة القديمة للخوف والضياع التي تعرّفها على الدوام في تلك  
الأسماء. اقترب منه زنجي بنظارة غامقة وسترة محبوكة وحدّته عارضاً شيئاً في  
راحة كفه البيضاء. نفى بيرالبو برأسه فعدّد الآخر أشياء بالإنجليزية: ذهب،  
هيروين، مسدس. لاحظ الخوف، فابتهج به كأنما يبتهج بدوار السرعة لمن  
يقود سيارة ليلاً. تذكر بيلى سوان، الذي كلما وصل إلى مدينة مجهولة بحث  
فقط عن أكثر الشوارع المرهوبة. رأى حينئذ تلك الكلمة المضاءة، عند  
الناصية الأخيرة، الضوء الأزرق يرتعش كأنه سينطفئ، عالية في الظلمة كأنها  
فنار، كأنها الأضواء على آخر جسور سان سباستيان. للحظة لم يرها، ثم  
حدثت ومضات سريعة زرقاء، وأخيراً أخذت تضيء واحداً فواحداً الحروف  
المعلقة فوق الشارع، مُشكّلة اسماً، نداءً، بورما.

دخل كمن يُغمض عينيه ويندفع إلى الفضاء. كانت نساءً شقراوات بأفخاذٍ عريضةٍ وقبحٍ حادٍ تشرين على منصة البار. كان ثمة رجالٌ غائمون، واقفون، جالسون على أرائك، ينتظرون شيئاً، يُعدّون نقوداً خفيةً، واقفون أمام كبائن ذات لمباتٍ حمراء تنطفئ أحياناً. عندها يخرج أحدٌ من أيٍّ منها برأس منكس ويدخل رجلٌ آخر ويُسمع صوتٌ إغلاق الباب من الداخل. اقتربت امرأةٌ من بيرالبو. "فقط أربع قطع عملة ذات خمسة وعشرين إسكودو"، قالت. سأل في برتغاليةٍ مترددة لماذا يُسمّى ذلك المكان بورما. ابتسمت المرأة دون أن تفهم شيئاً وأشارت له إلى الممر الضيق الذي تتراس فيه الكبائن. دخل بيرالبو واحدةً منها. كانت شديدة الضيق مثل مرحاض قطار وفي وسطها نافذةٌ مظلمة دائرية. أدخل قطع العملة الأربع واحدة فواحدة في التجويف الرأسي. انطفأ نور الكابينة وأضاء سطوعٌ مائلٌ للحمرة تلك النافذة الشبيهة بعين الثور. "لستُ أنا"، فكر بيرالبو، "لستُ في لشبونة، هذا المكان ليس اسمه بورما". على الجانب الآخر من الزجاج كانت امرأةٌ شاحبة وشبه عارية تتلوى وترقص فوق منصةٍ دوّارة. تُحرّك يديها الممدودتين، مُتظاهرةً بأنها تُربّت، تركع وتمدد بانضباط وتعالٍ، مُنتفضةً، وناظرةً أحيماً بلا تعبيرٍ إلى صف النوافذ الدائرية.

انطفأت نافذة بيرالبو كأن الندى قد كساها. شعر بالبرد عند خروجه، وأخطأ الطريق. لم يقُده نفق الكابينات المتماثلة إلى البار، بل إلى غرفةٍ عارية بلمبةٍ واحدة وبابٍ معدني كان موارباً. على الحوائط كانت بقعٌ من الرطوبة والرسوم الفاحشة. سمع بيرالبو خطوات أناس يصعدون سلماً بدرجات حديدية، لكن لم يُتاح له الوقت ليُطيع إغواء الاختباء. ظهر على الباب رجلٌ

وامرأة متعاقبان من الخصر. كان الرجل أشعث الشعر وتملّص من نظرة بيرالبو. واصل التقدم حين لم يعودا يريانه. كان السلم يهبط إلى جراج أو مخزنٍ مضاءٍ إضاءةً بالغة الخفوت. بين هيكلي حديدي كانت الدائرة الضخمة لساعةٍ تلمع كالكبريت فوق فضاءٍ خاوٍ تماماً كحلبةٍ رقصٍ مهجورة.

مثلاً في محطات سككٍ حديدية معينة ذات قبابٍ قوطية وواجهات زجاجيةٍ عالية سودها الدخان، كان ثمة في ذلك المكان إحساسٌ بمسافاتٍ لانهائيةٍ يُضاعفها الغبش، واللمبات الحمراء المضاءة فوق الأبواب، والموسيقى الحواذية والعنيفة التي تدوي في الفراغ، في الحواف المعدنية للسلام. خلف منصةٍ بارٍ طويلةٍ ومهجورة كان نادلاً شاحبٍ ببدلةٍ سموكنجٍ يعدّ صينة مشروبات. ربما بتأثير الضوء بدا لبيرالبو أن طبقةً خفيفة من الغبار الوردي تغطي وجنتيه. رنّ جرسٌ. أضاء الضوء الأحمر فوق بابٍ معدني. ممسكاً الصينية بيدٍ واحدة عبر النادل الصالون بأكمله وطرق بأصابعه. وفي اللحظة التي فتح فيها الباب انطفأ الضوء: خيّل لبيرالبو أنه سمع خشخشة قهقهاتٍ وكؤوسٍ تختلط بالموسيقى.

من بابٍ آخر، في العمق، خرج رجلٌ يُزرّر بنطلونه ببعض الوقاحة، كمن يخرج من مbole. كان ثمة منصة بارٍ أخرى هناك، بعيدة، مضاءةً مثل أعماق محاريب الكاتدرائيات. برز نادلاً آخر ببدلة سموكنج وزبون وحيدٌ بدقة رسوم سيلويت مقصوصة في ورقة كارتون سوداء. ارتدى الرجل الذي زرر بنطلونه قبعةً مستعرضةً فوق عينيه وأشعل سيجارة. خرجت خلفه امرأة، تسوي بأصابعها شعرها الأشقر، وتضع في الحقيبة علبة بودرة أو مرآة بينما تزّم شفيتها. من منصة البار الأقرب إلى سلم الخروج رأهما بيرالبو يخرجان بجانبه

ويتحدثان بصوتٍ خفيضٍ بهسيس حروف السين والحروف المتحركة  
البرتغالية الداكنة. وحين رنّ كعبا المرأة على الدرجات المعدنية ظل يشم رائحة  
عطرٍ كثيفٍ جدا ومبتذل.

- أنت وحدك، يا سيدي - كان النادل قد عاد بالصينية فارغة ونظر  
إليه دون أن يبتسم من خلف منصة البار الرخامية. كان رأسه مفرط الطول  
وشعره ملتصق على جبهته -. ما من سبب لأن تكون وحيدا في **البورما**.  
- شكرا - قال بيرالبو -. أنتظرُ شخصا.

ابتسم له النادل بشفتيه المفرطتي الحمرة. لم يصدِّقه، بالطبع، ربما رغب  
في تشجيعه. طلب بيرالبو كأس جين وظل ينظر إلى منصة البار المماثلة في  
العمق. نفس النادل، نفس السموكنج المصنوع كأنما عام 1940، نفس شارب  
الخمر بالكتفين المتهدلتين واليدين الساكنتين بجوار الكأس. أراحه تقريبا أنه لا  
ينظر إلى مرآة لأن الآخر لم يكن يدخن.

- أنتظر امرأة؟ - تحدث النادل إسبانيةً فعالةً وتعسفية -. حين تأتي  
يمكنكما الدخول إلى رقم 25. حضرتك تضرب الجرس وأنا أحمل إليك  
الكؤوس.

- يعجبني هذا المكان. واسمه - قال بيرالبو، مبتسما مثل سكير  
مستوحِدٍ ومخلص. أقلقه التفكير في أن يكون شارب الخمر الآخر يُرَدِّد نفس  
الكلام للنادل الآخر. لكن أكبر ميزة للجين الخالص والمثلج هي أنه يصرغُ  
المرء على الفور -. **بورما**. لماذا يسمى هكذا؟

- السيد صحفي؟ - استراب النادل. كانت ابتسامته من زجاج.

- أنا أكتب كتابا. - بسعادةٍ شعر بيرالبو بأنه حين يكذبُ لا يخفي حياته، بل يخترعها. - "الشبونة الليلية".

- لا يجب أن أحكي لحضرتك كل شيء. لن يروق ذلك لرؤسائي.  
- لم أفكر في ذلك. مجرد إشارات، أنت تعرف... ثمة من يصل إلى مدينةٍ ولا يصادف ما يبحث عنه.

- السيد سيشرب كأس جين أخرى؟

- لقد خمنت تفكيري. - بعد أيامٍ عديدة من عدم الكلام مع أحد، لاحظ بيرالبو رغبةً وحة في الحديث والكذب. - بورما. هل هو مفتوح من زمن؟

- منذ عامٍ تقريبا. من قبل كان متجر بن.

- أفلس الملاك، فيما أفترض. عندها كان اسمه هكذا؟

- لم يكن له اسم، يا سيدي. حدث شيء. يبدو أن المقهى لم يكن هو العمل الحقيقي. جاءت الشرطة وطوّقت الحيّ بكامله. أخذوهم مكبلين. خرجت القضية في الصحف.

- هل كانوا مهربين؟

- كانوا يتآمرون. - استند النادل بمرفقيه أمام بيرالبو واقترب كثيرا من وجهه، محدثا إياه بصوتٍ خفيض، بريّةٍ مسرحية. - شيء له علاقة بالسياسة. **بورما** كانت جمعية سرية. كان هنا أسلحة...

رنّ جرسُ فقطع النادل الصالون سائرا بخطوات رقص قصيرة صوب  
باب أضاء فوقه النور الأحمر. انفصل شارب الخمر الآخر ببطء عن منصة  
البار في العمق وتقدم صوب المخرج متبعا خطأ مستقيما مشكوكا فيه. فوق  
وجهه تتابعت كومضات ظلال الضوء والظلمة. كان بالغ الطول وثملا بالتأكد،  
كانت يده غائصتين في جيبي سترة ضخمة ذات طابع عسكري. لم يكن  
برتغاليا، ولا إسبانيا، ولم يبدُ حتى أوروبيا. كانت له أسنان ضخمة وذقن  
مقصوفة وحمراء، كانت سحنه المضغوطة قليلا والانحناء الغريبة لجهته  
تجعلانه يشبه من بعيد عطاءة. توقف أمام بيرالبو، متأرجحا على حذائه  
الضخم ذي المشابك، مبتسما له بدهشة ناعسة، بفرحة سكير بطيئة. أمام  
نظرة تلك العينين الزرقاوين عادت ذاكرة بيرالبو إلى أفضل أيام الليدي بيرد،  
إلى أقدمها، إلى السعادة الصريحة والمراهقة تقريبا لكونه محبوبا من لوكريثيا.  
"ألا تذكرني؟"، قال له الآخر، وتعرّف هو على ضحكته، على لكنته الأنفية  
والكسولة. "ألم تعد تذكر بروس مالكولم العجوز؟"

## الفصل الرابع عشر

- هناك كنا - قال بيرالبو -، الواحد في مواجهة الآخر، ننظر إلى بعضنا بتشككٍ، بتعاطف، مثل اثنين من المعارف لم يبلغا حد الحميمة ويتأخران أقل من خمس دقائق لا يدريان ماذا يقولان لبعضهما. لكنه كان لطيفا بالنسبة لي. سنين كثيرة وأنا أكرهه وفي النهاية أسعدني أن أكون معه وتحدث عن الأوقات الخوالي. الأرجح أن الذنب كله يرجع إلى الجين. الحقيقة هي أنني حين رأيته خفق قلبي. كان يُذكّرني بسان سباستيان، بفلورو بلووم، بكل شيء. ظننتُ أن لا شيء يُوحّد بين رجلين أكثر من أن يكونا قد أحبا نفس المرأة. وفقداها. هو أيضا فقد لوكريثيا...

- هل تحدثتما عنها؟

- أعتقد أن نعم. بعد ثلاثة أو أربعة كؤوس جين. نظر إلى المكان وقال: "من المؤكد أنه كان سيعجب لوكريثيا."

لكنهما تأخرا في قول ذلك الاسم، كانا يلمسانه دائما، ويتوقفان حين يكونان على وشك نطقه، كأنهما أمام دائرة فارغة يتظاهران بعدم رؤيتها، يحجبانه عن بعضهما بشكل متبادل بالكحول والكلمات، بالأسئلة والأكاذيب عن الأوقات الأخيرة واستحضاراتٍ لماضٍ كانت أيامه المحورية غير قابلةٍ للانقسام، لأن الفضاء الفارغ الذي تلکّا كثيرا في التجرؤ على تسميته كان يجعلهما حليفين كمؤامرة قديمة. طلبا المزيد من كؤوس الجين، ما قبل الأخيرة

دائماً، قال مالكولم، الذي مازال يتذكر بعض الدعابات الإسبانية، رجعا إلى أحداث تزداد بعدا، مجادلين في تفاصيلٍ أنقذت من النسيان، أوجه دقةٍ عبثية، أول مرة تقابلا، أول حفلٍ لبيلي سوان في الليدي بيرد، مشروبات الدراي مارتنيني لدى فلورو بلووم، خيمياء خالصة، قال مالكولم، مشروبات القهوة بالقشدة في بار فيينا، تلك الحياة المطمئنة لسان سباستيان، تبدو كذبةً أن تكون قد مرت أربع سنواتٍ فقط، ماذا فعلا منذ ذلك الحين: لا شيء، تدهورٌ، نضجٌ بائس، دهاء لتجنّب الحظ العاشر، لكسب القليل من النقود ببيع اللوحات أو البقاء على قيد الحياة بعزف البيانو في نوادي مدنٍ مفرطة البرد، الوحدة، قال مالكولم، بعينين مضببتين، *loneliness*، عاصرا الكأس بين أصابعه المظلمة بزغبٍ مائل للحمرة كأنه يريد كسرها. عندها شعر بيرالبو بالخوف والبرد وبجزي كأنه نذيرٌ صدام السكر وفكر أن مالكولم ربما يحتفظ بمسدس، ذلك الذي رآته لوكريثيا، ذلك الذي غرسه ذات مرة في صدر رجلٍ كان يُشنقُ بخيطٍ من النايلون... لكن لا، من سيصدق تلك الحكاية، من يستطيع تخيّل أن يوجد القتلة خارج الروايات أو نشرات الأخبار وأن يجلسوا مع المرء لشرب الجين ويسألوه عن أصدقاء مشتركين في قبوٍ في لشبونة: كانا متعادلين في الوحدة وشبه متعادلين في السكر، سيجني نفس الجبن والحنين، والاختلاف الوحيد الملحوظ هو أن مالكولم لا يدخن، وحتى هذا جعلهما متواطئين، لأن الإثنين تذكرنا قطع الحلوى الطبية التي كان مالكولم يحملها معه دوما في تلك الفترة، ويهديها إلى كل الناس، وكذلك إلى بيرالبو، الذي رمى وداس واحدةً منها ذات ليلة على باب الليدي بيرد، وقد

سمّيه الحنق والغيرة. فجأة بقي مالكولم صامتاً أمام كأسه الفارغ ونظر إلى بيرالبو دون أن يرفع رأسه، رافعا حدقتيه فحسب.

- لكنني حسدْتُكَ دائماً - قال بطبقة صوتٍ أخرى، كأنه حتى تلك اللحظة تظاهر بأنه سكران -. كنت أموت من الحسد حين تعزف البيانو. تنتهي من العزف، نصفق لك، تأتي إلى طاولتنا مبتسماً، وكأسك في يدك، بنظرة الاحتقار تلك، دون أن تحدّق في أحد.

- لم يكن أكثر من خوف. كان كل شيء يفزعني، عزف البيانو، وحتى النظر إلى الناس. كنت أخشى أن يهزأوا بي.

- ... كنت أحسدُ الطريقة التي تنظر بها النساء إليك. - تابع مالكولم حديثه دون أن يسمعه -. لم يكن يهْمُنك، أنت لم تكن حتى تنظر إليهن. - لم أعتقد أبداً أنهن يروني - قال بيرالبو: شك بيرالبو أنه يكذب عليه، أنه يحدثه عن شخصٍ آخر.

- بما في ذلك لوكريثيا. نعم، هي أيضاً. - توقف كأنه على وشك كشف لغز، شرب رشفة من الجين، ماسحاً فمه بيده -. أنت لم تكن تنتبه، لكنني لم أنس كيف كانت تنظرُ إليك. كنت تصعدُ إلى المنصة، وتعزف بضع نغمات فلا يعود يوجد بالنسبة لها شيء سوى موسيقاك. أتذكر أنني فكرت ذات مرة: "هكذا بالضبط يرغبُ أي رجلٍ في أن تنظر إليه المرأة التي يحبها." لقد تركتني، أنت تعرف. حياةٌ كاملة معاً ثم تركتني مُلقى في برلين.

يكذب، فكر بيرالبو، راغباً في الدفاع عن نفسه ضد فخ لا مرئي، ضد هذيان الكحول، يتظاهر بأنه لم يعرف شيئاً أبداً كي يتحقّق من شيءٍ لا

أدري ما هو ويجب أن أخفيه، لقد كذب دائماً لأنه لا يدري كيف لا يكذب،  
الحنين كذبة، والصداقة، والألم، حتى بريق هاتين العينين المفرطتي الزرقة  
اللتين لا تعبران إلا عن برودتهما الخالصة، رغم حقيقة أنه وحيدٌ وضائعٌ في  
لشبونة، مثلي، وحيدٌ وضائعٌ ويتذكر لوكريثيا ويتحدث معي لسببٍ بسيط  
هو أنني أيضاً عرفتُها. يجب إذن أن يأخذ حذره ولا يستمر في الشرب، أن  
يقول له أن يرحل، أن يهرب بأسرع ما يمكن، الآن بالذات. لكن رأسه ثقيلة،  
وتدوّخه الموسيقي وتحولات الأضواء، سينتظر بضع دقائق، زمن كأسٍ  
أخرى...

- هناك سؤال أردتُ دائماً توجيهه إليك - قال مالكولم، كان بالغ الجدية  
وبدا مُفِيقاً، وربما كان متمتعاً برصانة من يوشك على السقوط على الأرض -  
سؤالٌ شخصي. - تصلّب بيرالبو، ندم على أنه شرب كل هذا القدر وظل  
هناك. - لا تُجب إذا أردت. لكن عدني لو فعلت أن تقول الحقيقة.  
- وعد - قال بيرالبو. وللدفاع عن نفسه فكر: "الآن سيقولها. الآن  
سيسأل إن كنتُ قد نمت مع زوجته."

- هل كنت عاشقاً للوكريثيا؟

- هذا لا يهم الآن. مضى زمن طويل، يا مالكولم.

- وعدتني أن تقول الحقيقة.

- لكنك قلت قبلاً أنني لم أكن أدقّق النظر في النساء، ولا حتى فيها.

- في لوكريثيا نعم. كنا نذهب إلى الفيينا للإفطار فنلتقي بك. وفي  
الليدي بيرد، هل تذكر؟ تنتهي من العزف وتجلس معنا. كنّا نتكلمان كثيراً،

تفعلان ذلك كي تتمكن من النظر في عيون بعضكما، كنما تعرفان كل الكتب وشاهدتما كل الأفلام وتعرفان أسماء كل الممثلين وكل الموسيقيين، هل تذكر؟ كنت أسمعكما ويبدو لي دوما أنكما تتكلمان بلغة لا أستطيع فهمها. لهذا تركتني. من أجل الأفلام والكتب والأغنيات. لا تُنكر، كنت واقعا في حبها. هل تعرف لماذا أخذتها من سان سباستيان؟ سأقول لك. أنت على حق، لم يعد ذلك مهما. أخذتها حتى لا تقع في غرامك. حتى لو لم تتعارفا، حتى لو لم تريا بعضكما أبدا كنتُ سأغار. سأقول لك شيئا آخر: أنا ما زلت أغار.

أدرك بيرالبو بصورة غامضة أنها لم يكونا وحدهما في البدروم الضخم للبورما. كانت نساء شقراوات ورجال مُقْتَنَعُونَ في إيماءة تدخين السجائر يصعدون ويهبطون السلالم المعدنية وظلت الأضواء الحمراء تضاء فوق الأبواب المغلقة. شاعراً بأنه يعبر صحراء قطع كل مسافة الصالون ليصل إلى المراحيض. برأسه شديدة القرب من بلاطات قيشاني الحائط الباردة فكر أن وقتا طويلا قد انقضى منذ انفصل عن مالكولم، وأن وقتا أكثر سينقضي في العودة. كان سيخرج ولم يُفلح في فتح الباب، كان يريكه الصمت وتكرار أشكال البورسلين البيضاء، التي يُضاعفها وميض أنابيب الفلورسنت. انحنى ليبلل بالماء البارد وجهه فوق حوض ضخمٍ مثل حوض تعميد. حين فتح عينيه كان ثمة شخص آخر في المرأة. فجأة عادت كل وجوه ذاكرته، كأنما استحضرها الجين أو لشبونة، كل الوجوه المنسية إلى الأبد والمفقودة بلا مناص والتي لم يظن أبدا أنه سيراها مرة أخرى. فيم يفيد الهروب من المدن إن كانت تلاحق المرء حتى نهاية العالم. كان في لشبونة، في المراحيض اللاواقعية للبورما كلوب، لكن الوجه الذي كان أمامه، وراء ظهره، لأنه حين رأى

المسدس تأخر قليلا في الاستدارة، كان أيضا ينتهي إلى الماضي وإلى الليدي بيرد: مبتسماً بسعادة لا تنطفيء كان توسان مورتون يصوب إلى عنقه. واصل الحديث كزنجي سينما أو كمثل سيء يقلد على المسرح اللكنة الفرنسية. كان شعره أكثر رمادية وكان هو أكثر بدانة، لكنه مازال يستخدم نفس القمصان والأساور المذهبة وتهذيب الأفاعي الهاديء.

- صاحبي - قال - استدير ببطء شديد، لكن لا ترفع يديك، لو سمحت، فهذا ابتذال، لا أتحمله حتى في السينما. يكفي أن تبقيهما منفصلتين عن الجسم. هكذا. إسمح لي أن أفتش جيوبك. هل تلاحظ برودة في العنق؟ ذاك مسدسي. لا شيء في السترة. ممتاز. الآن لا يبقى سوى البنطلون. أفهمك، لا تنظر إلي هكذا، الأمر مزعج لي مثلما لحضرتك. هل تتصور لو دخل أحد الآن؟ سيظن الأسوأ حين يراني ملتصقا بحضرتك، في مرحاض. لكن لا تقلق، فالصديق مالكولم يراقب الباب. بالطبع لا يستحق ثقتنا، لا، ولا حتى ثقة حضرتك، لكن يجب أن أعترف لك أنني لم أخاطر بتركه وحيدا. فيكفي أن أفعل هذا لتحدث لنا مصيبة. هكذا فدافني الحلوة معه. دافني، ألا تتذكر؟، سكرتيرتي. كانت ترغب في رؤية حضرتك من جديد. لا شيء في البنطلون. الجورب؟ ثمة من يجيء هناك سكيئا. ليس حضرتك. قالت لي دافني: "توسان، سانتياجو بيرالبو شاب ممتاز. لا أستغرب أن تترك لوكرثيا من أجله ذاك الحيوان مالكولم." الآن لنخرج. لا يخطرن ببالك أن تصرخ. ولا أن تجري، مثل آخر مرة تقابلنا. هل ستصدقني لو قلت لك أن تلك الضربة ما زالت تؤلمني؟ دافني على حق. فقد وقعت في وضع سيء. تعتقد حضرتك أنك لو طلبت النجدة سيطلب

النادل الشرطة. خطأ، يا صديقي. لن يسمع أحد شيئاً. هل لاحظت كم محلاً لأجهزة الصم في هذه المدينة؟ افتح الباب. حضرتك أولاً، لو سمحت. هكذا، اليدان منفصلتان، ناظرا إلى الأمام، ابتسم. تشعث شعرك حضرتك. وأنت شاحب. هل آذاك الجين؟ من قال لك أن تذهب إلى البارات مع مالكولم. ابتسم لدافنى. إنها تقدرك أكثر مما تتصور حضرتك. في خط مستقيم، لو سمحت. أترى ذلك الضوء في الخلفية؟

لم يكن خائفاً، مجرد غثيان واقف في معدته، تقلص الإفراط في الشرب، شعور عنيد بأن تلك الأشياء لا تحدث حقاً. وراء ظهره كان توسان مورتون يتحدث بمرح مع مالكولم ودافنى، ويده اليمنى في جيب صدريته البنية، وذراعه مثنى انثناء خفيفاً، كأنه يقلد الإيماء المحبوك لراقص تانجو. وحين مروا تحت الساعة الضخمة المعلقة من السقف اصطبغت وجوههم وأيديهم بأخضر باهت. رفع بيرالبو عينيه ورأى حول الدائرة عبارة دائرية: *Um Oriente ao oriente do Oriente*.

قال له توسان مورتون بنعومة أن يتوقف أمام أحد الأبواب المغلقة. كانت جميعها معدنية وملونة بالأسود أو بأزرق داكن جداً، مثلها مثل الحوائط والأرضية الخشبية. فتح مالكولم واتخذ جانبا حتى يعبر الآخرون، خانعا، ورأسه منكس، مثل ساعي فندق.

كانت الغرفة صغيرة وضيقة وتفوح برائحة الصابون الرخيص والعرق البارد. وتحتلها أريكة، وأباجورة، ونبته متسلقة من البلاستيك، وشطاف حمام. كان للضوء تونات وردية تبدو وكأنها تذوب فيها موسيقى خفيفة تافهة لجيتارات وأرغن. "ربما سيقتلونني هنا"، فكر بيرالبو بلا مبالاة وخيبة أمل

وهو ينظر إلى ورق الحائط، إلى كساء الأريكة باللون البصلي، وبه بقع متسعة وحروق سجاثر. بالكاد استطاعوا أربعتهم الحركة في فضاء بهذا الضيق، كان الأمر أشبه بالسفر في عربة مترو شاعراً في عموده الفقري بذلك الشيء الصلب والثلجي، وملاحظاً في قفاه التنفس الثقيل لتوسان مورتون. فحست دافنى الأريكة بشدة ثم جلست على الحافة تقريباً وركبتها مضمومتان بشدة. بأرجحة أزاحت عن وجهها شعرها البلاتيني ثم ظلت ساكنة، جانبياً في مواجهة بيرالبو، ناظرة إلى البورسلين الوردي لشطاف الحمام.

- إجلس أنت أيضاً - أمره مالكولم. الآن كان هو من يمسك بالمسدس.

- يا صديقي - قال توسان مورتون -، من الضروري أن تعذر سيادتك وقاحة مالكولم، فقد أفرط في الشراب. ليس الذنب ذنبه بالكامل. رأى حضرتك، فطلبني، طلبتُ منه أن يُسليكَ قليلاً، ليس إلى هذا الحد، بالطبع. أسمح لي بأن أقول لحضرتك أنك أيضاً تفوح منك رائحة الجين؟

- الوقت متأخر - قال مالكولم - ليس لدينا الليل بطوله.

- أبغض هذه الموسيقى. - نظر توسان مورتون إلى أركان الغرفة باحثاً عن السماعات الخفية حيث بدأت ترن بليونّة موسيقى فوجة باروكية -.

دافنى، أطفئها.

أصبح كل شيء أشد غرابة حين ساد الصمت. لم تكن موسيقى الخارج تصل عبر الحوائط المبطنّة. من الجيب الأعلى لصدريته أخرج توسان

مورتون راديو ترانزستور وفرد هوائيه البالغ الطول حتى لمس السقف. دوت بين النبضات أصواتٌ برتغالية، وإيطالية، وإسبانية، وتوسان مورتون يُنصت ويلعن محركاً مؤشراً الترانزستور بأصابع هرقل. توقف وابتسم حين أفلح في التقاط شيء بدا افتتاحية أوبرا. "الآن سيضربني"، فكر بيرالبو، مدمنا بلا شفاء على السينما، "سيجعل الموسيقى مرتفعةً جداً حتى لا يسمع أحدٌ صرخاتي".

- أعشق روسيني - قال توسان مورتون - تريقٌ كامل ضد الكثير من فيردي والكثير من فاجنر.

وضع الترانزستور بجوار صناير الشطّاف وجلس على الحافة، مكرراً اللحن بفمه المغلق. غير مرتاح، وربما مذنباً بعض الشيء أو مكتئباً بفعل الكحول، كان مالكولم يستند على ساقٍ ثم على الأخرى ويصوّب على بيرالبو محاولاً ألا ينظر في عينيه.

- صديقي العزيز. صديقي العزيز جداً. - اتسعت سحنة توسان مورتون بابتسامة أبوية - كل هذا سخيف. صدقي، بالنسبة لنا أيضاً. بحيث أن من الأفضل أن نضع ما علينا أن نصنعه بأسرع ما يمكن. أنا أطرح على حضرتك ثلاثة أسئلة، وأنت تجيب على أيٍّ منها وننسى الماضي جميعاً. رقم واحد: أين الجميلة لوكريثيا. رقم اثنين، أين اللوحة. رقم ثلاثة، إذا لم تعد ثمة لوحة، أين النقود. من فضلك، لا تنظر إليّ هكذا، لا تقل ما كنت على وشك أن تقوله. حضرتك سيدٌ مهذب، عرفت ذلك من أول مرة رأيته، حضرتك تفترض أنك يجب أن تكذب علينا، معتقداً أنك ستحمي لوكريثيا، بالطبع، ليس مناسباً لسيدٍ مهذب أن يُفشي أسرار سيدة. اسمح لي أن

أشير لك بأننا نعرف هذه اللعبة. لعبناها منذ زمن، في سان سباستيان،  
أتذكر؟

- منذ سنواتٍ لا أعرف شيئاً عن لوكريثيا. - بدأ بيرالبو يشعر بسأم  
من يجيب على استبيان رسمي.

- غريبٌ إذن أن تخرج حضرتك في ليلةٍ معينة من منزلها في سان  
سباستيان، في حالة مزاجية شديدة السوء، بالطبع. - لمس توسان مورتون  
كتفه اليسرى كأنّ ألماً قديماً يتجدد. - وأن تبدأ في اليوم التالي رحلةً طويلةً  
معا...

- هل هذا صحيح؟ - كأنه يستيقظ بغتة، رفع مالكولم المسدس ولأول  
مرة منذ دخلوا الغرفة نظر إلى بيرالبو في عينيه. أما عينا دافنى، البالغاتا  
الاتساع والثبات، فتحركتا من جانب لآخر بنبضاتٍ خفيفة، مثل بؤبؤي  
طائر.

- مالكولم - قال توسان مورتون -، أفضلُ لو أنك بعد كل هذه  
السنين لا تختار هذه اللحظة لتفهم أنك كنت آخر من يعلم: إهدأ. اسمع

روسيني *La gazza ladra...*

قال مالكولم شتيمّة بالإنجليزية وقرب المسدس أكثر من وجه بيرالبو.  
تبادلا النظر في صمتٍ كأنهما وحيدين في الغرفة ولا يسمعان كلمات الآخر.  
لكن في عيني مالكولم كان ثمة كراهية أقل من الدهشة أو الخوف والرغبة في  
المعرفة.

- لهذا هجرتني - قال، لكنه لم يكن يتحدث لبيرابو، كرر بصوت عالٍ شيئاً لم يجرؤ أبداً على التفكير فيه - للحصول على اللوحة وبيعها وإنفاق كل هذه النقود معك...

- مليون ونصف مليون دولار، ربما أكثر قليلاً، كما تعرف حضرتك دون شك. - كذلك اقترب توسان مورتون من بيرابو، خافضاً صوته - لكن ثمة مشكلة صغيرة، يا صديقي. هذه النقود هي نقودنا. ونريدها، هل تفهم؟ الآن.

- لا أدري عن أي نقود ولا عن أي لوحة تحدثونني. - تراجع بيرابو إلى الخلف في الأريكة حتى لا يمس وجهه نفس مورتون. كان هادئاً، ناعساً قليلاً لا يزال بفعل الجين، غريباً بالكامل تقريباً عن نفسه، عن ذلك المكان، نافذ الصبر - ما أعرفه فعلاً أن لوكريثيا لم تكن تملك فلساً. لا شيء. لقد أعطيتها نقودي لتستطيع الرحيل عن سان سباستيان.

- لتستطيع القدوم إلى لشبونة، تريد حضرتك أن تقول. هل أنا مخطيء؟ حبيبان قديمان يعاودان الالتقاء ويبدأن رحلة طويلة... - لم أسألها إلى أين تذهب.

- لم يكن لذلك داع. - كف توسان مورتون عن الابتسام. بدا على الفور أنه لم يبتسم أبداً - أعرف أنكما رحلتما معا. وحتى أن سيادتكم كنت تقود السيارة. هل تريد أن أقول لك التاريخ بالضبط؟ لا بد أن دافني سجلته في تلك الأجندة.

- لوكرثيا كانت تهرب من حضراتكم. - منذ برهة كان بيرالبو يرغب في التدخين بالحاح. أخرج ببطء التبغ والولاعة مثبتتا بصره في النظرة المراقبة لمالكولم وأشعل سيجارة. - أنا أيضا أعرف بعض الأشياء. أعرف أنها كانت تخشى أن تقتلونها مثلما قتلتم ذلك الرجل، البرتغالي.

أنصت إليه توسان مورتون محاكيا دون حياءٍ إيماءة من ينتظر على أحر من الجمر نهاية نكتةٍ ليبدأ في الضحك، راسماً بالفعل ابتسامةً، ورافعا كتفيه قليلاً. وأخيرا أطلق قهقهةً وخط على فخذه براحتي يديه العريضتين.

- أحقا تريد أن نصدق ذلك؟ - ونظر بجدية إلى بيرالبو ومالكولم كأنما يجب أن يوزع بينهما كل شفقتة. - هل تقول لي أن لوكرثيا لم تشرح لك شيئا عن الخريطة التي سرقها منا؟ أنها لم تكن تعرف شيئا عن **بورما**...؟ - إنه يكذب - قال مالكولم. - أتركه لي. سأجعله يقول لنا الحقيقة.

- إهدأ، يا مالكولم. - أبعد توسان محركا بصوتٍ يده التي تلمع فيها الأساور المذهبة. - أنا أخشى أن يكون الصديق بيرالبو أقل ذكاءً منك... قل لي يا سيدي. - الآن تحدث كواحدٍ من أولئك الشرطيين المحمّلين بالصبر والصلاح، بالرحمة تقريبا. - لوكرثيا كانت تخاف منا. حسنا. أتأسف لذلك، لكن يمكن أن أفهمه. كانت خائفة وهربت لأنها رأتنا نقتل رجلا. لم يفقد الجنس البشري الكثير تلك الليلة، لكن حضرتك ستقول لي، عن حق، أن هذه ليست لحظة دراسة تلك التفاصيل. أتفق معك أيضا. فقط أود أن أسألك شيئا واحدا: لماذا لم تذهب الجميلة لوكرثيا، وقد أفرعتها الجريمة التي ما كان يجب أن تشهدها، لماذا لم تذهب على الفور إلى الشرطة؟ كان سهلاً،

كانت قد هربت منا، وكانت تعرف الموقع الدقيق الذي كانت فيه الجثة. لكنها لم تفعل... ألا تتخيل لماذا؟

لم يقل بيرالبو شيئاً. كان عطشانا وعيناه تحرقانه، ففي الهواء أكثر مما يجب من الدخان. نظرت إليه دافنى باهتمامٍ معيّن، كمن ينظر لمن يسافر في المقعد المجاور. كان يجب أن يظل ثابتاً، دون أن يرمش حتى، أن يتظاهر بأنه عرف كل شيء وأخفى كل شيء. تذكر رسالة من لوكريشيا، الأخيرة، مظلوماً وجده فارغاً بعد عدة أشهرٍ من رحيله للأبد من سان سباستيان. **بورما**، كرر في صمت، **بورما**، كأنه يقول أحجيةً يجهل معناها، كلمة لا تُفكُ شفرتها ومقدسة.

- بورما - قال توسان مورتون - من المؤلم ألا يعود شيءٌ محترماً. يؤجّر شخصٌ هذا المكان ويغتصبُ ذاك الاسم ويحوّله بكامله إلى ماخور. حين رأينا اللافتة من الشارع قلت لدافنى: "ماذا سيظن المرحوم دوم برناردو أوليافان راميرز إذا رفع رأسه؟" لكن ألاحظُ أن حضرتك لا تعرف حتى من كان دوم برناردو. الشباب يجهل كل شيء ويريد أن يقفز فوق كل شيء. دوم برناردو ذاته قال لي ذات مرة، في زيوريخ، يخيل إليّ أنني أراه كما أرى حضرتك. "مورتون"، قال لي، "فيما يتعلق بالرجال من جيلي ومن طبقتي، حلّت نهايةُ العالم. لم يبق لنا من عزاءٍ سوى أن نجمع لوحاتٍ وكتب جميلة وأن نجوب منتجعات المياه المعدنية العالمية". كان يجب لحضرتك أن تسمع صوته، العظيمة التي يقول بها، مثلاً، "أوسفالد شبنجلر"، أو "آسيا"، أو "حضارة". امتلك في أنجولا غاباتٍ بأكملها ومزارعٍ بن أكبر من البرتغال، وأي قصرٍ، يا صديقي، في جزيرة، في مركز بحيرة، لم أراه أبداً، لسوء حظي،

لكن يُحكى أنه كان كله من المرمر مثل تاج محلّ. دوم برناردو أولياف راميرز لم يكن مالك أراضٍ، بل كان رأس مملكة رائعة مقامة في الأدغال، أفترض أن أولئك الأشخاص لابد أنهم حوّلوا كل شيء الآن إلى كومبونة لذوي الأسمال الذين تلتهمهم الملاريا. دوم برناردو أحب الشرق، أحب الفن العظيم، أراد أن تُقارن مجموعاته بأفضل مجموعات أوروبا. "مورتون"، كان يقول لي، "حين أرى لوحة تعجبني لا تهمني النقود التي يجب دفعها للحصول عليها". أحبّ قبل كل شيء فنّ التصوير الفرنسي والخرائط القديمة، كان قادراً على عبور نصف العالم ليفحص لوحةً، وكنت أنا أبحث عن اللوحات من أجله، ليس أنا فحسب، كانت لديّ دسنة من الوكلاء يجوبون أوروبا بحثاً عن لوحات وخرائط. قل لي أي أستاذ كبير، أي واحد: كان لدى دوم برناردو أولياف راميرز لوحة أو رسم له. كذلك أحب الأفيون، لماذا نخفي ذلك، هذا لا يُنقص من عظمته. خلال الحرب كان قد عمل لصالح الإنجليز في جنوب شرق آسيا ومن هناك جلب حبّ الأفيون ومجموعة من الغلايين لن يعادلها أحد في العالم أبداً. أتذكر أنه كان يتلو لي دائماً قصيدة بالبرتغالية. وكان أحد أبياتها كالتالي: "Um Oriente ao oriente do Oriente..." هل تملّ؟ أنا آسف، فأنا عاطفي. أحتقر حضارة لا يكون فيها مكانٌ لرجال مثل دوم برناردو أولياف راميرز. أنا أعرف: حضرتك لا توافق على الإمبريالية. في هذا أيضاً تُشبه مالكولم. حضرتك تنظر إلى لون بشرتي وتفكر: "توسان مورتون كان يجب أن يكره الامبراطوريات الكولونيالية." خطأً، يا صديقي. أتدري أين كان يمكن لي أن أكون لو لم يكن بسبب الإمبريالية، كما يقول مالكولم؟ ليس هنا، بالطبع، الأمر الذي كان سيربح حضرتك. بل في أعلى

نخلة جوز هند، في إفريقيا، أتقافز كالقرد. كنت سادق على الطام طام، فيما أفترض، وأصنع أقنعة من لحاء الأشجار... ما كنت لأعرف شيئاً عن روسيني ولا عن سيزان. ولا تحدثني عن المتوحش الطيب *du Bon Sauvage*، أتوسل إليك!

- فليحدثنا عن سيزان - قال مالكولم - ليقل لنا ماذا فعلا هو ولوكريثيا باللوحة.

- يا عزيزي مالكولم - ابتسم توسان مورتون بطمأنينة بابوية -، ذات مرة سيُضيّعُ فقدانُ صبرك. لدي فكرة: لنُجِدَّ الصديق بيرالبو في جمعيتنا المرحّة. لنعرض عليه اتفاقاً. لنسلم باحتمال ألا تكون علاقاته التجارية مع الجميلة لوكريثيا مرضيةً بقدر علاقاته العاطفية... هذا هو عرضي، يا صديقي، الأفضل والأخير: حضرتك تساعدنا على استعادة ما يخصنا ونحن نُدرك في توزيع الفوائد. هل تذكرين، يا دافني؟ نفس العرض قدمناه للبرتغالي...

- لا يوجد اتفاق - قال مالكولم - لا يوجد طالما كنْتُ أنا هنا. يظن أنه يمكنه خداعنا، يا توسان، كان يبتسم بينما تحدّثه. قل لنا أين اللوحة، أين النقود، يا بيرالبو. قل أو أقتلك. الآن فوراً.

ضغط بقوة على مقبض المسدس حتى ابيضّت فقرأت أصابعه وارتجفت يده. ابتعدت دافني ببطء عن بيرالبو، نهضت واقفةً ومُرحزةً ظهرها على الحائط. "مالكولم"، قال توسان مورتون بصوتٍ خفيض، "مالكولم"، لكنه لم يسمعه ولم ينظر إليه، نظر فقط إلى عيني بيرالبو الهادئتين كأنه يُطالبه بالخوف أو الخضوع، مؤكداً في صمت، بتصلّب يعادل

تمسّكه بالمسدس، بقاء حنقٍ قديم، السُّعارِ العبي، المشترك تقريباً لفقدان الحق في الذكريات وفي كبرياء الإخفاق.

- انهض - قال، وحين وقف بيرالبو على قدميه وضع المسدس في مركز صدره. عن قربٍ كان ضحكاً وفاحشاً كقطعة حديد -. تكلم الآن فوراً أو أقتلك.

حكي لي بيرالبو فيما بعد أنه تكلم دون أن يدري ماذا يقول: أن الرعب في تلك اللحظة جعله عصياً على الإيذاء. قال:

- أطلق النار، يا مالكولم. ستسدي لي معروفاً.

- أين سمعتُ هذا من قبل؟ - قال توسان مورتون، لكن بدا لبيرالبو أن صوته يرنُّ في غرفةٍ أخرى، لأنه لم يكن يرى في مواجهته سوى حدقتي مالكولم.

- في **كازابلانكا** - قالت دافنى، بلامبالاةٍ ودقة -. يقوله بوجارت لإنجريد برجمان.

عند سماع ذلك طراً تحوّل على وجه مالكولم. نظر إلى دافنى، نسي أن المسدس في يده، قلّص السعارُ الحقيقي والقسوة الحقيقية فمه وضيقاً عينيه حين استدار ليثبتهما في بيرالبو وينقص عليه.

- أفلام - قال، لكن كان من الصعب جداً فهم كلماته -. هذا كل ما كان يهتمك، أليس كذلك؟ كنما تحتقران من لا يعرفها، تتحدثان عنها وعن كتبكما وأغنياتكما لكنني كنت أعرف أنكما تتحدثان عن نفسيكما، لم يكن يهتمكما شيءٌ أو أحد، كان الواقع بالغ الفقر بالنسبة لكما، أليس كذلك...؟

رأى بيرالبو أن جسد مالكولم الضخم والطويل يقترب منه كأنه  
سيتهوى فوقه، رأى عينيه بالغتي القرب بحيث بدا لا واقعيتين، وحين تقهقر  
اصطدم بالأريكة، وواصل مالكولم اقترابه كأنه يارٍ جليدي، عاجله برفسة في  
بطنه، وتحرك جانبا ليتجنب سقوطه وعندها وجد أمامه اليد التي لا تزال  
تتشبث بالمسدس، خبطها أو عضها ولقعه الظلام وحين عاود فتح عينيه كان  
المسدس في يده اليمنى. نهض واقفا، ضامًا قبضته عليه، لكن مالكولم ظل  
متموِّساً على بطنه، جاثيا، ووجهه ملتصق بالأريكة، ونظرت إليه دافنى  
وتوسان مورتون وتراجعا، "اهدا"، غمغم مورتون، "اهدا، يا صديقي"،  
لكنه لم يبلغ حد الابتسام، مُثَبِّتاً بصره في المسدس المصوّب إليه الآن، وخطا  
بيرالبو بضع خطوات إلى الوراء وتحسّس الباب بحثا عن المزلاج، لكن لم  
يجده، أدار مالكولم وجهه نحوه وبدأ ينهض ببطء شديد، وفي النهاية انفتح  
الباب وخرج بيرالبو بظهره، متذكرا أن الأبطال يخرجون هكذا في الأفلام،  
أغلق الباب بصفقة مدوية وشرع يجري نحو السلام الحديدية ولم ينتبه إلا  
حين عبر الغبش الوردي للبار الذي تشرب فيه النساء الشقراوات أنه مازال  
يحمل المسدس في يده وأن العديد من أزواج العيون المتتابعة كانت تنظر  
إليه بدهشة ورعب.

## الفصل الخامس عشر

خرج إلى الشارع وحين لطم وجهه بعنفِ هواء الليل الرطب عرف لماذا ليس خائفاً: إن كان قد فقد لوكريثيا فلا شيء يهيمه. وضع المسدس الثقيل في جيب معطفه وخلال بضع ثوانٍ لم يركض، يُهْدِئته خمولٌ غريب شبيهٌ بذلك الذي يشلنا أحيانا في الأحلام. فوق رأسه كانت تنطفيء وتضاء على فتراتٍ وجيزة لافتة **بورما كلوب** مضيئةً جدارا بالغ الارتفاع بشرفاتٍ خالية. شرع يشير بسرعة، ويداه في جيوبه، كأنه سيصل متأخرا إلى مكانٍ ما، لم يستطع الجري، لأن زحاما كزحام ميناءٍ آسيوي كان يحتل الشارع، وجوه زرقاء وخضراء تحت لافتات النيون، وجوه أبي الهول على نساءٍ وحيدات، جماعات من الزوجات تتبع إيقاعا هم وحدهم من يسمعون، فصائل من الرجال ذوي الوجنات النحاسية والملاح الشرقية يبدو أنهم يتجمعون هناك بفعل حنينٍ عكسٍ للمدن التي تلتع أسماؤها فوق الشارع، **شنغهاي، هونج كونج، جوا، جاكارتا.**

لاحظ السكينة القاتلة لمن يعرف أنه يغرق واستدار لينظر إلى لافتة **بورما**، التي لا تزال بالغة القرب كأنه لم يتحرك. أدرك كل لحظة كأنها دقيقة بالغة الطول ونظر إلى الوجوه التي لا تحصى باحثا بينها عن وجه مالكولم، عن وجه توسان مورتون، عن وجه دافني، وحتى عن وجه لوكريثيا، مُدركا ضرورة أن يجري وأنه لا رغبة له في ذلك، تماما مثلما حين يعرف المرء أنه يجب أن ينهض ويمنح نفسه هدنةً وحين يعود ليفتح عينيه يظن أنه نام وقتا

طويلا ولم تمض دقيقة واحدة ومرة أخرى يقرر أنه سينهض. كان المسدس ثقيلًا، كما قال لي، وكان ثمة الكثير من الوجوه والأجساد لفتح طريق بينها بحيث كان الأمر بمثابة التقدم في الكثافة المضاعفة لغاية. عندها استدار ورأى مالكولم في نفس اللحظة التي اكتشفته فيها عيناه الزرقاوان والبعيدتان، لكن مالكولم كان يقترب منه ببطءٍ مماثل، كأنه يسبح ضد تيارٍ قوي تُعكِّره الأعشاب، أطول من الآخرين، مثبتا نظره في بيرالبو مثلما في الضفة التي يتوق لبلوغها، وجعل هذا الإثنين يتقدمان ببطءٍ أكبر، لأنهما لا يكفان عن النظر إلى بعضهما ويصطدمان بأجسادٍ لا يريانها وترفضهما أحيانا مُخفية كل واحدٍ منهما عن نظر الآخر. لكنهما كانا يعاودان اكتشاف بعضهما ولم يكن الشارع لينتهي أبدا، بل يصبح أشد ظلمةً، بوجوه وأضواء نواذٍ أقل، وسرعان ما رأى بيرالبو مالكولم هادئا ووحيدا وسط طريقٍ ليس به أحد، متوقفا أمام ظلِّه ذاته، وساقاه مفتوحتان، عندها ركض حقاً وأخذت الأزقة تنفتح أمامه مثل طريقٍ أمام مصابيح سيارة. سمع خلف ظهره وقع خطوات مالكولم وحتى لهاث تنفسه، بعيدا جدا وقريبا جدا، مثل تهديدٍ أو احتجاج في صمت ميادين متلائية وخاوية، ميادين ضخمة بأعمدة، شوارع ذات نوافذ متتابعة ترن فيها خطواته وخطوات مالكولم بإيقاع واحد، وبقدر ما كان التعب يقطع أنفاسه أخذ ينفرط منه الوعي بالفضاء وبالزمن، كان في لشبونة وفي سان سباستيان، كان يهرب من مالكولم مثلما هرب في ليلةٍ أخرى مماثلة من توسان مورتون، لم تتوقف أبدا تلك المطاردة عبر مدينة مزدوجة سحرت مخططاتها ليصبح متاهةً وملاحقةً.

هنا أيضا سرعان ما صارت الشوارع متساويةً وهندسية، مهجورةً جزئياً بالليل، منظوراتٍ خاوية لميادين مضاءةٍ أكثر يأتي منها طنينٌ ضعيف ودقيق لمدينةٍ مسكونةٍ. ركض صوب تلك الأضواء مثلما صوب سرابٍ يُواصلُ الابتعاد. سمع خلف ظهره الضجيجَ البطيء لتزامٍ محيٍ خطواتٍ مالكولم وراه يمر بجواره عالياً وأصفر وفارغاً مثل سفينةٍ جانحةٍ ويتوقف على مسافةٍ قريبة، ربما أمكنه أن يلحق به، نزل شخصٌ وتأخر الترام قليلاً في التحرك من جديد، كان بيرالبو على وشك الوصول إلى ارتفاعه حين انطلق يسير ببطءٍ شديد وتأرجح وهو يبتعد. كمن ينظر في محطةٍ إلى القطار الذي فقده فعلاً ظل بيرالبو ساكناً، وفمه وعينه شديداً الاتساع، وهو ينظف العرق من وجهه واللعب الذي يلطّخ شفثيه، ناسياً مالكولم، وضرورة الهروب، ورغم أن إدارة الوجه يتطلبُ جهداً مستحيلاً استدار ببطء ورأى أن مالكولم أيضاً كان متوقفاً على بعد أمتارٍ منه، على حافة الرصيف الآخر، كأنه على حافة مبنى سيتهاوى منه، وهو يلهث ويسعل، مزيجاً الشعر الأصهب عن وجهه. لمس في جيبه مقبض المسدس وجعلته هלוسةً سريعة يرى نفسه يصوّب نحو مالكولم ويسمع تقريباً الرصاصة والسقوط المكتوم للجسد فوق القضبان، سيكون سهلاً بصورةٍ لانهائية مثل إغماض العينين وعدم التحرك مطلقاً وأن يكون ميتاً، لكن مالكولم كان يسير نحوه كأنه يغوص مع كل خطوةٍ في شارعٍ من الرمال. ركض من جديد، لكنه لم يستطع، رأى على يساره مدخل شارعٍ أشد ظلمة، وسلماً، وبرجاً نحيلاً وأعلى من سقوف البيوت، وحيداً بصورةٍ عبثية ومرتفعاً بينها، بنوافذ قوطية ودعاماتٍ حديدية، جرى نحو ضوءٍ وبابٍ مواربٍ كان فيه رجل، محصّل

يحمل على خصره حقيبة مليئة بالعملات أعطاه تذكرة. "خمس عشرة  
إسكودو"، قال له، دفعه إلى الداخل، وأغلق بتأن نوعاً من الحاجز الشبكي  
الصديء، وأدار ذراعاً نحاسية فبدأ ذلك الموضع الذي لم ينظر إليه بيرالبو  
بعد في الارتجاف والطققة مثل أخشاب سفينة بخارية، في الارتفاع وكان  
ثمة وجهٌ على الجانب الآخر من الحاجز الشبكي، ويدان ممسكتان به تجذبانهُ،  
مالكولم، الذي أخذ يغطس في القاع، واختفى تماماً حين لم يكن بيرالبو قد  
فهم بعدُ تماماً أنه كان في مصعد ولم يعد ضرورياً أن يواصل الجري.

أخذ المحصل، وامرأةً تلبس منديلاً على رأسها، ورجل ذو سواف  
بيضاء وسترة طويلة قاسية ينظرون إليه باستنكارٍ مُدقق. كانت المرأة بوجهٍ  
عريض وتمضغُ شيئاً، متفحصةً ببطءٍ منهجيٍّ حذاء بيرالبو القدر من الطين،  
وأطراف قميصه، ووجهه المتقلص المكسو بالعرق، ويده اليمنى المخبوءة دائماً في  
جيب المعطف. وعلى الناحية الأخرى من النوافذ القوطية كانت المدينة تتسع  
وتبتعد بقدر ما يصعدُ المصعد: ميادين بيضاء مثل بحيراتٍ من الضوء،  
لافتات مضيئة واهنة فوق السقوف، وفي مقابل الظلمة المحسوسة لمصب  
النهر، مبانٍ تتسلق تلةً تتوجها قلعةٌ مضاءةٌ بعنفٍ بكشافاتٍ ضوئية.

سأل أين كانوا حين توقف المصعد: في المدينة العليا، قال له المحصل.  
خرج إلى ممرٍ ضيق تهبُّ فيه ريحُ البحر الباردة مثلما على سطح سفينة. كانت  
سلام وجدران بيوتٍ مهجورة تهبط رأسياً نحو الشوارع العميقة التي ربما  
مازال مالكولم يسير فيها. بجوار برج كنيسةٍ مهدّمة كان ثمة تآكسي بدا له بالغ  
الغربة وساكناً مثل تلك الحشرات التي يفاجئها المرء حين يضيء النور. طلب  
من سائق التاكسي أن يحمله إلى المحطة. نظر من النافذة الخلفية باحثاً عن

أضواء سيارةٍ أخرى، مراقبا وجوه النواصي المظلمة. بعدها أسقطه الإجهادُ على المسند البلاستيكي الصلب وتمنى أن تدوم رحلة التاكسي طويلا. بعينين مسبلتين غاص في المدينة مثلما في مشهدٍ تحت الماء، متعرفا على أماكن، ومثايل، ولافتات محالٍ أو مخازن عتيقة، مدخل فندقه، من حيث بدا له أنه خرج منذ زمنٍ بعيد.

كل لشبونة، قال لي، وحتى المحطات، هي متاهةٌ من السلام لا تنتهي أبدا من الوصول إلى الأماكن الأكثر ارتفاعا، فدائما ما يبقى فوق من يصعد قبةً أو برجاً أو خيطاً من المنازل الصفراء لا يمكن بلوغها. عن طريق سلام ميكانيكية وممراتٍ مبالغٍ بأئسة صعد إلى الأرصفة التي يغادر منها القطار الذي يأخذه كل صباح ليزور بيلي سوان.

مرتين، خشي أن يكونوا مازالوا يتبعونه. نظر إلى الوراء وكانت كل نظرةٍ هي نظرة عدوٍ سري. في بوفيه المحطة النهائية أنتظر ألا يتبقى أحدٌ على الرصيف وشرب كأساً من الروم. كذلك خشي نظرات المفتشين والندل، مُحَمَّناً فيها وفي الكلمات التي يسمعها خلف ظهرة ولا يستطيع فهمها علاماتِ مؤامرةٍ ربما لن يعرف كيف يفلت منها. كانوا ينظرون إليه، وربما يتعرفون عليه، ويشكّون في وضعه كهاربٍ وأجنبي. في مرآةٍ مرحاضٍ أربعه وجهه: كان أشعث الشعر وشديد الشحوب وربطة العنق المتهدلة تتدلى من عنقه كحبل مشنقة، لكن أكثر ما يبعث الخوف كانت غرابة هاتين العينين اللتين لم تعودا تنظران مثلما قبل ساعاتٍ قلائل، وبدا أنهما في آنٍ واحد تشفقان عليه وتنبآن بإدانته. "إنني أنا"، قال بصوتٍ عالٍ، ناظرا إلى الشفتين الصامتتين اللتين تتحركان في المرأة، "أنا سانتياجو بيرالبو".

إلا أن الأشياء، الأماكن المظلمة، الأبراج المخروطية للقصر المحاطة  
بأسقف بأعمدة من الدخان، الطريق في الغابة، أحتفظت جميعها بهوية غامضة  
وهادئة تؤكد سرية الليل. على مدخل المصححة كان رجلٌ يشحن أكياساً  
وحقائب في سيارة ضخمة، سيارة تاكسي لامعة لا تشبه التاكسيات العتيقة  
للشبونة. "أوسكار"، قال بيرالبو: استدار الرجل نحوه، لأنه لم يكن قد  
تعرف عليه في الظلمة، أسند الكونترباس بعناية في المقعد الخلفي، وحين  
رأى من هو ابتسم له، مجففاً جبهته بمنديلٍ شاهق البياض في الظلمة  
كابتسامته.

- سرحل - قال - هذه الليلة. قرر بيلى أنه الآن أفضل. كان  
سيطلبك في فندقك. أنت تعرفه، يريد أن نبدأ البروفات غداً بالذات.  
- أين هو؟

- في الداخل. يودّع الراهبة. أخشى أن يحاول إهداءها آخر زجاجة  
ويسكي لديه.

- أحقا أنه لم يعد يشرب؟

- عصير برتقال. يقول أنه صار ميتاً. "الموتى ممتنعون عن الشراب، يا  
أوسكار." هذا ما يقوله. يدخل كثيراً ويشرب عصير برتقال.

أدار له أوسكار ظهره بتعجّلٍ ظاهر وواصل ترتيب الكونترباس  
والحقائب داخل التاكسي. وحين خرج منه، كان بيرالبو يتكئ على الباب  
المفتوح، وينظر إليه.

- أوسكار، أود أن أسألك سؤالاً.

- بالطبع. لقد اتخذت سمّت شرطي.

- من دفع حساب المصحة؟ هذا الصباح رأيتُ فاتورة. إنها غالية جداً.

- أسأله هو. - دون النظر إلى بيرالبو، ابتعد أوسكار عن قربه المفرط مجففاً بمنديله عرق يديه. - أنظر إليه. ها هو يأتي.

- أوسكار. - وقف بيرالبو أمامه وأجبره على التوقف. - أمرك أن تكذب عليّ، صحيح؟ منعك من أن تقول لي أن لوكرشيا قد جاءت...

- هل يحدث شيء هنا؟ - طويلاً وهشاً، ملتفاً بمعطفه، وحافة قبعته على مستوى نظارته، بسيجارة بين شفثيه وجراب الترومبيت في يده، سار بيلى سوان نحوهما وظهره للضوء. - أوسكار، قل لسائق التاكسي أننا يمكننا الذهاب.

- حالاً، يا بيلى. - أطاع أوسكار بارتياح من أفلاح في الإفلات من عقاب. كان يعامل بيلى سوان باحترامٍ مقدس لا يمكن تمييزه أحياناً عن الخوف.

- بيلى - قال بيرالبو، ولاحظ أن صوته يرتجف مثلما حين يُفرط في الشراب أو بعد ليلة كاملة دون نوم -، قل لي أين هي.

- مظهرك سيء، يا فتى. - كان بيلى سوان بالغ القرب منه، لكن بيرالبو لم ير عينيه، فقط بريق زجاج نظارته. - لك وجه ميت أكثر مني. ألا تُسعدك رؤيتي؟ سوان العجوز عاد إلى مملكة الأحياء.

- أنا أسألك عن لوكريثيا، يا بيلي. قل لي أين يمكنني العثور عليها. إنها في خطر.

أراد بيلي سوان أن يُبعده ليدخل إلى التاكسي، لكن بيرالبو لم يتحرك. كان داكناً بحيث لا يرى تعبير وجهه، وجعله ذلك أشد غموضاً، حفرة شاحبة من الظلمة تحت حافة القبعة. لكن بيلي سوان كان يراه: فأضواء المدخل تضيء وجهه. ترك على الأرض جراب الترومبيت، ورمى السيجارة بعد نفَسٍ قصير أظهر الخطأ الحاد لشفتيه، نزع القفازات ببطء شديد، محرّكاً أصابعه، كأن البرد يئسها.

- كان يجب أن ترى وجهك الآن، يا فتى. أنت من في خطر.

- ليس أُمامي الليل بطوله، يا بيلي. يجب أن أعثر عليها قبلهم. يريدون قتلها. كانوا على وشك أن يقتلوني.

سمع باباً ينغلق ثم أصواتا وخطوات على حصى الطريق. كان أوسكار وسائق التاكسي يأتیان نحوهما.

- تعال معنا - قال بيلي سوان - سنحملك إلى فندقك.

- تعرف أنني لن أذهب، يا بيلي. - كان السائق قد شغل المحرك، لكن بيرالبو لم يبتعد عن الباب الأمامي. كان يشعر بالبرد وبيعض الحمى، بالعجلة وبالذوار. - قل لي أين لوكريثيا.

- حين تشاء، يا بيلي. - كان أوسكار قد أخرج رأسه الضخم والأجعد من النافذة ونظر برية إلى بيرالبو.

- تلك المرأة ليست جيدةً بالنسبة لك، يا فتى - قال بيلى سوان،  
مزيجاً إياه إلى جانب إيماءة حاسمة. فتح الباب وترك الجراب على المقعد  
الأممي، أمر السائق بجفاف ألا يتعجل هكذا. قال ذلك بالإنجليزية، لكن  
المحرك توقف - ربما لم يكن ذنبها. ربما لشيء فيك ولا علاقة له بها ويدفعك  
إلى الدمار. شيء شبيه بالويسكي أو بالهيريون. أنا أعرف عن ماذا أحدثك  
وأنت تعرف أنني أعرف. يكفي الآن أن أنظر إلى عينيك. يبدو أن مثل  
عيني حين أظل أسبوعاً حبيساً مع صندوق من الزجاجات. اصعد إلى  
التاكسي. احبس نفسك في فندقك. سنعزف يوم 12 ونرحل من هنا. وفور  
أن تصعد إلى الطائرة سيبدو كأنك لم تكن أبداً في لشبونة.

- أنت لا تفهم، يا بيلى، ليس من أجلي. بل من أجلها. سيقتلونها لو  
عثروا عليها.

دون أن ينزع قبعته استراح بيلى سوان داخل التاكسي، واضعاً جراب  
الترومبيت فوق ركبتيه. لم يغلق الباب بعد. وكأنما ليتيح لنفسه وقتاً أشعل  
سيجارةً ونفث الدخان صوب بيرالبو.

- تظن أنك أنت من كان يبحث عنها، أنك ذاك اليوم رأيته صدفةً في  
ذلك القطار. لكنها بحثت عنك في مراتٍ أخرى ولم أُرِدْ أنا أن تعرف أنت  
شيئاً على الإطلاق. منعته من أن تراك. أطاعني لأنها تخشاني، مثل  
أوسكار. هل تذكر ذلك المسرح في ستوكهولم حيث كنا نعزف قبل أن  
أذهب إلى أمريكا؟ كانت هناك، بين الجمهور، سافرت من لشبونة لترانا.  
لتراك، أعني. وبعدها بقليل، في هامبورج، خرجت هي من غرفة ملابسي  
قبل أن تصل أنت بخمس دقائق. كانت هي من أحضرتني إلى هنا ودفعت

للأطباء مقدما. الآن تملك الكثير من النقود. تعيش وحيدة. وأفترض أنها الآن في هذه اللحظة ستكون في انتظارك. شرحت لي طريقة الوصول إلى منزلها. من تلك المحطة هناك في الأسفل يخرج قطارٌ نحو الشاطئ كل عشرين دقيقة. اهبط في المحطة ما قبل الأخيرة، حين ترى فناراً. يجب أن تتركه وراءك وتسير نحو نصف ميل، والبحر دائماً على يسارك. قالت لي أن المنزل له برجٌ وحديقة يحيط بها جدار. بجوار البوابة ثمة اسمٌ بالبرتغالية. لا تسألني عنه لأنني لا أتذكر كلمةً واحدة من تلك اللغة. منزل الذئب أو شيء من هذا القبيل.

*- Quinta dos Lobos -* قال أوسكار في الظلمة - أنا أتذكر.

أغلق بيلى سوان باب التاكسي وظل يحدّق ساكناً في بيرالبو بينما يرفع زجاج النافذة. وللحظة، بينما السائق يناور ليحاذي الدرب بين الأشجار، سقط ضوءٌ عمود إنارة مباشرةً على وجهه. كان وجهها نحيفا ومتصلبا ومجهولاً كأن الرجل الذي لم ير بيرالبو ملامحه بينما يستمع إليه كان محتالاً.

## الفصل السادس عشر

أتذكره وهو يحدثني لساعاتٍ طويلة في غرفته بالفندق، في الليلة الأخيرة، وقد أسكره التبغ والكلمات، مُتوقفاً ليشعل سيجارة، ليشرب رشقاتٍ صغيرة من كأسٍ لم يكد يتبقى فيه القليلُ من الثلج، وقد تملكته بلا فكاك، والوقت متأخرٌ جداً، في الثالثة أو الرابعة فجراً، الأماكنُ والأسماء التي بدأ ببرودةٍ بالغة يستحضرها، مُصمِّماً على مواصلة الحديث حتى تنتهي الليلة، ليس فحسب هذه الليلة المستقبلية في مدريد التي كنا نتقاسمها، بل كذلك تلك الأخرى، التي عادت في كلماته لتتملكه وتتملكني كعدوٍ مُقنَّع. لم يكن يحكي لي حكاية، كان قد وقع بشكلٍ غادرٍ في أحبولتها مثلما توقعه الموسيقى في أحبولتها بعض المرات، ولا تترك له نفساً ولا فرصةً ليصمت أو يقرر. لكن شيئاً من ذلك لم يكن يتكشَّف في صوته البطيء والهاديء ولا في عينيه، اللتين كَفَّتَا عن النظر إليّ، وظلَّتَا مثبتتين بينما يتحدث في لهب السيجارة أو في ثلج الكأس، أو في ستائر الشرفة المسدلة التي أواربها بين الحين والحين لأتأكد دون ارتياحٍ أن لا أحد يتجسس علينا من رصيف الشارع المقابل. كان يتحدث كأنه يشير إلى حياة شخصٍ آخر، بالنعمة المحايدة والدقيقة لمن يُدلي ببيان: ربما أراد ألا يتوقف حتى النهاية لأنه يعرف بالفعل أننا لن نلتقي أبداً.

- وعندئذ - قال لي -، حين عرفتُ أين كانت لوكريشيا، حين رحل تاكسي بيلى سوان وبقى وحيداً في طريق الغابة، عاد الأمر مثلما كان دوماً، مثلما كنتُ في سان سباستيان ولدي موعدٌ معها وكان يبدو لي أن الساعات

والدقائق الباقية حتى أراها ستكون أطولَ من حياتي وأن البار أو الفندق الذي تنتظرنى فيه على الجانب الآخر من العالم. ونفس الخوف أيضا من أن تكون قد انصرفت ولن أستطيع مقابلتها. في البداية، في سان سباستيان، حين أذهب بحثا عنها، كنت أنظر إلى كل عربات التاكسي التي تعبر عبرتي خشية أن تكون لوكريثيا في واحدةٍ منها...

فهم أن النسيان كذبة وأن الحقيقة الوحيدة، التي أراحها هو ذاته من وعيه منذ أن هجر سان سباستيان، قد اتخذت ملاذا في أحلامه، حيث لا يمكن للإرادة والضعينة أن تصل إليها، في أحلامٍ تمثل له الوجه القديم والرقعة التي لا تُمسُّ للوكريثيا كما عرفها قبل خمس أو ست سنواتٍ، حين لم يكن أيهما قد فقدَ بعد الشجاعة ولا الحق في الرغبة وفي البراءة. في ستوكهولم، في نيويورك، في باريس، في فنادق غريبةٍ حيث كان يستيقظ، في ختام أسابيعٍ بكاملها لم يتذكر خلالها لوكريثيا، منتشيا أو مسرورا بوجود نساء أخرياتٍ عابرات، يكون قد تذكر وفقد أحلاما يضيء فيها ألمٌ فاترٌ السعادة المكتملة. لأفضل الأيام التي عاشها معها والألوان الزاهية التي كانت للعالم حينها فقط. مثلما في تلك الأحلام، كان الآن يبحث عنها ويستشعرها دون أن يراها في مشهد أشجارٍ وتلالٍ ليليةٍ تحمله بسرعةٍ صوب البحر. نظر إلى كل الأضواء خائفا ألا يرى ضوء الفئار في الوقت المناسب للهبوط من القطار. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ولم يكن ثمة أي مسافر في عربة بيرالبو. أخبره المفتش أن عشرَ دقائقٍ تبقى للوصول إلى المحطة قبل الأخيرة. من نافذةٍ يضاوية رأى القضبان المعدنية للعربة المجاورة تتحرك هناك في العمق، حيث لم يكن يسافر أحد كذلك. نظر إلى ساعته ولم يعرف حساب كم دقيقةٍ مرت

منذ أن تكلم مع المفتش. كان يهتُمُّ بارتداء المعطف حين رأى وجه مالكولم في النافذة البيضاء في العمق، ناظراً إليه، ملتصقا بالزجاج.

نهض وكانت عضلاته خَدِرَةً وركبته تؤلمانه. كان القطار مسرعاً بحيث لم يكدر يستطيع الثبات على قدميه، وكذلك مالكولم، الذي كي يحافظ على توازنه ظلَّ ساكناً مُباعدة بين ساقيه بينما باب العربة يتأرجح ويخبط أمامه تدفعه ريحٌ مبالغته وباردة وصلت حتى بيرالبو حاملةً الضجيجَ الرتيب لعجلات القطار فوق قضبي السكة الحديدية واحتكاك خشب ومفصلاتٍ معدنية بدا أنها تنفصلُ في المنعطفات. هرب عبر الممر، متشبثاً بكلتا يديه بحافة المساند، أراد فتح الباب الآخر للعربة وكان ذلك مستحيلاً وكان مالكولم قد اقترب منه إلى حد أن استطاع تمييز بريق عينيه الأزرق. بصورة عبثية كان يستميتُ في جذب الباب للداخل ولذا لم يستطع فتحه، دفعته فرملةٌ نحوه فوجد نفسه مُعلقاً بفعل الهلع والدوار فوق لوحٍ يتحرك كأنه ينفتح تحت قدميه، في الفراغ، في الفضاء بين عربتين، فوق ظلمةٍ تومض فيها وتختفي القضبان وتهب ريحٌ تخترقه وتقطع أنفاسه، مُطَوِّحَةً إياه على حاجزٍ لا يكاد يصلُ إلى خصره تمكّن من الاستناد عليه حين شعر في نذيرٍ بالغثيان أنه سيُطاح به فوق القضبان.

استدار، كان مالكولم على بعد خطوةٍ، على الجانب الآخر من الباب، في برقٍ إيماءةٍ واحدة يجب أن يقفز من الحاجز ويبلغ العربة المجاورة، دون أن ينظر إلى أسفل، دون أن يرى كيف تتحرك الألواح المعدنية فوق درب الأحجار المنحني والذي يسبب الدوار الذي تبتلعُه الظلمةُ كَبُرَ. قفز قفزةً بعينين مغمضتين فانفتح البابُ وانغلق خلفه بضربةٍ واحدةٍ غامضةٍ. ركض عبر

العربة الفارغة صوب بابٍ آخر ونافذةٍ بيضاويةٍ أخرى: كان يمكن لتتابع صفوف المقاعد دون ركابٍ ومهاوي الظلمة التي تحصدها الريح ألا تنتهي أبداً، كأن القطار لا يسافر إلا ليبحث هو عن لوكرثيا يطارده مالكولم، الذي لم يعد يراه، فربما لم يستطع الخروج بدوره من العربة الأخرى. سمع ضرباتٍ، ورأى وجه مالكولم يظهر في بيضاوية الزجاج، وكان يوجه ركلاتٍ للباب، الذي تمكن من فتحه وأتى صوبه بشعرٍ أشعث بفعل الريح، خرج من جديد إلى الظلمة مستنداً بكلتا يديه على القضبان الثلجية للحاجز، لكن أبعد من ذلك لم يكن ثمة أي باب، بل مجرد جدارٍ رمادي من المعدن، كان قد بلغ خُطاف القاطرة وظل مالكولم يقترب منه ببطء، مائلاً إلى الأمام، كأنه يمشي ضد الريح.

تذكر المسدس: حين بحث عنه انتبه أنه تركه في المعطف. لو خَفَّف القطار سرعته فربما تجاسر على القفز. لكن القطار كان يجري كأنه مُلقى في منحدر وكان مالكولم يفتح الباب الوحيد الذي يفصله عنه. أسند ظهره على المعدن المتموج وراه يقترب كأنه لن يصل أبداً، كأن سرعة القطار تفصل بينهما. لم يكن المسدس في يدي مالكولم المفتوحتين. حرك شفتيه، ربما صرخ شيئاً، لكن الريح وضجيج القاطرة محيياً كلماته، الشجاعة العبثية للحنق. بساقين شديدي التبعاد ويدين مفتوحتين هجم على بيرالبو أو انقذف نحوه. لم يكونا يتعاركان، كانا كمن يتعانقان أو يستندان بخرقٍ على بعضهما حتى لا يسقطا. انزلقا فوق الأرضية وسقطا على ركبهما ونهضا مشتبكين ليسقطا من جديد أو يُدفعاً في وقتٍ واحد نحو الفراغ. استمع بيرالبو إلى تنفّس لم يدر إن كان تنفّسه أم تنفّس مالكولم، إلى كلماتٍ قدرة بالإنجليزية ربما نطقها هو ذاته.

لاحظ أيدياً وأظافر وضرباتٍ وثقلَ جسدٍ وإحساساً بعيداً بأن رأسه قد  
دُفعت ضد حوافٍ معدنية. نهض واقفاً، رأى أضواءً، انزلق شيءٌ دافئ  
ورطب على جبهته فأعماه: نظف عينيه بيده ورأى مالكولم ينهض بجانبه  
ببطءٍ شديد كأنه يطفر من بحيرة وحل، متشبثاً بكلتا يديه بقماش بنطلونه،  
بالجيب المتمزق من سترته. أشد طولاً وانمحاءً من أي وقت ترخ مالكولم  
فوقه ومدّ صوب عنقه يديه الضخمتين الساكنتين، وللحظة، حين تنحى  
بيرالبو جانباً، بدا أنه ينحني على الحاجز كأنما ليتفحص غور المنحدر أو الليل.  
رأى بيرالبو اليدين تخفقان كجناحي طائر، رأى نظرةً فزعٍ وضراعةً حين قفز  
القطار كأنه سينقلب وسقط هو منهاراً فوق الألواح المعدنية: سمع صرخةً بالغة  
الحدة والطول كأنها أزيزُ الفرامل وأغمض عينيه كأن الظلمة الاختيارية  
ستنقذه من الاستمرار في سماعها.

ظل ملتصقاً بالأرضية، لأنه كان يرتجف بشدةٍ لدرجة ألا يمكنه البقاء  
على قدميه. كان ثمة بيوتٌ منعزلة بين الأشجار، وحواجز ممرات مرتفعة تنتظر  
خلفها سيارات. الآن أخذ القطار يتقدم ببعض البطء. نهض بيرالبو على  
ركبتيه، وعاود تنظيف رطوبة وجهه القدرة، ومازال يرتجف، ويتحسس باحثاً  
عن مقبض لينهض. وحين كان القطار قد توقف تقريباً رأى خلف الأشجار  
ضوءاً عالياً يختفي ثم يعود بإيقاعٍ بطيءٍ ودقيقٍ مثل تذبذبات بندول. وكمن  
يعود من حلمٍ أو من فقدان ذاكرةٍ مطلقٍ اندهش لتذكره أين وصل ولماذا هو  
هناك.

قفز على القضبان حتى لا يراه أحدٌ وابتعد عن أضواء المحطة سائراً بين  
عربات مهجورة، ومتعثراً في قضبانٍ مخفيةٍ تحت الأعشاب. عبر سوراً من

الألواح المتعفّنة، انزلق وسقطَ عند صعود منحدر ولم يعد يرى المحطة ولا ضوء الفئار. ميتاً من البرد واصل التقدم فوق أرضٍ منقوعةٍ بالماء ومُلبّدة، بين أشجارٍ متناثرة، متجنباً أضواء منازل ريفيةٍ تنبح فيها الكلاب وأسوارَ حدائقٍ تسدّ طريقه. وعند الالتفاف اللانهائي حول واحدٍ منها خشي أن يكون قد تاه: كان في شارعٍ نظيف ومبتدل، ببواباتٍ مغلقة وأعمدة إنارة على النواصي وصناديق نفايات بلاستيكية. فكر: "ملايسي ممزقة، ووجهي ملطّخ بالدم، إذا رأي أحد سيطلب الشرطة." لكن لم يكن لديه ذكاءٌ ولا إرادةٌ إلاّ لمتابعة الخط المستقيم للشارع، باحثاً عن صوتٍ أو رائحة البحر، عن ضوء الفئار بين أشجار الكافور.

لا شك أن الشارعَ شديداً الاستقامة وشديداً الطول لأنه يمتد بجوار طريق الساحل السريع: فأحيانا ما يسمع بيرالبو عن قربٍ شديد محركات سياراتٍ ويجسّ بهواء البحر بخفةٍ على وجهه. انتهت الأسوار المتساوية للمنازل الريفية في النهاية بأرضٍ فضاءٍ طينية ترتفع فيها على خلفية ظلمة السماء الصافية دعاماتُ مبنى يجري تشييده. إلى جانبٍ كان الطريق السريع، ثم الفئار وانحدارات البحر. لتجنب أضواء السيارات ابتعدَ عن الطوار وسار تقريبا على حافة المنحدر. وبعيدا في العمق كانت يرتفع ويتلأأ الزبد على مصدّات الأمواج: لم يشأ أن يواصل النظر إليه لأن تأثير ذلك العمق كان يخيفه ويجمّده ويبدو أنه يُناديه. كان الفئار يضيؤه بوضوحٍ مشابهٍ لوضوح قمر الصيف المكتمل الأصفر، ضوءٌ دوّار ومتعدد الأسطح يضاعف ظلّه ويشوّهه حين ينطفيء. سار برأسٍ منكس ويديه في جيوبه بإصرارٍ المتشرّدين الذين يجوبون الشوارع، دون ملاذٍ ضد ريح البحر الباردة سوى ياقات ستراتهم

المرفوعة. كان قد صار بعيداً جداً عن الفئار حين رأى فوق قمم أشجار الصنوبر المنزل الذي وصفه له بيلى سوان. سورّ طويل جداً لا يمكن اكتشافه من الطريق السريع، ثم بوابة مواربة واسم: *Quinta dos Lobos*.

دخل خائفاً أن يسمع نباح كلاب. انفتحت البوابة بهدوء عند ضغطته يده ولم يسمع بينما يعبر حديقه غامضة سوى حفيف خطواته على الحصى. رأى برجاً، ومدخلاً صغيراً بأعمدة، ونافذة مضاءة. توقف أمام الباب بنفس أحساس الخواء والحدّ النهائي الذي انتابه على لوح القطار وعلى حافة المنحدر. ضغط الجرس ولم يحدث شيء. كرر ذلك: وهذه المرة سمعه، بعيداً جداً، في عمق المنزل. ثم الصمت، الريح بين الأشجار، يقين أنه سمع بضع خطوات وأن شخصاً يظل ساكناً بحرص وراء الباب. "لوكريثيا"، قال، كأنه يكلمها في أذنها ليوقظها، "لوكريثيا".

لكنني أنا لا أستطيع تخيل كيف كان الوجه الذي رآه بيرالبو حينئذ ولا الطريقة التي جرى بها بينهما التعرّف والرقّة، فلم أرهما ولم أتخيلهما أبداً معاً: فما كان يوحدهما، وربما ما يظل يوحدهما الآن، هو رابطة تتضمن في ذاتها خاصية السر. لم يكن ثمة شهود أبداً، ولا حتى حين لم يعد يلاحقهما الاضطرار إلى الاختفاء: وإذا كان معهما أحد لا أعرفه أو فاجأهما ذات مرة في أي من تلك البارات والفنادق السرية التي كانا يتواعدان فيها في سان سباستيان، فإني واثق أنه لم يستطع أن يستشف شيئاً مما يملكانه حقاً: حبكة من الكلمات والإيماءات، من الحياء والنهم، فلم يصدّقاً أبداً أنهما يستحقان بعضهما ولم يرغباً أبداً ولم يملكا شيئاً لم يكن بداخلهما بشكل فريد، مملكة خفية متبادلة لم يسكنها أبداً تقريباً، لكن لم يتمكنوا من إنكارها كذلك،

لأن حدودها كانت تطوّقها بصورة محتومة كما يطوّق الجلد أو الرائحة شكل جسد. كانا ينتميان لبعضهما عند النظر إلى بعضهما، مثلما يعرف المرء من هو حين ينظر إلى نفسه في مرآة.

بقيا للحظة وكل واحدٍ منهما على جانبٍ من العتبة، دون عناق، دون أن يقولوا شيئاً، كأن كل واحدٍ منهما وجد نفسه في مواجهة شخصٍ لم يكن هو من توقع رؤيته. أجمل أو أطول، شبه مجهولة، بشعر بالغ القصر، ببلوزة حريرية، فتحت لوكريثيا الباب على مصراعيه لتنظر إليه في النور وقالت له أن يدخل. ربما تحدثا في البداية على مسافةٍ لم ترطّ بها الذاكرة المشتركة، بل ذلك التهذب الجبان والنهم الذي طالما حوّلها إلى أغراب بينما كانت تكفي كلمة واحدة أو تربية واحدة للتعرف على بعضهما.

- ماذا جرى لك؟ - قالت لوكريثيا - ماذا فعلوا في وجهك؟

- يجب أن ترحلي من هنا. - حين تحسس بيرالبو جبهته لمس يدها، التي كانت تزيح شعره لتنظر إلى الجرح - هؤلاء الناس يبحثون عنك. وسيجدونك لو لم تهربي.

- لديك شفة مقطوعة. - كانت لوكريثيا تلمس وجهه فلا يحس هو بأطراف أصابعها. شمّ شعرها، رأي عن قربٍ شديد اللون المضبوط لعينيها، كان كل شيء يبلغه كأنما من مسافة الإغماء: لو تحرك، لو خطا خطوة سيسقط - أنت ترتجف. تعال، استند عليّ.

- أعطني كأساً من أي شيء. وسيجارة. تقتلني الرغبة في التدخين. تركت التبغ في المعطف. هو والمسدس. من سيخطر له ذلك.

- أي مسدس ؟ لكن لا تتكلم. استند عليّ

- مسدس مالكولم. كان سيقتلني به فانتزعت منه. بأكثر الطرق حماقةً.

كان يلاحظ الأشياء بطريقة متقطعة، بتراوحات سريعة بين الوضوح والسبات. لو أغمض عينيه لكان في القطار من جديد ويخشى أن يسقطه الدوار. بينما يسير محتضنا لوكريثيا رأى نفسه في مرآة وارتعب من وجهه الملطّخ بالدم ومن الطوق الأحمر حول حذقيته. ساعدته هي على التمدد على أريكة، في غرفة عارية يشتعل فيها اللهب. فتح عينيه فلم تعد لوكريثيا موجودة. رآها تعود بزجاجة وكأسين. متربعة بجواره، نظفت له وجهه بفوطة مبللة ثم وضعت سيجارة بين شفتيه.

- هل فعل بك مالكولم ذلك ؟

- سقطت على شيء. شيء معدني. أو ربما دفعني هو. كان كل شيء مظلمًا. الكل يعرف. كنت أسقط وأنفض وهو دائماً يريد ضربي. مالكولم المسكين. كان مسعوراً ضدي. كان مجنوناً بك.

- أين هو الآن ؟

- في العالم الآخر، كما أفترض. بين القضبان، لو بقي منه شيء. سمعته يصرخ. ما زلت أسمعه.

- هل قتلته ؟

- حسناً، لا أدري. أظن أنني دفعته دفعة، لكنني لست متأكداً.

الأرجح أنهم عثروا عليه. عليك أن ترحلي من هنا.

- هل تبعك أحد؟

- توسان مورتون سيعثر عليك إن لم ترحلي. فور أن يقرأ الصحيفة  
غدا سيعرف أين يبحث عنك. سيتأخر أسبوعا أو شهرا، لكنه سيعثر  
عليك. اذهبي من هنا، يا لوكريثيا.

- كيف أذهب الآن وقد جئت أنت.

- أي شخص يمكنه الدخول. حتى بوابتك لم تكن مغلقة.

- تركتها مفتوحة من أجلك.

ازدرد بيرالبو كأس البوربون في رشفة واحدة واستند على كتفي لوكريثيا  
لينهض. انتبه إلى أنها اعتقدت أنه سيحتضنها وإذا ابتسمت بتلك الطريقة  
حين انحنت عليه. لسع البوربون جروح شفثيه وأنعشه ببطء دافئ ومحَبَّب.  
فكر أن سنوات كثيرة قد انقضت منذ آخر مرة نظرت فيها إليه لوكريثيا كما  
تنظر الآن: مُحَدَّقة تماما، منتبهة لكل واحدة من تفاصيل حضوره، شبه  
مذهولة من كثافة نظرتها الخاصة، من الخوف من أن تكون أي إيماء علامة  
على أنه سيرحل. لكنه لم يكن يتذكر: ارتجف حين انتبه أنه يرى للمرة الأولى  
في عيني لوكريثيا تعبيرا كان مالكولم الشاهد الوحيد عليه. ما لم تعرف ذاكرته  
كيف تحتفظ به أبدا تُعيده إليه غير ميت.

غسل وجهه بماء بارد في حمام بالغ الضخامة يمنحه بريق البورسلين  
والصنابير جو غرفة عمليات عتيقة. كانت شفثه السفلى متورمة وفي جبهته  
جرح. مشط شعره بعناية وعدل ربطة العنق كأن عليه الحضور إلى موعد مع  
لوكريثيا. وبينما يعود إلى الصالون حيث تنتظره تفحص المنزل للمرة الأولى: في

كل موضعٍ بدت الأشياء مُرتبةً من أجل تمجيدِ الفراغ، الشكل الخالص  
للفضاء وللوحدة. مُهتدياً بموسيقى خافتةٍ جداً استطاع العودة إلى جوار  
لوكريثيا دون أن يتوه في الممرات.

- من يعزف ذلك؟ - سألتها: قدمت له الموسيقى عزاءً فاتراً كهواء ليلةٍ  
من مايو، كذكرى حلمٍ.

- أنت - قالت لوكريثيا - بيلي سوان وأنت. **لشبونة**. ألا تتعرف على  
نفسك؟ دائماً ما تساءلتُ كيف استطعتَ عمل هذه الأغنية دون زيارة  
لشبونة.

- لهذا السبب بالضبط. الآن لن يمكنني كتابتها.

كان جالساً عند زاوية من الأريكة، أمام اللهب، وسط الغرفة الفارغة.  
مجرد رفٍ عليه أسطوانات وكتب، ومنضدة منخفضة فوقها أباجورة وآلة  
كتابة، وجهاز تشغيل موسيقى، في عمقها، بأضواء حمراء وخضراء خلف  
زجاج داكن. لا تهم الأشياء التي يمكن أن يملكوها أو يحتفظوا بها، فكر،  
فالمستوحدون الحقيقيون يبنون الفراغ في الأماكن التي يسكنونها وفي الشوارع  
التي يعبرونها. على الطرف الآخر من الأريكة كانت لوكريثيا تدخن وهي  
تستمع إلى الموسيقى بعيون مسبلة، فاتحةً إياها أحياناً عن آخرها لتنظر إلى  
بيرالبو برقةٍ ساكنة.

- لدي حكايةٌ أحكيها لك - قالت له.

- لا أريد معرفتها. سمعتُ حكاياتٍ كثيرة هذه الليلة.

- من الضروري أن تعرفها. هذه المرة سأقول لك الحقيقة كلها

- أنا أفترضها.

- حدّثوك عن اللوحة، أليس كذلك؟ عن الخريطة التي انتزعتها منهم.

- أنت لا تفهمين، يا لوكريثيا. لم آت كي تحكي لي شيئاً. لا أريد أن أعرف لماذا يبحثون عنك ولا لماذا بعثت إلي تلك الخريطة للشبونة. جئت لأحذرك أنك يجب أن تهربي. سأصرف حين تنتهي هذه الكأس.

- لا أريدك أن تذهب.

- غدا لدي بروفة مع بيلي سوان. سنغزف يوم 12.

اقتربت لوكريثيا منه أكثر. كان عهدُ الشجاعة والوحدة قد وسّع عينيها. وأعاد الشعرُ البالغُ القصر إلى ملامحها الحدة والصدق اللذين ربما كانا لها في المراهقة فحسب. كانت ستقول شيئاً، لكنها زمّت شفيتها بإيماءتها تلك، إيماءة اللاجدوى أو التخلي ونهضت واقفة. رآها بيرالبو تبتعد نحو رف الكتب. عادت بكتاب في يديها وفتحته أمامه. كان مجلداً بأوراق ضخمة لامعة بمستنسخات لوحات. أشارت له لوكريثيا إلى واحدةٍ منها، مُسندةً الكتاب المفتوح على لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة. قال لي بيرالبو أن النظر إلى تلك اللوحة كان أشبه بسماع موسيقى باللغة القرب من الصمت، أشبه بأن تتملكك ببطء شديد السوداوية والسعادة. فهم على الفور أنه يجب أن يعزف البيانو هكذا، بالضبط مثلما رسم ذلك الرجل: بامتنانٍ وحياء، بحكمةٍ وبراءة، كأنه يعرف كل شيء ويجهل كل شيء، بالرهافة والخوف اللذين يتجاسر بهما المرء لأول مرة على تربيتة، على كلمةٍ ضرورية. الألوان، الذائبة في الماء أو في البعد، ترسم فوق الفضاء الأبيض جبلاً بنفسجياً، سهلاً من بقع خفيفة

خضراء تبدو أشجاراً أو ظلالَ أشجار في المساحةِ الظليلة لمساءٍ صيفي، طريقاً  
يضيع صوب المنحدرات، منزلاً خفيضاً ووحيداً بنافذةٍ تخطيطية، جادة  
أشجارٍ تكاد تحجبه، كأن أحداً اختار العيشَ هناك ليختمي، لينظر فقط إلى  
قمة الجبلِ البنفسجي. قرأ في الأسفل، **بول سيزان، جبل سان فيكتور،**  
**1906، مجموعة ب.أ. راميرز.**

ـ كانت لديّ تلك اللوحة ـ قالت لوكريشيا، وأغلقت الكتاب بقوة ـ.  
بالنظر إلى الصورة الفوتوغرافية لا يمكنك معرفة كيف كانت. كانت لديّ  
وبعثها. لن أروّض نفسي أبداً على عدم رؤيتها ثانية.

## الفصل السابع عشر

أذكت النار، أحضرت سجائر، ملأت الكأسين بالبطء الهاديء لمن  
يُنجز طقساً حمياً. في الخارج كانت الريح تضربُ الزجاج وتُسمع عن مقربةٍ  
انفجاراتُ البحر على المنحدرات. أخذ بيرالبو الكتاب وتركه مفتوحاً فوق  
ركبته ليواصل النظر إلى اللوحة بينما تتكلم لوكريثيا. فجأةً غيرَ تأمل ذلك  
المنظر الطبيعي كلَّ شيء: الليل، والهرب، والخوف من الموت، من عدم  
العثور على لوكريثيا. مثلما يفعل الحبُ أحياناً والموسيقى أغلبَ الأحيان، جعله  
ذلك الرسمُ يفهمُ الإمكانيةَ الأخلاقيةَ لعدالةٍ غريبةٍ لا تلين، لنظامٍ سرّي على  
الدوام تقريباً لا ينتهي إلى هذا العالم، يصوغ الصدفةَ ويجعل العالم قابلاً للعيش.  
شيءٌ مقدّس ومُلغز وفي نفس الوقت يوميٌّ ومُذابٌ في الهواء، مثل موسيقى  
بيلي سوان حين يعزف الترومبيت بنغمةٍ من الانخفاض بحيث يضع صوتها  
في الصمت، مثل الضوء المصفر والوردي والرمادي لأصائل لشبونة:  
الإحساس لا بفكٍ شفرة معنى الموسيقى أو بقاء الألوان أو اللغز الساكن  
للضوء، بل بكون المرء مفهوماً ومقبولاً من تلك الأشياء. لكنه قبل أعوامٍ كان  
قد عرف ونسي تلك الأشياء. تذكرها الآن كما عرفها في ذلك الحين، بحكمةٍ  
أكبر وحماسةٍ أقل، مرتبطةً بلوكريثيا بلا فكاك، بصوتها الهاديء دوماً وبطريقةٍ  
ابتسامها دون أن تفرج شفيتها، بعطر الأيام الخوالي ذاك الذي صار من  
جديد رائحةِ الهواء في وطنٍ مفقود.

لذلك لم تكن تهمة كثيرا الحكاية التي ترويها: كان يهيمه صوتها، لا كلماتها، حضورها لا دافع العثور عليها هناك، شكر لكل واحدة من الأشياء التي حدثت له منذ أن وصل إلى لشبونة باعتبارها عطايا. أبعد عينيه عن الكتاب لينظر إلى لوكريثيا وفكر أنه ربما لم يعد يحبها، وحتى لا يرغبها. لكن هذا البرود دون رغبة، الذي طهره من الماضي ومن ربا الألم، كان هو أيضا الفضاء الذي عاود فيه رؤيتها مثلما رآها قبل أيام أو قبل ساعات من حبه لها، في الليدي بيرد أو في الفيينا، في أي شارع منسي من سان سباستيان: مواتية ومستقبلية، مضيئة مثل تلك المدن التي نكون على وشك الوصول إليها لأول مرة.

سمع من جديد الكلمات، الأسماء التي طارده خلال زمن طويل والتي ظلت ظلمتها سليمة لم تُمس بعد تلك الليلة، لأنها تظل أقوى من الحقيقة أو الكذبة التي تنطوي عليه: لشبونة، بورما، أولمان، مورتون، سيزان، أسماء تنفرط في صوت لوكريثيا لتتجمع من جديد في حبكة مجهولة تُعدل وتُصحح جزئيا ذكريات وتخمينات بيرالبو. من جديد سمع كلمة برلين مُتعرِّفاً في صوتها على الطبقات المتتالية من البعد والدناءة والألم التي أكسبها إياها الزمن منذ العهد البعيد الذي كان يكتب فيه رسائل للوكريثيا ولا ينتظر أن يراها مطلقاً: حين راعى الابتذال والتهذب وكان يعطي دروساً في مدرسة للراهبات وبنام مبكراً بينما ترى هي كيف يشنقون رجلاً بخيطٍ من النايلون وتهرب بعدها فوق جليد الشوارع القذر بحثاً عن صندوق بريد أو عن أحدٍ يمكن أن تأمنه على رسالتها الأخيرة إلى بيرالبو، تلك الخريطة للشبونة، قبل أن يُوقع بها مالكولم وتوسان مورتون ودافنى...

- كذبتُ عليك - قالت لوكريشيا. كان لك الحق في معرفة الحقيقة لكنني لم أخبرك بها. أو لم أقلها بالكامل. لأنني لو قتلها لك لورطتُك معي وكنتُ أريد أن أكون وحيدة وأن أصل وحيدة إلى لشبونة. كنتُ لسنواتٍ مُقيّدةً بالكلوم وبك أيضاً، بذكرياتك ورسائلك، وتاهت مني الحياة وكنت واثقةً أنني لن أستعيدها إلا إذا بقيتُ وحيدةً، لهذا كذبتُ عليك وقلت لك أن تنصرف حين كنا في ذلك الفندق، ولهذا واثقتي الشجاعة لأنترع من مالكلوم الخريطة والمسدس وأهرب منه، كان يستوي لديّ أن يكون قد ساعد توسان على قتل ذلك السكير، فذلك لم يجعلني أكن له احتقاراً أكثر أو قرفاً أكثر، لم يكن خنق رجلٍ أشد قذارةً من التمدّد فوقى دون أن ينظر أبداً إلى عينيّ ثم يهرب إلى الحمام برأس مُنكّس... كان يريد أن تُنجب ابناً. منذ أن ظهر البرتغالي لم يفعل شيئاً سوى الحديث معي عن ذلك، كان سيكسب الكثير من النقود، ويمكننا أن نعتزل وننجب ابناً ولا نعمل لبقية حياتنا، كان التفكير في ذلك يصيبني بالغثيان، منزلٌ بحديقةٍ وطفل من مالكلوم وتوسان ودافنى يأتیان ليأكلا معنا كل أحد. أتذكر ليلة أن أحضروا البرتغالي، مُسندينه بينهما لئلا يقع، بالغ الضخامة كشجرة، أشقر، أحمر، بعينين عكرتين وغازستين في وجهه مثل عيني خنزير، مُشبع بالبيرة، بذلك الوشم في ذراعيه، أفلتوه على الأريكة وبقي يتنفس بقوةٍ ويقول أشياءً بلسانٍ معقود. أحضر توسان من سيارته صندوق قنينات بيرة ووضعها بجانبه، وكان البرتغالي ينزع سدادتها ويشربها واحدةً فواحدة، مثل رجل آلي، ثم يُكرمشها بيده كأنها من ورق ويلقيها على الأرض. سمعته يردد كلمة، بورما، التي كانت أحياناً تبدو مكاناً وأخرى جيشاً أو مؤامرة. لم ينفصل عنه توسان ودافنى، كانا يُعدّان له دائماً

قنينة بيرة، ودافني تستمع له وتدون ملاحظات، والدوسيه فوق ركبتيها، "أين بورما"، كان توسان يسأل البرتغالي، "في أي جزء من لشبونة"، وفي واحدة من تلك المرات انتصب البرتغالي كأنه أصبح فجأة مُفياً وقال: "لن أتكلم، لن أحنث بوعدي للدوم برناردو أوليان راميرز وهو يموت." فتح عينيه بشدة ونظر إلينا جميعاً، حاول النهوض لكنه عاود السقوط على الأريكة وظل نائماً كثور.

"أتم تنظرون إلى الجندي الأخير من جيش مهزوم"، قال توسان مورتون بجلالٍ من ينطق صلاةً جنازية. تذكرت لوكرثيا أنه عند حديثه لهم عن دوم برناردو أوليان راميرز وامبراطوريته البائدة تمخّط بصوتٍ عالٍ في منديله الضخم ذي المربعات وطفرت منه الدموع: دموع حقيقية، قالت لوكرثيا، دموع ضخمة لامعة انسابت على وجهه مثل قطرات الزئبق. وبينما ينام البرتغالي، تسهر عليه دافني، شرح لهم توسان مورتون ما هي بورما ولماذا لديهم الفرصة للثراء إلى الأبد بمجرد استخدام قليلٍ من الذكاء والدأب، "لاشيء من القوة الغاشمة، يا ملكولم"، حذر، يكفي أن يتحلّوا بالصبر وألا يتركوا البرتغالي وحيداً أبداً وألا تنتهي من الثلاجة قنينات البيرة، "كل بيرة العالم"، قال ماداً يديه، "ماذا كان سيظن دوم برناردو أوليان راميرز المسكين لو رأى ما أصبح عليه من كان أفضل جنوده".

- جيش سري - قالت لوكرثيا - ذلك الشخص كان قد فقد مزارع البن وقصره في قلب بحيرة وكل لوحاته تقريبا وتوجّب عليه الفرار من أنجولا بعد الاستقلال. عاد بصورة سرية إلى البرتغال واشترى أضخم متجر في لشبونة ليؤسّس هناك مقرّ مؤامراته. هذا ما رواه البرتغالي لمورتون: أن دوم

برناردو باع اللوحات القليلة التي بقيت له ليشترى أسلحة ويتعاقد مع مرتزقة، وبعد موته أخذت بورما تتحلل، لم يتبق بالكاد سوى المتجر، ولذا رحل عن لشبونة، لا لأنه خاف من الشرطة. لكنه قال شيئاً آخر: أن في مكتب دوم برناردو كان ثمة تقويم قديم ولوحة بالغة الصغر لن تساوي شيئاً ما لم يتم بيعها.

- أصدقائي. - تأكد توسان مورتون أن البرتغالي يواصل النوم في الغرفة المجاورة -. أعتقدون أن **هاويا amateur** في عبقرية دوم برناردو أولمان راميرز سيعلق في مكتبه لوحة بلا قيمة؟ أنا، الذي عرفته جيداً، أنفي ذلك. "إنه منظر طبيعي"، يقول ذلك الحيوان، "يُرى فيه جبلٌ وطريق". ارتعدتُ حين سمعت ذلك! بكثير من الحذر سألته إن كان يُرى أيضاً منزلٌ بين الأشجار، إلى أسفل، على اليمين. كنت أعرف أنه سيُجيب بنعم... أنا أعرف تلك اللوحة، منذ خمس عشرة سنة، في زيوريخ، أراني إياها دوم برناردو. وهي الآن معلقة بجانب تقويم، تلتقط التراب في ذلك المتجر في لشبونة حيث لا ينظرُ إليها أحد. رسمها بول سيزان عام ألف وتسعمائة وستة. سيزان، يا مالكولم! هل يقول لك ذلك الاسم شيئاً؟ لكن لا جدوى، لن تستطيعوا تخيل كم من النقود سيعطوننا مقابلها لو عثرنا عليها...

- لكن لم يعرفوا أين تكون بورما - قالت لوكريثيا -. مجرد أنه متجر بنٍ وتوابل وأنه للهبوط إلى الأقبية يجب قول كلمة **بورما**، كانوا يُسكرون البرتغالي ولا يتجاسرون أبداً تقريباً على سؤاله مباشرة خوفاً من أن يستريب، لكن لا بد أن صبرهم نفذ، أعتقد أن مالكولم قال شيئاً جعله يشك، لأنهم ذلك اليوم، في الكوخ، حين أغلقوا على أنفسهم معه، سمعته يصيح ورأيتَه

يخرج واضعا شيئاً في جيبه، قطعة ورقٍ مكرمشة، لكنه كان يتهاوى، دخل الحمام وبقي فيه فترة طويلة، وكان عند تبوّله يصدر ضوضاء مثل حصان... ناداه توسان، وهو بالغ العصبية، أعتقد أنه خشي أن يكون البرتغالي قد ألقى الخريطة في المرحاض. "أخرج من عندك"، كان يقول له، "سنعطيك النصف، أنت وحدك لن تعرف أين تبيعها". عندها رأيته يحفظ في جيبه خيط النايلون ذاك، نظر إليّ وقال: "لوكريثيا، يا عزيزتي، نحن جميعا جوعى تماماً، هل تساعدني دافنى في إعداد الغداء؟"

نهض بيرالبو لإذكاء النار. ظل الكتاب مائلاً ومفتوحاً فوق الآلة الكاتبة. فكر أن ذاك المنظر الطبيعي له نفس الرهافة التي لا تتغير لنظرة وصوت لوكريثيا: تصوّره مختفياً في الظلمة، لا مرئياً لمن يبرون بجانبه ولا يرونه، ينتظر ساكناً، بولاء التماثيل، غريباً على الزمن مثلما على الضعيفة والجريمة. كلمة واحدة كانت كافية للحصول عليه: لكن لم يستطع قولها سوى من يستحق.

- كان الأمر بالغ السهولة... - قالت لوكريثيا -. كان مثل عبور شارع أو صعود حافلة. وصلتُ إلى المتجر وكان شبه خالٍ، كان ثمة رجال يُحمّلون أثاثاً قديماً وأكياس بنٍ في شاحنة. دخلتُ فلم يُقل لي أحدٌ شيئاً، كأنهم لا يروتني... في الخلفية كان واحدٌ من تلك المكاتب العتيقة ورجلٌ بشعر أبيض يكتب في دفتر تسجيلٍ كبير جداً، كأنه يدوّن الأشياء التي يحملها الآخرون. ظللتُ متوقفةً أمامه، وقلبي ينبض ولم أدري ماذا أقول له. نزع نظارته لينظر إليّ جيداً، تركها فوق الدفتر ووضع الريشة في المحبرة، بحرص شديد، كي لا يلطّخ ما كتبه. كان يرتدي معطفاً رمادياً واقياً من التراب. سألتني ماذا أريد،

بتهديبٍ شديد، مثل أولئك النُدل العجائز في المقاهي، مبتسما لي. قلت: "بورما"، ظننتُ أنه لم يفهمني، لأنه ابتسم كأنه لا يستطيع رؤيتي جيدا. لكنه هز رأسه وقال لي، خافضا صوته جدا: "بورما لم تعد موجودة. كُفّت عن الوجود قبل أن تصل الشرطةُ بكثير"... عاود ارتداء النظارة، وتناول الريشة وواصل الكتابة، كان أولئك الرجال يصعدون من القبو حاملين أكياس بنٍ وصناديق مليئةً بأشياء غريبة، مصابيح سفن، حبال، أشياء نحاسية، مثل أجهزة الملاحة. تبعْتُ أحدهم في ممرٍ ثم عبر بضع سلا لم معدنية. كانت اللوحة إلى أسفل، في غرفة مكتبٍ صغيرة جداً. كانت كتبٌ وأوراق ملقاةً على الأرض. أغلقتُ الباب وفككتُها من الإطار. وضعتها في حقيبة من البلاستيك. وخرجت من هناك كأني لا ألمس الأرض. لم يعد الرجل ذا الشعر الأبيض في مكتبه. رأيت الريشة، والدفتر المفتوح، والنظارة. قال لي أحد من يَحْمِلون الشاحنة شيئا، فانطلق الآخرون يضحكون، لكنني لم أنظر إليهم. ظللت يومين محبوسةً في غرفة فندق، أنظر إلى اللوحة، وألمسها بأطراف أصابعي، كأني أربت عليها. لم أُرِد الكَف عن النظر إليها أبداً.

- هل بعثها في لشبونة؟

- في جنيف. هناك كنت أعرفُ إلى أين أذهب. اشتراها مني أحد أولئك الأمريكيين من تكساس الذين لا يطرحون أسئلة. أفترضُ أنه سيحفظها بعدها على الفور في خزانةٍ مُصَفَّحة. سيزان المسكين.

- لكن كان يمكن لي أن أفقدَ تلك الرسالة - قال بيرالبو بعد صمتٍ طويل. أو أن ألقيا بعد أن أقرأها.

- أنت تعرف أن ذلك كان مستحيلا حينها. أنا أيضا كنتُ أعرف.

- أخذتِ الخريطة تلك الليلة، في فندق الطريق السريع، أليس كذلك؟ حين خرجتُ أنا لأخفي سيارة فلورو.

- كان ذلك موتيل. هل تذكر ماذا كان اسمه؟

- كان ضائعا تماما. أظنه لم يكن له حتى اسم.

- لكنك لم تخرج لإخفاء السيارة. - تمتعت لوكريشيا بمحاصرة ذاكرة بيرالبو -. قلت أنك ذاهبٌ لشراء سندوتشات.

- سمعنا محركاً. ألا تذكرين؟ صرتِ شاحبةً من الخوف. اعتقدتِ أن توسان مورتون قد عثر علينا.

- الخائفُ كنتِ أنت، وليس من أن يجدا توسان. كنتِ خائفاً مني. فور أن بقينا وحدنا في الغرفة طلبتِ مني أن تنزل لتناول كاس. لكن كان هناك ثلاثة مليئة بالمشروبات. عندها خطر لك الذهاب لشراء سندوتشات. كنتِ ميتاً من الخوف. كان ذلك يبدو في عينيك في الإيماءات التي تقوم بها.

- لم يكن خوفاً. لم يكن سوى رغبة.

- كانت يداك ترتعشان حين تمددتِ بجانبى. يداك وشفتاك. كنتِ قد أطفأت النور.

- لكن كنتِ أنتِ من أطفأه. بالطبع كنتِ أرتجف. ألم تشعرى أبداً أن نفسك ينقطعُ من فرط الرغبة في أحد؟

- بلى.

- لا تقولي في من.

- فيك.

- لكن ذلك كان في البداية. الليلة الأولى التي كنت فيها معي. حينها كنا نرتجف كلانا. وحتى في الظلمة لم نجرؤ على لمس بعضنا. لكن لم يكن بسبب الخوف. بل لأننا لم نكن نعتقد أننا نستحق ما كان يجري لنا.

- ولم نكن نستحقه. - أكدت لوكريثيا كلماتها بإيماءة إشعال سيجارة. لكنها لم تفعل: بالسيجارة بين شففتيها، قدمت الولاة لبيرالبو في راحة يدها، ليأخذها ويُشعل لها: هذه الإيماءة الوحيدة نفّت الحنين ومجّدت الحاضر. - لم نكن أفضل ممّا الآن. كنا شبابا أكثر مما يجب. وأشرارا أكثر مما يجب. ما كنا نفعله بدا لنا غير مشروع. اعتقدنا أن الصدفة تقدم لنا العذر. تذكر تلك المواعيد في الفنادق، والخوف من أن يكتشفنا مالكولم أو أن يرانا أصدقاءك معاً.

نفى بيرالبو: لم يُرد تذكر الخوف ولا الساعات البائسة، قال، بعد كل هذه السنين كان قد محى من وعيه كلّ ما يمكن أن يُشوّه ذكرى، أو يُكذّب، الليلتين أو الثلاث الجوهريتين في حياته، فلم يكن يهيمه أن يتذكر، بل أن يختار ما يخصّه إلى الأبد: الليلة التي لا تُمحى التي خرج فيها من الليدي بيرد مع لوكريثيا وفلورو وأوقف تاكسي وصعد إليه، تجتاحه مرارة الغيرة والجنون. فتحت لوكريثيا الباب وجلست بجانبه وقالت له: "مالكولم في باريس.

سأذهب معك." من الطوار، أشار لهما فلورو بلووم، البدين والمبتسم،  
المُحصّن من البرد بالسترة الطويلة لصياد أسماكٍ بالحربة، بيده مودّعاً.

- أنتِ أيضاً كنتِ ترتدين سترةً طويلة بياقات عريضة جداً - قال  
بيرالبو -. سوداء، من جلدٍ ناعم جداً. تكاد تُغطي وجهك.

- تركتها في برلين. - الآن كانت لوكريثيا قريبة جداً كأنها داخل ذلك  
التاكسي -. لم تكن من جلدٍ حقيقي. كان قد أهداها لي مالكولم.

- مالكولم التعس. - تذكر بيرالبو بشكلٍ عابر اليدين المفتوحتين اللتين  
تبحثان في الهواء عن مقبضٍ مستحيل -. كان يزيّف معاطف أيضاً؟

- كان يريدُ أن يصبح رساماً. أحب الرسم بقدر ما يمكنكُ أن تحب  
الموسيقى. لكن الرسم لم يكن يحبه.

- كان الجو بارداً جداً تلك الليلة. كانت يداك متجمدتين.

- لكن لم يكن من البرد. - الآن أيضاً بحثت لوكريثيا عن يديه بينما  
تنظر إليه: لاحظ فيهما نفسَ البرد الذي كان يحسّه في يديه حين يخرجُ للعزف  
ويضعُها لأول مرة فوق لوحة المفاتيح -. كان يخيفني أن ألمسك. كنت أ لمس  
جسدك كله وجسدي كله في يديك. أتدري متى تذكرتُ تلك اللحظة؟ حين  
خرجتُ من ذلك المتجر بلوحة سيزان في حقيبة بلاستيك. كان كل شيء في  
نفس الوقت مستحيلاً وسهلاً بصورة لانهائية. مثل النهوض من الفراش  
وانتزاع الخريطة والمسدس من مالكولم والرحيل إلى الأبد...

- لهذا السبب لم نكن أشراراً - قال بيرالبو: الآن اختلط الدوارُ غير  
المُخفّف لسرعة القطار بدوار ذلك التاكسي الذي قادها حتى نهاية الليل عبر

الشوارع النائبة لسان سياستيان - لأننا كنا فحسب ننشد أشياء مستحيلة.  
كان يصيبنا بالقرف ابتذال وسعادة الآخرين. من أول مرة رأينا بعضنا  
لاحظت في عينيك أنك تموتين من الرغبة في تقبيلي.

- ليس بقدر رغبتني الآن.

- أنت تكذبين عليّ. لن يكون ثمة أبداً ما هو أفضل مما نلناه حينئذ.

- سيكون لأنه مستحيل.

- أريدك أن تكذبي عليّ - قال بيرالبو - ألاّ تقولي لي الحقيقة أبداً. -  
لكنه عندها كان يلمس شفتي لوكريثيا.

## الفصل الثامن عشر

حين فتح عينيه اعتقد أنه لم ينم سوى بضع دقائق. تذكر الأزرق التجريدي للنافذة، مساحات الضوء الرمادية الباردة التي أخذت تُخَفِّف ضوء الأباجورة وتُعيد إلى الأشياء شكلها ببطء، لكن ليس ألوانها، المتعادلة أو الذائبة في الأزرق الباهت للغبش، في بياض الملاءات، في الوميض المتعب والفاتر لجلد لوكريثيا. كان قد انتابه الإحساس أو حلم بأن جسديهما قد كبرا واحتلا بنهم مجمل الفضاء وأزاحا في ارتجافهما الظلال الملتصقة بهما: على حافة التلاشي المتبادل واللذيد أنعشهما امتنان متواطئين هاديء. ربما لم يُعد إليهما شيء تلك الليلة: ربما في ذلك الضوء الغريب الذي لم يبد أنه آتٍ من أي مكان نالا عند رؤية بعضهما شيئا كانا يجهلانه، لم يعرفا حتى كيف يرغبانه حتى ذلك الحين، ذلك الوميض الذي أمكنهما من خلاله أن يكتشفا ذاتهما في الزمن بعد غفران الذاكرة.

لكنه لم يكن قد نام بضع دقائق: فضياء الشمس كان يتألق على الستائر الشفافة. كذلك لم يكن يتذكر حلما، لأن لوكريثيا كانت هي من ترقد بجواره في سلام، عارية تحت الملاءة التي تلف ردفها، مشعثة الشعر، وفهما نصف مفتوح، مبتسمة تقريبا، وصورتها الجانية الحادة على الوسادة، قريبة جدا من بيرالبو كأنها نعست حين كانت توشك أن تقبله.

دون أن يتحرك ما زال، خشيةً أن يوقظها، نظر إلى الغرفة مُتعرِّفاً على الأشياء بشكلٍ غائم، ملتقطاً في كل واحدٍ منها تفاصيلَ متفرقة لما لا يتذكره: بنطلونه، الملقى على الأرض، قميصه، المملخ بقطرات صغيرة داكنة، الكعبين العالين للوكريثيا، تذاكر القطار، فوق الكومودينو، بجوار المنفضة، الدلائل على ليلةٍ صارت فجأة نائيةً، لاواقعيةً فحسب، لا مرهوبةٍ ولا مواتية. ببطءٍ وحذر بدأ ينهض: تنفّست لوكريثيا بعمقٍ وقالت شيئاً في الحلم بينما تحتضنُ خصره. فكر أن الوقت متأخرٌ جداً، أن يبلي سوان لا بد يطلبه في فندقه. تحيّل بحسبٍ طريقة النهوض دون أن تلاحظ هي. استدار ببطءٍ شديد: لمست يدُ لوكريثيا بلطفٍ فخذه بينما يتباعدُ ثم ظلت ساكنةً تقريباً، تتحنّس الملاءات. مُتكوّرةً على نفسها ابتسمت كأنها لا زالت تحتضنه ودست وجهها في الوسادة، هاربةً من الاستيقاظ ومن الضوء.

شبك بيرالبو المصارع. تأخر في الانتباه إلى أن الإحساس بالحقة الذي يلفّ حركاته بسريةٍ لا يرجعُ إلى ساعاتِ النوم، بل إلى الغيابِ الخالص للماضي. لأول مرةٍ منذ أعوامٍ طويلةٍ لا يستيقظ تحت وطأة ثقلٍ أو وجهٍ لا بد من استعادته. لم يطلب حساباً من الليلة الماضية في مرآة الحمام. ظلت شفته السفلى متورمةً وندبةٌ رفيعة تعبر جبهته، لكن حتى المظهر المتجهّم لخديه بلا حلاقة لم يبدُ له على الإطلاق مُستهجنًا. من النافذة رأى البحر: كانت الشمس تلمع في قمم الأمواج الهادئة بانعكاساتٍ معدنية. ولم تحرك مشاعره سوى تفصيلاً مبتذلة: في شاعة المناشف كان البرنس الأحمر للوكريثيا، يفوح بخفةٍ برائحة جلدّها وبأملّاح الاستحمام.

في زمنٍ آخر كان سيبحثُ بغيرةٍ حائرة عن علامات على وجودِ  
ذكوري: أما الآن، حين خرج من الدُش، فقد ضايقته إمكانيةُ عدمِ العثور  
علي ما يخلق به. استمتع بفحص عبوات مستحضرات التجميل، متشهماً  
علب أنواع بودرةٍ وردية، وأقراص صابون، وعطور. حلق بصعوبةٍ بسكينٍ  
صغير ومسنون ذكره بشرٍ مسدسٍ لاعب ورقٍ غشّاش. كاد الماء الساخن  
يخفي بقع الدم على قميصه. وضع ربطة العنق: وحين ربطها لاحظ المأ حاداً في  
رقبته فتذكر عابراً مالِكولم: دون ندم، بالرغبة المصرة على النسيان والهروب  
لمن يتذكر عند استيقاظه أنه أفرط في الشراب في الليلة المنصرمة.

في الصالون، فوق الآلة الكاتبة، كان كتاب سيزان لا يزال مفتوحاً،  
بجانب كأسين وقليلٍ من الماء وزجاجة فارغة. نظر إلى الطريق، إلى الجبل  
البنفسجي، إلى المنزل بين الأشجار، فبدوا له محصّنين ضد فقدان الاعتبار  
الخفيف الذي يُلَوِّث كلَّ شيء، حتى الضوء الضبابي للبحر. كان الأمر كأنه  
تأخّر أكثر مما يجب في العودة إلى الوطن الذي ينتمي إليه: ضد إرادته أخذ  
يغلبه إحساسٌ هاديء بالغرابة والكذب، بالحرية، بالارتياح.

باحثاً عن المطبخ، لأنه أراد تحضير قهوة، وصل إلى غرفةٍ بها ثلاث  
نوافذ تطل على المنحدرات. كانت هناك منضدةٌ مليئة بالكتب والأوراق  
المخطوطة وآلة كاتبة أخرى بها ورقة بيضاء. طفايات، المزيد من الكتب على  
الأرض، علب تبغ فارغة، تذكرة طائرة من أشهر عدة: **لشبونة - ستوكهولم** -  
**لشبونة**. كانت الأوراق، المكتوبة بجبرٍ أخضر، مليئة بالشطب. على الحائط  
رأى صورة شخصٍ مجهول: هو نفسه، قبل ثلاث أو أربع سنوات، العيان  
مبتتاتان في شيءٍ لم يكن في تلك الغرفة ولا في أي مكانٍ آخر، واليدان

ممدودتان على لوحة مفاتيح بيانو الليدي بيرد. كانت الظلمة تُخفي نصف ذلك الوجه؛ وفي النصف الآخر، في النظرة وفي إيماة الشفتين، ثمة خوف ورقة وغريزة تخمين صافية. تساءل ماذا تكون لوكريثيا قد فكرت أو شعرت وهي تنظر كل ليلة إلى تلك الحدقتين اللتين تبدوان في نفس الوقت أنهما تبتسمان لمن يكون أمامهما وتُنكرانه، ولا تريانه.

لم يكن المنزل ضخماً كما بدا له حين وصل: فقد كشفه الفضاء الفارغ وأفق البحر من النوافذ. عبثاً بحث فيه عن دلائل عن حياة لوكريثيا: كان الصمت، والحوائط البيضاء، والكتب، هي الإجابة الوحيدة على تساؤله. في آخر ممرٍ وجد المطبخ، نظيفاً وخارج الزمن كأن أحداً لم يستخدمه منذ أعوام. وعلى الجانب الآخر من النافذة، فوق الأشجار، رأى البرج المخروطي للنفار. أدهشه أن يكون بهذا القرب كاكشاف اتساع زائفٍ لمكانٍ من أماكن الطفولة. صنع قهوة: شكر رائحتها كولاٍ مُستعاد. وحين عاد إلى الصالون لبحث عن سيجارة كانت لوكريثيا تنظر إليه. كانت بلا شك قد سمعت خطواته في الممر وتوقفت منتظرةً أن يظهر عند العتبة. حين رآته أطفأت الراديو: نظرت له كأنها حين استيقظت خشيت ألا تجده. في ضوء النهار لم تكن هيئته مهيبَةً، بل مضيافةً أو هشةً أكثر، أقرب للرزانة، ودیعةً أمام احتمال الخطر، منتصبَةً في مواجهتها.

- عثروا على جسد مالكولم - قالت - يبحثون عنك. سمعت في الراديو للتو.

- هل ذكروا اسمي؟

- اسمك وأسماء عائلتك والفندق الذي كنت فيه. شهد مفتش بأنه  
راكما تتعاركان على معبر القطار.

- لابد أنهم عثروا على معطفي - قال بيرالبو - كنت سأرتديه حين  
ظهر مالكولم.

- هل تركت فيه جواز سفرك؟

فتش بيرالبو في جيوبه: كان جواز السفر في سترته. عندها تذكر.

- إيصال الفندق - قال - كنت أحمله في المعطف، لهذا يعرفون  
اسمي.

- على الأقل ليست لديهم صورتك.

- هل قالوا أنني قتلتهم؟

- فقط أنهم يبحثون عنك. تذكر المفتش جيدا أنت ومالكولم. يبدو  
أن القطار لم يكن به سواكما.

- وهل حددوا هويته أيضا؟

- ذكروا حتى المهنة التي وضعها في جواز سفره. مُرَّم لوحات.

- يجب الرحيل من هنا الآن بالذات، يا لوكرثيا. توسان مورتون  
يعرف الآن أين يبحث عنك.

- لن نستطيع أحد العثور علينا ما لم نخرج من هذا المنزل.

- يعرف اسم المحطة. سيطرح أسئلة. لن يتأخر حتى يومين في الوصول إلى هنا.
- لكن سيعطون اسمك لشرطة المطار. لن تستطيع العودة إلى فندقك ولا الخروج من البرتغال.
- سأرحل في القطار.
- ثمة شرطة في القطارات أيضا.
- سأختبيء بضعة أيام في فندق بيلي سوان.
- انتظر. أعرف شخصا يمكن أن يساعدنا. إسباني يملك ناديا قريبا من البورما. سيبحث لك عن جواز سفر مزيف. لقد ساعدني في تزيف مستندات اللوحة.
- قولي لي أين يسكن وسأذهب لرؤيته.
- سيأتي إلى هنا. سأكلمه تليفونيا.
- ليس هناك وقت، يا لوكريثيا. يجب أن ترحلي من هنا.
- سنرحل معا.
- أطلبني ذلك الشخص وقولي له أنني سأذهب لرؤيته. وحدي.
- أنت لا تعرف أحدا في لشبونة. وليس معك نقود. خلال بضعة أيام سنستطيع أن نرحل دون أي خطر.

لكنه لم يكن يشعرُ تقريبا بالخطر: بدا له كل شيء، حتى احتمال أن تكون سيارات الشرطة تجوبُ الشوارع الظليلة للبيوت الريفية، بعيدا لا يرتبط به، لا علاقة له بحياته مثل مشهد البحر والحديقة المهجورة اللذين يحيطان بالمنزل، مثل المنزل ذاته والفورة البعيدة لليلة الماضية، النظيفة من كل رمادٍ، مثل نار الماس. لم يعد، مثل مراتٍ سابقة، يريد أن يقبض على الزمن حتى لا يُنتزع منه قرب لوكرثيا، ولا أن يستعجل حتى اللحظة الأخيرة البهجة وكذلك الألم، مثلما حين كان يعزف ويتجنب النغمات النهائية خوفاً من أن يلغي الصمتُ للأبد في مخيلته وفي يديه سلطة الموسيقى. ربما كان ما مُنح له تحت ضوء الفجر الساكن لا يتيح ديمومةً ولا تخليدا ولا رجوعا: سيخصه دوما إذا رفض أن ينظر إلى الورا.

دون أن يقول شيئا عرفت لوكرثيا ما كان يفكر فيه وفهمت الرقة اللامحدودة لوداعه الصامت. قبلته بخفةٍ على شفثيه، واستدارت وسارت نحو غرفة النوم. سمعها بيرالبو تطلب رقم تليفون. بينما تسأل هي عن شخص بالبرتغالية أحضر لها فنجان قهوةٍ وسيجارة. بنوعٍ من بُعد النظرِ المستقبلي عرف أن السعادة تكمن في تلك الإيماءات. بوجهٍ مستديرٍ إلى جانب كي تسند التليفون فوق كتفها العاري، قالت لوكرثيا كلمات بالغة السرعة لم يستطع فهمها وسجلت شيئا في نوتةٍ مستندة على ركبتيها. كانت ترتدي قميصا ضخما وذكوريا بعض الشيء ولم تكن قد انتهت من ترزيره. كان شعرها مبتلاّ وبضع نقاطٍ من الماء مازالت تلمع على فخذيها. وضعت الساعة، تركت النوتة والقلم الرصاص فوق الكومودينو، شربت قهوتها ببطء، ناظرةً من وراء الدخان إلى بيرالبو.

- ينتظرك بعد الظهر، الساعة الرابعة - قالت، لكن نظرتها كانت غريبةً  
تماماً عن كلماتها - في هذا العنوان.

- أطلبي المطار الآن. - وضع بيرالبو السيارة بين شفتيها. كان قد  
جلس إلى جانبها - احجزي تذكرة في أول طائرة تغادر البرتغال.

طوت لوكريثيا الوسادة واتكأت عليها، نافخةً الدخان من شفتين  
مفتوحتين بالكاد، في خيوطٍ بطيئةٍ رمادية وزرقاء، مخططةً مثل الظلمة  
والنور. ثنت ركبتيها وأسندت قدميها المضمومتين والحافيتين إلى حافة  
الفراش.

- هل أنت واثقٌ أنك لا تريدُ القدوم معي؟

رَبَّتْ بيرالبو كعبيها: لكن لم تكن تريبتةً بقدر ما كانت تعرفاً رهيفاً.  
بعد قميصها قليلاً، ومازال يحسّ في أصابعه رطوبة جلدها. عاودا النظر إلى  
بعضهما: بدا أن ما تفعله أيديهما أو يقوله صوتاهما يطوّق كثافة حدقاتهما عبثاً  
كدخان السجائر.

- فكري في مورتون، يا لوكريثيا. يجب أن نخشى منه لا من الشرطة.

- هل هذا هو السبب الوحيد؟ - نزعت لوكريثيا سيجارته وجذبتة  
نحوها، متحسسةً بأطراف أصابعها شفتيه وجرح جبهته.

- هناك آخر.

- كنت أعرف. قله لي.

- يبلي سوان. عليّ أن أعزف معه يوم 12.

- لكن سيكون بالغ الخطورة. يمكن أن يتعرّف عليك أحد.  
- ليس إذا استخدمتُ اسماً آخر. سأحاول ألاّ تضرب الأضواء في وجهي.

- لا تعزف في لشبونة. - كانت لوكريثيا قد دفعته برفقٍ بالغ حتى مدّته بجانبها وأمسكت سحنته بين يديها حتى لا يستطيع النظر إليها -  
سيفهم بيلى سوان. لن يكون هذا آخر حفلٍ له.  
- يمكن أن يكون - قال بيرالبو. أغمض عينيه، قبل مُلتقي شفيتها،  
ووجنتيها، ومنبت شعرها، في ظلمةٍ مرغوبةٍ أكثر من الموسيقى وأعذب من النسيان.

## الفصل التاسع عشر

- لم تعد لرؤيتها منذ ذلك الحين ؟ - قلت له - ولا حتى بحثت عنها ؟  
- كيف كنت سأبحث عنها . - نظر إليّ بيرالبو ، متحدّياً تقريباً أن أرد عليه - . أين .

- في لشبونة ، على ما أفترض ، بعد عدة أشهر . المنزل كان منزلها ،  
أليس كذلك ؟ يمكن أن تعود إليه .

- طلبتها مرة بالتليفون . لم يجب أحد .

- كان يمكن أن تكتب لها . أتعرف أنك تعيش في مدريد ؟

- أرسلت إليها بطاقةً بريدية بعد أيامٍ من التقائي بك في المتروبوليتانو  
وأعيدت إليّ . "عنوان غير كافٍ" .

- مؤكّد أنها ستبحث عنك .

- ليس عني ، بل عن سانتياجو بيرالبو . - بحث عن جواز سفره على  
الكومودينو ومدّه إليّ ، مفتوحاً على الصفحة الأولى - . وليس عن جياكومو  
دولفين .

الشعر أجعدٌ وبالغ القصر ، النظارة داكنة ، وظلٌّ متناثر لبضعة أيام  
دون حلاقة على خديه ، مما أطال سحنه الرأسية والبالغة الشحوب التي  
أصبحت لرجلٍ آخر ، هو نفسه ، الذي أمضى عدة أيامٍ مختبئاً في موضع ليس

فندقاً بالضبط منتظراً أن تطول ذقنه ليصبح ممثلاً لرجل الصورة، لأن ذلك الإسباني، مارانيا، قبل أن يلتقطها، كان قد ظلّ بقلم مكياج وفرشة صغيرة مغموسة في بودرة رمادية ذقنه ووجنتيه، ماسحاً وجهه بأصابعه الندية أمام المرأة، مثلما مع ممثلٍ غير ماهر، وكان قد رفع له شعره، مرطباً إياه بمثبّت، قائلاً له بعدها، راضياً عن عمله، مدققاً في تصحيح تفاصيل صغيرة بينما يعدّ الكاميرا، "ولا أمك ستتعرف عليك؛ ولا لو كيثيا".

خلال ثلاثة أيام، محبوساً في تلك الغرفة ذات النافذة الواحدة التي يرى منها قبة بيضاء وأسقف محمّرة ونخلة، منتظراً على الدوام أن يعود مارانيا بجواز السفر المزيّف، أخذ يتحول إلى الآخر ببطء تحولٍ لامرئي، ببطءٍ بقدر ما تنمو لحيته وتوسّخ وجهه، وهو يدخن في مواجهة مصباح السقف، في مواجهة القبة التي يجعلها الضوء أولاً صفراء ثم بيضاء وينتهي بأن يجعلها رمادية وزرقاء، ناظراً لنفسه في مرآة المراص حيث ينقّط صنوبرٌ بانتظام ساعة، ويجلب له حين يفتحه عن آخره نفساً من بالوعة. كان يمرّ يديه على خديه الحشنيين كمن يبحث عن مؤشرات على تحوّل لم يصبح مرئياً بعد ويعدّ الساعات وقطرات الماء ويغمغم أغنيات مقلّداً صوت الترومبيت والكونترباس بينما من الشارع تأتي أصوات فتيات صينيات ينادين الرجال ويضحكن كالطيور وروائح لحم مطهي على الفحم وطبخ بهارات. كانت شابة صينية، ضئيلة وملونة، تتحلّى بتلطف طفولي فاحش، تصعد جالبةً له بانتظام ممرضة قهوة وأطباق أرز بالسّمك ونبذ أخضر وشاي وروم وسجائر أمريكية مهريّة، لأن السنيور مارانيا قد أمرها بذلك قبل أن ينصرف، حتى أنها في إحدى المرات تمدّدت إلى جانبه وبدأت تقبله كطائرٍ ينقر الماء،

ضاحكةً بعدها بعينين خفيضتين حين أفهمها بيرالبو برفق أنه يُفضل البقاء وحيدا. عاد الإسباني، مارانيا، في اليوم الثالث بجواز السفر مغلفاً بكيس بلاستيكي كان رطبا حين لمسه بيرالبو، لأن يدي مارانيا ورقبته تعرق بشدة ويصعد السلام من الشارع وهو ينهج مثل حوتٍ، ببدلةٍ كأنها من الكتان الاستعماري ونظارة ذات زجاج أخضر تخفي عيني أمهي وحسن الضيافة الثقيلة لمرزبان<sup>(1)</sup>. طلب قهوةً وروم، وشئت بطبطباته الفتيات الصينيات، لم ينزع نظارته ليتحدث مع بيرالبو: بل رفع الزجاج قليلا ونظف عينيه بطرف منديل.

- جياكومو دولفين - قال مُظهرا جواز السفر حتى يقدر بيرالبو ميزة مرونته -. مولود في وهران، عام ألف وتسعمائة وواحد وخمسين، من أب برازيلي، رغم أنه مولود في أيرلندا، وأمٍ إيطالية. منذ اليوم هذا هو أنت، يا رفيق. هل رأيت الصحف؟ لم يعودوا يتحدثون عن ذلك اليانكي الذي صقّيته ذاك اليوم. عملٌ نظيف، خسارة أنك تركت المعطف في القطار. شرحت لي لوكريثيا كل شيء. دفعةً ويسقط على السكة الحديد، أليس كذلك؟

- لا أذكر. في الحقيقة لا أعرف إن كان قد سقط من تلقاء ذاته.

- إهدأ، يا رجل. نحن بلديات أم لا؟ - رشف مارانيا رشفةً من الروم فغمر العرق وجهه -. أشعر أنني قنصلٌ للإسبان في لشبونة. إما أن يذهبوا إلى السفارة أو يأتوا إلي. أما بالنسبة لذلك الخلاسي من المارتنيك الذي يمضي باحثا عنك، فقد قلت للوكريثيا: الهدوء. سأهتم شخصا بك حتى ترحل من

لشبونة. سأخذك إلى ذلك المسرح الذي ستعزف فيه. في سيارتي الخاصة.  
هل الخلاسي مُسلّح؟

- على ما أظن.

- وأنا أيضا. - أخرج مارانيا، وهو يلهث، من وسطه المنتفخ أكبر  
مسدسٍ رآه بيرالبو على الإطلاق، بما في ذلك في الأفلام -. ثلاثمائة وسبعة  
وخمسون. فليضع نفسه أمامي.

- من عادة أن يضع نفسه في الخلف. بخيط نايلون.

- إذن عليه أن يمنعني من الاستدارة. - نهض مارانيا واقفا ووضع  
المسدس في مكانه -. عليّ أن أذهب. هل أوصلك إلى أي مكان؟

- إلى المسرح، إذا استطعت. يجب أن أتدرب.

- تحت أمرك. من أجل لوكريثيا يمكنني أن أجعل من نفسي مُزيّقا،  
وحارساً شخصياً، وسائق تاكسي. هذه هي الأعمال: اليوم لك، وغدا لي. آه،  
إذا احتجت نقودا، أطلب مني. حظك حلو، يا رفيق. هذا هو العيش على  
حساب النساء...

كل مساء كان مارانيا يصطحبه، مُتكيّساً في سيارةٍ لا معقولة تتسلق  
الأزقة كصرصار، واحدة من سيارات موريس التي كانت رياضيةً بصورة  
مسعورة منذ عشرين عاما والتي يتساءل بيرالبو دوما كيف يمكن لمارانيا أن  
يدخلها ويتحرك فيها. وبينما يقود السيارة كأن السقف يفحصه يشخر تحت  
شارب حيوانٍ بحري يغطي فمه ويُعامل المقود بانحرافات تعسفية مباغته:  
أحيانا يكون منفيّاً سياسيا من العصور الماضية وأخرى طريدا لاثهام جائر

بالاختلاس. لم يبق لديه حنينٌ لإسبانيا، أرض الجحود والحسد تلك التي تحكم بالنفي على من يتردون ضد الابتذال: أليس هو أيضا، بيرالبو، منفيًا، ألم يضطر للرحيل إلى الخارج لينتصر في الموسيقى؟ وخلال البروفات، جالسا في صف المقاعد الأول مثل بوذا سمين، كان مارانيا يبتسم وينعس بصورة قلقّة، وحين يوقظه دوي آلات الإيقاع أو انبثاق الصمت، يقوم بالحركة السريعة للبحث عن مسدسه ويتفحص ظلمة المسرح الخاوي، والستائر الحمراء المرفوعة. لم يتجاسر بيرالبو أبدا على سؤاله كم دفعت له لوكريثيا ولا ما الدّين الذي كان يوفيه بحمايته. "في المنفى، يجب علينا نحن الإسبان أن نساعد بعضنا بعضا"، يقول مارانيا، "أنظر إلى الشعب اليهودي...".

لكن ليلةَ الحفل لم ينتظر بيرالبو سماع بوق سيارته ولا الضجيج الكارثي الذي يدور به فوق الأرصفة ويتوقف عند باب المنزل، بجوار النافذة التي تتكئ عليها أحيانا الفتيات الصينيات. نهض من الفراش كأنه مريضٌ مدفوعٌ بالتزام الشجاعة، شرب جرعة من الروم، نظر في المرأة، منحته الحدقتان المفرطتا الانساع وذقن الثمانية أيام طابع حياة سيئة وليالٍ بلا نوم، احتفظ بجواز السفر كمن يخفي سلاحا، وضع النظارة الداكنة ونزل سلما بالغ الضيق درجاته مكسوة بالمطاط القذر وينتهي في الزقاق. ودّعته إحدى الفتيات من النافذة. سمع خلفه ضحكاتٍ قصيرة حادة ولم يُرد أن يلتفت. من حانةٍ قريبة انبعث دخانٌ كثيف بروائح الدهن والراتنج والأطعمة الآسيوية. خلف زجاج النظارة كان للعالم دكنة حلول الظلام أو الخسوف. وعند الهبوط في طريقه إلى المدينة السفلى شعر بنفس الحفة اللا إرادية تقريبا التي

يشعر بها حين يفقدُ خوفه من الموسيقى، نحو منتصف الحفل، في تلك اللحظة التي تكفُ فيها يداه عن التعرّق وتُطيعان غريزة السرعة والكبرياء الغريبة عن الوعي مثل دقائق قلبه. حين انعطف في شارع رأى المدينة بكاملها والخليج، السفن البعيدة ولنشات الميناء، الجسر الأحمر والممحوّ فوق المياه بفعل ضباب بلون الأوبال. وحدها غريزة الموسيقى تهديه وتمنعه من التوهان، دافعةً إياه للتعرف على أماكن رآها حين كان يبحث عن لوكرثيا، وقاذفةً إياه عبر ممرات ضيقة رطبة وأزقة مُسوّرة صوب ميادين لشبونة الشاسعة والأعمدة ذات التماثيل، صوب ذلك المسرح القدر بعض الشيء حيث لمعت الأضواء والظلال المتوافقة للأفلام الأولى عند نهاية قرنٍ آخر لا يمكن اكتشاف دلائل عليه سوى في لشبونة: أخبرني أن مكان الحفل كان فوق واجهته لافتةٌ برسوم مجازية وحوريات وحروفٍ متلوية ترسم كلمةً غريبة، **أنيماتوجرافو Animatógrafo** [صور متحركة]، وأنه قبل بلوغ الشوارع المستقيمة والمتساوية للمدينة السفلى بدأ يرى الملصقات التي كان اسمه الجديد مكتوباً فيها تحت اسم بيلى سوان بحروف كبيرة حمراء، **جياكومو دولفين، بيانو**.

رأى فوق التلال الدورَ الصفراء المتراكبة، وبرودة ضوء ديسمبر، والسلام والبرج المعدني النحيل والمصعد الذي أنقذه ذات ليلةٍ نائية مؤقتاً من ملاحقة مالكوم، رأى البوابات المظلمة للمتاجر والنوافذ المضاءة للمكاتب، الحشد المغمم والسكان والمتجمّع عند حلول الظلام تحت اللافتات المضئية الزرقاء كأنه ينتظر شيئاً أو يتوقّع شيئاً، ربما لامرئية أو المصير السري لذلك

الرجل ذي النظارة الداكنة والحركات المختلطة الذي لم يعد يُدعى سانتياجو بيرالبو، الذي وُلد من العدم في لشبونة.

وصل إلى المسرح وكان هناك أناسٌ حول شباك التذاكر، قال لي أنه دوما ما يوجد أناسٌ في كل مكان في لشبونة، حتى في المبالو العمومية وعلى أبواب دور السينما غير المهيبة، في الأماكن المحكوم عليها بالوحدة بأقصى ما يمكن، على النواصي القريبة من المحطات، دائماً رجال وحيدون، يرتدون ثياباً داكنة، رجال وحيدون وسيئو الحلاقة، كأنهم خرجوا لتوهم من قطار إكسبريس ليلي، بيضٌ بجلد نحاسي ونظرةٌ مختلطة، زنوج أو آسيويون صامتون يحتملون بحزنٍ لانهائي واقتلاع جذورٍ المستقبل الذي أحضرهم إلى تلك المدينة من الجانب الآخر من العالم. لكن هناك، على باب ذلك المسرح أو السينما المدعوة بقاعة الصور المتحركة [أنيماتوجرافو]، رأى نفسَ الوجوه الشاحبة التي كان قد عرفها في شمال أوروبا، نفسَ إيماءات الصبر المثقف والإصرار، وفكر أنه لا هو ولا بيلى سوان قد عزفا أبداً من أجل هؤلاء الناس، أن الأمر يتعلق بخطأ، لأنهم رغم أنهم موجودون هناك واشتروا تذاكرهم بوداعة، لا يمكن أبداً للموسيقى التي سيستمعون إليها أن تحرك مشاعرهم.

لكن ذلك كان شيئاً عرفه بيلى سوان على الدوام، وربما لا يهمه، لأنه حين يخرجُ للعزف يكون كأنه وحيد، تدافع عنه وتعزله الكشافات التي تُغرق الجمهور في العتمة وترسمُ حدوداً جازمةً عند حافة خشبة المسرح. كان بيلى سوان في غرفة الملابس، لا مبالياً بأضواء المرأة ولا بالرطوبة المتسخة للحوائط، بسيجارةٍ بين شفثيه، والترومبيت على ركبتيه، وزجاجة عصير في

متناول يده، غريباً ووحيداً، وديعاً، كأنما في قاعة انتظارٍ طيب. بدا أنه لا يتعرف لا على بيرالبو ولا على أحد، ولا حتى على أوسكار، الذي أحضر له كبسولات طبية مشكوك فيها وأكواب ماء وأخذ على عاتقه ألاّ تنكسر أبداً حوله دائرة من الوحدة والصمت.

- بيلي - قال بيرالبو - أنا هنا.

- وأنا لا - رفع بيلي سوان السيجارة إلى شفثيه بطريقة غريبة، بيدٍ مُتصلبة، كمن يتظاهر بالتدخين. وكان صوته أشدّ تمهلاً وعمّةً وأشدّ استغلاقاً من أي وقت - ماذا ترى بهذه النظارة؟

- لا شيء تقريباً. - نزعها بيرالبو. جرح ضوء المصباح العاري عينيه وصارت غرفة الملابس أشدّ ضيقاً. - قال لي ذلك الشخص أن أرتديها دائماً.

- أنا أرى كلّ شيء بالأبيض والأسود. - كان بيلي سوان يتحدث إلى الحائط. - رمادي ورمادي. أغمق وأفتح. لا كما في الأفلام. بل كما ترى الحشرات الأشياء. قرأت كتاباً عن ذلك. لا ترى الألوان. حين كنت شاباً كنت أراها. وحين كنت أدخن المارجوانا كنت أرى ضوءاً أخضر حول الأشياء. ومع الويسكي بطريقة أخرى: أصفر أكثر وأحمر أكثر، أزرق أكثر، مثلما حين تضاء تلك الكشافات.

- قلت لهم ألاّ يُصوّبونها إلى وجهك - قال أوسكار.

- هل ستأتي هي الليلة؟ - استدار بيلي سوان ببطء وإرهاق صوب بيرالبو، مثلما حين كان يتكلم: في كل كلمة يقولها كان ثمة حكاية.

- لقد رحلت - قال بيرالبو.

- إلى أين ؟ - شرب بيلى سوان رشفة من العصير بمزاج قرف وطاعة،  
بحنين تقريبا.

- لا أدري - قال بيرالو - أردتُ لها أن ترحل.

- ستعود. - مد بيلى سوان يده فساعدته بيرالو على النهوض، شعر  
بأنه لا وزن له.

- التاسعة - قال أوسكار - ساعة الخروج. - من قريب جدا، خلف  
خشبة المسرح، كان يُسمع ضجيجُ الناس. أخاف ذلك بيرالو بشدة كسماع  
البحر في الظلام.

- منذ أربعين عاما أكسبُ عيشي هكذا. - سار بيلى سوان في ذراع  
بيرالو، مطوّقا الترومبيت على صدره كأنه يخشى أن يفقدها. - لكن حتى  
الآن لا أفهم لماذا يأتون لسماعنا ولا لماذا نعزفُ لهم.

- لا نعزفُ لهم، يا بيلى - قال أوسكار. كانوا أربعتهم، فمعهم عازف  
الدرامز الأشقر الفرنسي، بوبي، متجمعين عند نهاية ممرٍ بستائر، وأضواء  
المسرح تضيء وجوههم بالفعل.

كان حلقُ بيرالو جافا ويداه تتعرقان. على الجانب الآخر من الستائر  
استمع إلى أصوات صفافير متناثرة. "في تلك المسارح يشبه الأمرُ الخروجَ إلى  
السيرك"، قال لي ذات مرة، "يشكر المرءُ لآخر أنه سيخرج أولاً حتى تأكله  
الأسود". خرج أولاً بوبي، عازف الدرامز، برأسٍ منكس، مبتسماً، متحركا  
بالتكتم السريع لحيواناتٍ ليلية معينة، وهو يضربُ إيقاعيا جانبي البنطلون  
الجينز. استقبله تصفيقٌ قصير: بعده خرج أوسكار، بدينا ومتمايلا، بإيماءة

احتقارٍ بارد. كان الكونترباس والدرامز يدويان بالفعل حين خرج بيرالبو. أعشته الكشافات، نيرانٌ صفراء مستديرة خلف زجاج نظارته، لكنه لم ير سوى البياض المنتظم وطول لوحة المفاتيح: كان وضع يديه عليها مثل التشبث بلوحٍ وحيدٍ لغريق. بجبنٍ وبراعة بدأ أغنيةً قديمةً جدا، ناظرا إلى يديه المتبستين والبيضاوين اللتين تتحركان كأنهما تهربان. ضرب بوبي الطبول بعنف جدرانٍ عالية تتهار ثم مسح أسطحها دائريا وساد الصمت. رأى بيرالبو بيلي سوان يمرّ بجانبه ويتوقف عند حافة المسرح وهو لا يكاد يرفع ساقيه عن المنصة، كأنه يتقدم على أطراف أصابعه أو يخشى أن يوقظ أحدا.

رفع الترومبيت ووضع المبسم على شفثيه. أغمض عينيه: كانت سمخته حمراء ومتقلصة، ولم يبدأ العزف بعد. بدا كأنه يستعدّ لتلقي ضربة. بظهره تجاههم أعطاهم إشارةً بيده، كمن يربّت على حيوان. أرجف بيرالبو إحساسٍ مقدسٍ بشيءٍ وشيك. نظر إلى أوسكار، الذي كان مغمض العينين ومنحنيا إلى الأمام، ويده اليسرى مفتوحةً على عنق الكونترباس، منتظرا وعارفا بنهم. بدا له عندها أنه يسمع وشوشة صوتٍ مستحيل، أنه يرى من جديد المنظرَ المستغرق للجبيل البنفسجي والطريق والمنزل المختبيء بين الأشجار. قال لي أن بيلي سوان في تلك الليلة لم يعزف حتى لهم، هم شهوده وشركاؤه المتواطئين: بل عزف لنفسه، للظلمة وللصمت، للرؤوس المظلمة دون ملامح التي تهتز كأنها ساكنة على الجانب الآخر من ستارة الضوء، عيونٍ وأسماع وقلوبٍ إيقاعية لלא أحد، مناظر جانبية مصفوفة لهاوية هادئة لا يجرؤ على الإطلال فيها سوى بيلي سوان، مسلحا بالترومبيت، ولا حتى بها، لأنه يتعامل معها كأنها غير موجودة. أراد هو، بيرالبو، أن يتبعه قائداً الآخرين، أن

يتقدم تجاهه، ذلك الوحيد والشديد البُعد الذي يُدير لهم ظهره، بأن يُلْقَه في تيارٍ ساخنٍ وقوي بدا أن يبلي سوان النقطة لحظةً كأن التعب قد أوقفه لكنه هرب منه بعدها كأنه يهرب من الكذب أو الاستسلام، فرمما كان ما يعزفونه كذبا وجبناً: مثل حيوانٍ يعرف أم من يتعقبونه لن يمكنهم أن يوقعوه في شباكهم، غير اتجاه هربه فجأةً أو تظاهر بأنه بقي متخلفاً وهادئاً، متشماً الهواء، مُقياً بموسيقاه خطأً غير مسموع يُطَوِّقه مثل جرسٍ زجاجي، زمنٍ يخصه وحده داخل الزمن المنضبط بفعل الآخرين.

حين رفع بيرالبو عينيه عن البيانو رأى جانبا وجهه المحمر والمتقلص وجفنيه المغمضين كندبةٍ مزدوجة. لم يعودوا يستطيعون متابعته فتفرقوا، كل واحد من ثلاثتهم مُشتتٌ بحماسٍ في ملاحظته، وحده أوسكار كان يضرب أوتار الكونترباس بإصرارٍ غريبٍ عن أي إيقاع، دون أن يستسلم للصمت ولبعد يبلي سوان. وبعد بضع دقائق كفت يدا أوسكار عن الحركة كذلك. عندها أزاح يبلي سوان الترومبيت عن فمه وظن بيرالبو أن عدة ساعاتٍ قد انقضت وأن الحفل يوشك على الانتهاء، لكن لم يصفق أحد، لم تُسمع حتى نائمةً في الظلمة المذهولة التي لم تكن آخر نغمةٍ حادةٍ للترومبيت قد تلاشت منها بعد. يبلي سوان، قريبا جدا من الميكروفون بحيث يمكن سماع تنفسه كصدىٍ ثقيل، كان يغني. أعرف أنا كيف كان يغني، فقد سمعته في الأسطوانات، لكن بيرالبو قال لي أنني لن يمكنني أبدا أن أتخيل الطريقة التي دوى بها صوته تلك الليلة: كان غمغمةً مُتخلصةً من الموسيقى، مزمورا متمهلاً، إنشادا غريبا للأمل والعذوبة، متوحشاً وعميقاً ومكتوماً كأن الاستماع إليه يتطلب لصقَ الأذن على الأرض. رفع هو يديه، وربّت على لوحة

المفاتيح كأنه يبحث عن صدع في الصمت، بدأ يعزف، مسترشدا بالصوت مثل أعمى، مقبولا من الصوت، متخيلا على الفور أن لوكريثيا تستمع إليه من الظلمة ويمكن أن تحكم عليه، لكن حتى ذلك لم يهمه، بل وحده التنويم المغناطيسي الرقيق للصوت، الذي أظهر له في النهاية مصيره والتبرير الهاديء والوحيد لحياته، توضيح كل شيء، لما لن يفهمه أبدا، لاجدوى الخوف والحق في الكبرياء، في اليقين الداكن لشيء ليس المعاناة ولا السعادة لكنه يحتويهما بصورة غير مفهومة، وأيضا حبه القديم للوكريثيا ووحدته لثلاث سنوات والتعريف المتبادل على الفجر في منزل المنحدرات. الآن كان يرى كل شيء تحت ضوء متسام وعصي مثل ضوء صباح شتوي بارد في أحد شوارع لشبونة أو سان سباستيان. كأنه يستيقظ انتبه إلى أنه لم يعد يسمع صوت بيلى سوان: كان يعزف وحده وأوسكار وعازف الدرامز ينظران إليه. بجوار البيانو، في مواجهته، كان بيلى سوان ينظف زجاج نظارته، موقعا بقدمه على الأرض ببطء ومحركا رأسه، كأنه يوافق على شيء يستمع إليه من بعيد.

- هل عاد إلى الشراب؟

- ولا قطرة واحدة. - نهض بيرالبو من الفراش وذهب ليفتح الشرفة:

كان ثمة وميض من الشمس على أسقف المباني، في النوافذ الأعلى لمبنى التليفونيك. ثم استدار نحوي مظهرها لي زجاجة فارغة. - لأنه لم يكن قد تخلى عن الكحول والموسيقى. فقد انتهى معه في لشبونة. مثل هذه الزجاجة. ولذا كان سواء بالنسبة له أن يكون حيا أو ميتا.

فتح الستائر عن آخرها ورمى الزجاجاة الفارغة في سلة مهملات. بدأ  
كأننا لم نعد نتعرّف على بعضنا في ضوء النهار. نظرت إليه معتقدا أنني يجب  
أن أنصرف ولا أدري ماذا أقول له. لكنني لم أدِر أبدا كيف أقول وداعا.

هوامش:

(1) Sātrapa: مرزبان: حاكم ولاية فارسي قديم. يجيد الحكم ولو بإساءة استخدام سلطته، ويجيا في بدخ.

## الفصل العشرون

في الأيام التالية قمتُ برحلةٍ قصيرةٍ إلى مدينةٍ غير بعيدةٍ عن مدريد. وحين عدتُ فكرتُ أن الوقت قد حان للكتابة إلى فلورو بلووم، الذي لم أعرف عنه شيئاً منذ أن رحلتُ من سان سباستيان. كنتُ أجهل عنوانه: فقررتُ أن أطلبه من بيرالبو. طلبتُ فندقه فأخبروني أنه غير موجود. لسبب لا أتذكره الآن تأخرتُ عدة أيامٍ في الذهاب للبحث عنه في المتروبوليتانو. لا تحرك مشاعري عادةً العودةُ إلى أماكن كنتُ فيها من عشر سنواتٍ أو عشرين سنة، لكن إذا ذهبتُ إلى بارٍ كنتُ أزوره بانتظام بعد أسبوعين أو شهر فحسب، فإنني أحس بثقبٍ لا يُطاق في الزمن، الذي واصل مروره على الأشياء في غيابي وأخضعها دون معرفتي لتغيّراتٍ لامرئية، كمن يترك منزله لفترةٍ لمستأجرين غير أوفياء.

على باب المتروبوليتانو لم يعد موجوداً ملصق **ثلاثي جياكومو دولفين**. كان الوقت مبكراً: أخبرني نادلاً لا أعرفه أن مونیکا تبدأ نوبتها في الثامنة. لم أسأله عن بيرالبو وموسيقّيه: تذكرتُ أن ذلك كان اليوم الأسبوعي الذي لا يعزفون فيه. طلبتُ بيرة وأخذتُ أرشفها ببطءٍ على طاولة في الخلفية. وصلت مونیکا قبل الثامنة بدقائق. لم ترني في البداية: نظرتُ نحوي حين قال لها نادلاً منصة البار شيئاً. جاءت مشعثة الشعر ومكياجها مرسومٌ بعجلة شديدة. لكنها دوماً بدا أنها تصل إلى كل مكانٍ في نهاية الدقيقة الأخيرة. دون

أن تخلع معطفها جلست في مواجهتي: من طريقتها في النظر إلى عرفت أنها ستسألني عن بيرالبو. في صوتها لم يبد لي غريبا أن يكون اسمه جياكومو.

- اختفي من عشرة أيام. - أخبرني. لم نتكلم وحدنا أبدا. لاحظت للمرة الأولى وجود درجات لونٍ بنفسجية في لون عينيها. - دون أن يقول لي شيئا. لكن بوبي وأوسكار كانا يعرفان أنه سيرحل. وقد ذهبا هما أيضا.

- هل ذهب وحده؟

- ظننت أنك ستعرف. - دققت النظر إلى وصار لون حدقتها أكثر. لم تكن تثق بي.

- لم يحك لي خططه.

- لم يبد أن لديه خطط. - ابتسمت لي مونيكا بطريقة متصلة، مثلما حين يكون المرء ضائعا. - لكنني كنت أعرف أنه سيرحل. هل كان مريضا حقا؟

قلت نعم: نسجت أكاذيب جزئية تظاهرت هي بقبولها، اخترعت تفاصيل زائفة تقريبا، ليست بيضاء على الإطلاق، وربما لا مجدية، كالتى نحكيها لمريض لا يهمننا ألمه. بخشية واحتقار سألتني أخيرا إن كان هناك امرأة أخرى. قلت لا، ومحاو لا النظر في عينيها، أكدت لها أنني سأواصل البحث، أنه سيعود، كتبت رقم تليفون منزلي في منديل ورقي حفظته هي في حقيبتها. وحين قلت لها وداعا انتهت دون حزنٍ أنها لم تكن تراني.

كان الرذاذ قد بدأ يتساقط حين خرجت من المتروبوليتانو. ناظرا إلى اللافتات المضئية العالية أردت تخيل كيف سيكون في هذه اللحظة ذاتها ليل

لشبونة: فكرت أن بيرالبو ربما عاد إلى هناك. ذهبت سيرا نحو فندقه. على الرصيف المقابل، تحت نوافذ التليفونيك، بدأت تتجمع النساء الساكنات، بالسجائر بين شفاههن، في معاطف ضخمة ذات ياقات مرفوعة حتى الذقن، لأن ريحا مثلجة تهب من الأرصفة المظلمة. تبينت فوق المظلة، بجوار اللافتة الرأسية التي مازالت مطفأة، نافذة غرفة بيرالبو: لم يكن بها ضوء. عبرت الشارع وتوقفت عند مدخل الفندق. كان رجلان شديدا الشبه ببعضهما، بصدريتين سوداوين ونظارتي شمس وشاربين متماثلين، يتحدثان مع عامل الاستقبال. لم أخط الخطوة التي تفتح الأبواب الأوتوماتيكية للهو. نظر إليّ عامل الاستقبال: استمر يشرح شيئا للرجلين بالصدريتين السوداوين، وابتعدت نظرتة المحايدة عني، ودرست الأبواب الزجاجية بلا مبالاة، ثم عادت إليهما. كان لا يزال يُريهما سجل الفندق، وبينما يقلّب الصفحات ينظر خلسة إلى الشارة المعدنية التي تركها أحد الرجلين فوق منصة الاستقبال. دخلتُ إلى الهو وتظاهرت بأنني أطالع الملصق المسجل فيه أسعار الغرف. من الخلف، كان الرجلان متماثلين تماما: وبينهما عادت نظرة عامل الاستقبال لتستقر عليّ، لكن لم يكن يستطيع الانتباه لذلك سواي. سمعت أحدهما يقول، بينما يحفظ الشارة المعدنية في الجيب الخلفي للبنطلون الجينز، الذي تلمع فوقه حافة أغلال: "أخبرنا إذا ظهر ذلك الرجل مرة أخرى."

أغلق موظف الاستقبال الصفحات العريضة للسجل بضربة. وقام رجلا الصدريتين في نفس الوقت بمصاحفته بصورة مبالغ فيها. ثم خرجا إلى الشارع: بدأت السيارة المركونة جانبيا على رصيف الفندق الحركة قبل أن يركبا. كنت أنا أدخن وأتظاهر بأنني أنتظر المصعد. ناداني موظف

الاستقبال باسمي، مشيراً إلى الباب بإيماءة راحة: "ذهبا أخيراً"، قال، معطياً إياي مفتاحاً لم يأخذه من لوحة المفاتيح. ثلاثمائة وسبعة. وكمن يعتذر عن حماقة لم يكن عليه أن يرتكبها أبداً، أوضح لي أن توسان مورتون - "ذلك الرجل الملون" - والمرأة الشقراء التي تصاحبه قد فتّشا غرفة السنيور دولفين، وأنه حين طلب الشرطة كان الوقت قد تأخر: استطاعا الهرب من سلم الحريق.

- لو استطاعا الصعود قبلها بعشر دقائق لقابلاه - قال - لابد أنهما تقاطعا في المصاعد.

- لكن السنيور دولفين لم يرحل؟

- لم يأت طوال الأسبوع. - وجد موظف الاستقبال اعتزازاً معيناً في إظهار تواطؤه مع بيرالبو. لكنني احتفظت له بالغرفة، فلم يأخذ حتى متاعه. عاد هذا المساء. كان متعجلاً جداً. قال لي قبل أن يصعد أن أطلب له عربة تاكسي.

- ألا تعرف إلى أين ذهب؟

- ليس بعيداً جداً. فلم يحمل سوى حقيبة يد. كلّفني إذا أتيت أن أعطيك مفتاح غرفته.

- هل قال لك شيئاً آخر؟

- حضرتك تعرف السنيور دولفين. - ابتسم عامل الاستقبال، منتصباً بعض الشيء -. لا يتحدث كثيراً.

صعدتُ إلى الغرفة: كانت علامة تهذيبٍ أن يعطيني عامل الاستقبال المفتاح، لأن القفل كان مكسورا. كان الفراش منكوشا وأدراج الصوان مقلوبة على الأرض. كان في الهواء عطرٌ كأنه لحطبٍ ندي مشتعل، رائحة رهيبة ودقيقة أعادتني على الفور إلى ليلة سان سباستيان التي رأيت فيها دافنى. على موكت الأرضية، بين الثياب والأوراق، كان عقبُ سيجارةٍ مسحوق قد اشتعل مخلفًا حوله دائرةً داكنة مثل بقعة. وجدت صورةً بالأبيض والأسود للوكريثيا، وكتابا بالإنجليزية يتحدث عن بيلي سوان، ونوتاتٍ موسيقية قديمة حوافها متآكلة، ورواياتِ الغازِ رخيصة، وزجاجةٌ سليمة من البوربون.

فتحتُ الشرفة. ضرب الرذاذُ والبرد وجهي بشدة. أغلقت المصاريع والستائر وأشعلتُ سيجارة. على رف الحمام وجدت كوبا بلاستيكيًا، داكنًا بحيث يبدو متسخًا. حاولت نسيان أن له قذارة تلك الأكواب التي توضع فيها أطقمُ الأسنان وملأته بالبوربون. متبعاً تطيراً قديماً عاودتُ ملأه قبل أن يفرغ. سمعت الضوضاء المكتومة للسيارات، وللمصعد، الذي كان أحيانا يتوقف قريباً جداً، وخطواتٍ وأصوات في ممرات الفندق. أخذت أشرب دون تعجلٍ، ودون اقتناع، ودون هدف، مثلما ننظرُ إلى أحد شوارع مدينةٍ مجهولة. جالسا على الفراش، أبقى الكوبَ بين ركبتي. التمتعت حُمرة البوربون في الزجاجاة على ضوء الكومودينو. كنت قد شربتُ النصف حين رنّت بضع طرقاتٍ محاذرة على الباب. لم أتحرك: لو دخل أحدٌ لرآني من ظهري، فأنا لن أستدير. دق الباب مرة أخرى: ثلاث خبطات، مثل إشارة سرية غامضة. أحقما بفعل البوربون والسكون نهضتُ وذهبت لأفتح دون أن أنتبه أنني أحمل الزجاجاة في يدي. كان ذلك أول ما نظرت إليه لوكريثيا حين

دخلت، وليس وجهي، الذي ربما لم تتعرف عليه إلا بعد قليل، حين قالت اسمي.

كثّف الكحول من دهشة رؤيتها. لم تكن كما عرفتُها، ولا حتى كما تخيلتها بعد كلمات بيرالبو. كان يحيطها جوٌّ وحدةٍ نهمة واستعجالٌ من هبط لتوه من قطار. كانت ترتدي معطفَ مطر أبيض ومفتوح بكتفين مبتلّين وجلبت معها برد ورطوبة الشارع. نظرت قبل أن تدخل الغرفة الفارغة إلى الفوضى، والزجاجة التي أمسكها بيدي. قلت لها أن تدخل. برغبةٍ عبثيةٍ في الضيافة رفعتُ الزجاجاة قليلا وعرضتُ عليها كأسا. لكن لم يكن ثمة مكانٌ للجلوس. واقفةً أمامي في وسط الغرفة، قبالي، دون أن تخرج يديها من جيبي معطفها، سألتني عن بيرالبو. كأنني أعتذرُ لنفسي عن غيابه قلت لها أنه قد رحل، أنني هنا لأخذ حاجياته. هزت رأسها، ناظرةً إلى الأدراج المفتوحة، إلى الضوء العكر للكومودينو. ومضاءةً بضوء الكومودينو، بالحماس الفارغ للبوربون، كان لوجه لوكريثيا خاصية الكمال والبعد تلك التي للنساء في إعلانات المجلات الفاخرة. بدت أكثر طولاً وأشد وحدةً من نساء الواقع ولم تكن تنظر مثلهن.

- أنتِ أيضا يجب أن تذهبي - قلت لها -. توسان مورتون كان هنا.

- ألا تعرف أين ذهب سانتياجو؟

بدا لي أن ذلك الاسم لم يكن يشير إلى بيرالبو: لم أسمع أبدا أحدا يناديه هكذا، ولا حتى فلورو بلووم.

- كذلك ذهب موسيقيوه - قلت. شعرت أن كلمة واحدة ستكفي  
لإبقاء لوكريثيا للحظة لكنني أجهلها: كما لو كنتُ أحرّك شفّتي في صمتٍ أمامها.  
دون أن تقول شيئاً آخر استدارت وسمعتُ أنا حفيف معطفها بالهواء، ثم  
الضجيج البطيء للمصعد.

أغلقتُ الباب وأعدتُ ملء كوب البوربون. خلف زجاج الشرفة رأيتها  
تظهر على الرصيف، من الخلف، منحنيةً بعض الشيء، والمعطف الأبيض  
تفرده ريحُ ديسمبر الباردة، التي تلتعّ بالمطر تحت أضواء الفندق الزرقاء.  
تعرفتُ على طريقتهما في السير بينما تعبرُ الشارع، وقد تحوّلت بالفعل إلى بقعةٍ  
بيضاء نائيةٍ بين الحشد، ضائعةٍ فيه، لامرئيةٍ، ممحوّةٌ بغتةً خلف المظلات  
المفتوحة والسيارات، كأنها لم توجد أبداً.

## تذيل

### بعد سنواتٍ طويلة

كتبْتُ الكلمات الختامية لهذه الرواية ذات ليلة، في منتصف فبراير، عام 1987، منذ نصف عمري. تمر السنين ويأخذ المرء في التغير، يغير حياته، مدينته، مظهره، رقم تليفونه، بلده. لكن الكلمات التي كتبها حينئذ تظل متطابقةً، مثل وجهٍ في صورةٍ من حينها، ورغم أن المرء ذاته كان مؤلفها تبدو له الآن وكأنها لآخر، ورغم أنها كلماته دون أدنى شك، لأنها منشورة بتوقيعه، فإنها لا تنتمي إليه. مر وقتٌ أطول مما يجب. ومرت كذلك كتبُ أكثر مما يجب. يكتب المرء كتاباً بنية أن يُعوّض الكتابَ السابق، ليصحّحه أو ليكذّبه، بالرغبة في أن يصنع جيداً هذه المرة ما لم يعرف كيف يصنعه من قبل، على هذا النحو يكون كلُّ كتابٍ جديدٍ خطوةً أخرى في المسافة إزاء ما فعله المرء، مسافةٍ تبدأ بغتةً فور انتهاء العمل.

قال خوان جريس أن ضربة الفرشاة الأخيرة التي يعطيها للوحة هي بالنسبة له "ضربة فرشاة الموت": ابتداءً من تلك اللحظة تكون اللوحة المكتملة ميتةً بالنسبة له. لا يمكن كتابة رواية دون احتشادٍ مطلق، دون قربٍ كامل بمثابة تمثّلٍ داخلي خالص. الرواية تمضي معك كما يمضي معك وعيك، ذاكرةً ما فعلته وما تكونه. الرواية هي أنت بينما تنكتب. تريد أن تحيا فيها وتريد إنهاءها. تريد أن ينتهي لايقين الفراغ الأبيض الذي يتبع كل كلمة،

البداية الجديدة التي يجب أن تأتي بعد نهاية فصل. تحيا متشبعا بما تفعله بحيث يمكن لأي حقيقة أو تفصيلا عارضة أن تتحول على الفور إلى مادة للرواية.

لكنك تُهيها وها قد أصبحت دونها. ليس شيئا فشيئا، بل فجأة. ربما يأتي الوداع النهائي حين تُعاد البروفات المصححة إلى الناشر. يكون الكتاب قد أفلت منك قبل حتى أن يخرج إلى الشارع. يعود وحده، في لفحات، من خلال ردود أفعال بعض القراء. بالنسبة للقراء يكون الكتاب هو أنت، لكن بالنسبة لك يكون قد صار بعيدا. في الامتنان ثمة شيء من نفاد الصبر، نوع من عدم الارتياح. لا تعود تريد أن يُحكم عليك بذلك الكتاب. ما يهْمُك هو كتاب آخر، لا يعرفه أحد بعد، الكتاب المستقبلي.

هذه الرواية كُتبت في خمسة أشهر تقريبا، منذ نحو ثلاثين عام. لا الناشرون ولا أنا كانت لدينا توقعات تجارية كبيرة بشأنها. وبطريقة غير متوقعة، تدريجية أولا، ثم متسارعة جدا، على مدى عام، تحولت إلى نجاح عظيم. استعاديا يكون من السهل تماما التنبؤ بالأمور. لكن المؤكد أن الرواية حين نالت الجائزة القومية، عام 1988، في قلب معرض مدريد للكتاب، لم تكن هناك نسخ منها في أي منفذ بيع، وفق ما استطعت أن أتأكد أنا نفسي، وليس دون أسي.

في كل هذا الزمن لم أعد النظر فيها سوى مرة واحدة، حين كان ضروريا مراجعة ترجمة إلى الإنجليزية. وقد منحني انطبعا ضخما بالغرابة. ومنذ تلك القراءة مضى أيضا زمن طويل. ولم أعد قراءتها حتى بينما كنت أكتب، طوال هذه السنة الماضية، رواية أخرى لها علاقة كبيرة بها، تدور

أيضا جزئيا في لشبونة وتتضمن إعادة تذكّر لمن كنت ولأفكاري عن الأدب في تلك الفترة.

في الواقع فإن من الجيد الانفصال عن الكتب المكتوبة بالفعل. فليس بإمكان المرء أن يتجول محمّلا بثقل ما اكتمل فعلا، أوجه التوفيق غير المحتملة، والأخطاء المؤكدة. لا الماضي ولا الكتب يمكن تصويبهما. وحده القارئ هو من لديه سلطة أن يُعيد إلينا جزئيا الرواية التي كُتبت عن الانتماء إلينا منذ زمنٍ طويل وصارت كأن آخر قد كتبها. القارئ هو من يجعلها جديدة حين يكتشفها. بالنسبة لي تبدو كذبة أن تستطيع هذه الرواية مواصلة العيش هكذا، فيلما يُعرض سرا ويحدث للمرة الأولى في خيال شخص ما.

أكتوبر، 2014